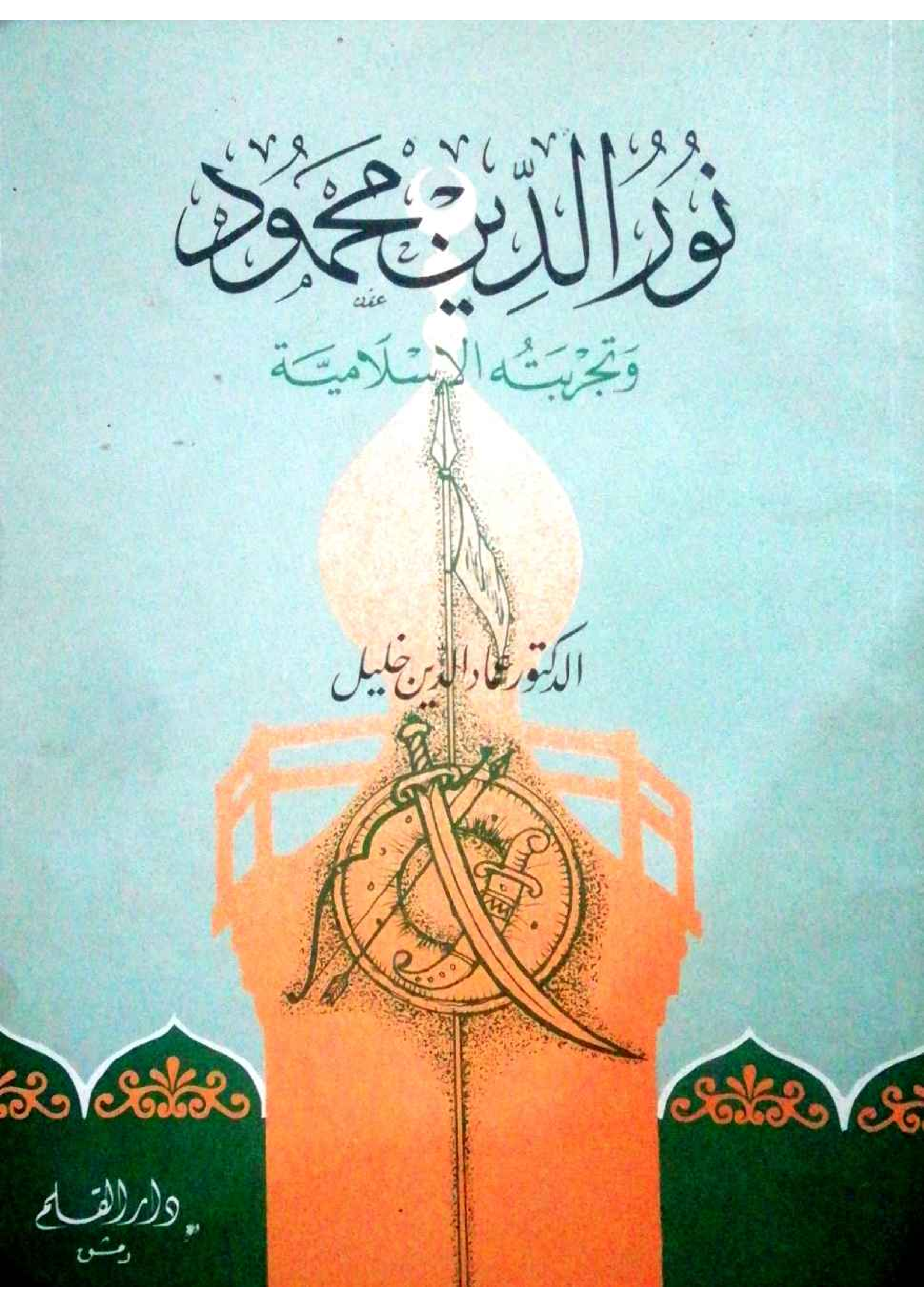

نور الدين محمود
وتجربته الإسلامية
الدكتور عماد الدين خليل
دار القلم
دمشق



الدكتور عماد الدين خليل

دار القلم
دمشق

الطبعة الثانية
١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م

دار القلم
للطباعة والنشر والتوزيع دمشق - حلبوني - ص. ب.: ٤٥٢٣ - هاتف: ٢٢٩١٧٧
بيروت - ص. ب.: ١١٣/٦٥٠١.

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

- ١ -

يكتسب نور الدين محمود اهميته في ميدان البحث التاريخي لتفوّقه في ميدانين : احدهما انه حقق سلسلة من الانتصارات العسكرية والسياسية والاستراتيجية ضد الصليبيين ؛ وعزّز بذلك المنجزات السابقة التي حققتها المقاومة الاسلامية في مراحل (البدايات) : مودود بن التونتكين (٥٠٢ ـ ٥٠٧ هـ) ، آق سنقر البرسقي (٥١٨ ـ ٥٢١ هـ) من ولاة السلاجقة في الموصل . سقمان بن ارتق (٤٩١ ـ ٤٩٨ هـ) ، ايلغازي ابن ارتق (٥١٣ ـ ٥١٦ هـ) ، بلك بن بهرام (٥١٦ ـ ٥١٨ هـ) من أراتقة ديار بكر . عماد الدين زنكي (٥٢١ ـ ٥٤١ هـ) مؤسس اتابكية الموصل وحلب ... وفتح الطريق لظهور القيادات التي قامت بعملية التصفية النهائية للوجود الصليبي : الناصر صلاح الدين والظاهر بيبرس وآل قلاوون . فهو ـ من ثم ـ يعدّ حلقة الوصل الخطيرة في تاريخ المقاومة الإسلامية للغزو الصليبي .

والآخر ـ وهو الأخطر والأهم ـ انه حقق بانقلابيته التي غطت جلّ مساحات الحياة ، واستمداده من منابع الإسلام الأصيلة في القرآن والسنة ، الأرضيةَ المناسبة التي تبعث (المجاهد) إلى الوجود وتمكنه من أداء دوره في احسن (الظروف) واكثرها قدرة على شحن طاقاته ... لا سيما وان الجهاد لا يتحقق مفهومه الحركي الدائم إلاّ بتواجد شروط معينة ابرزها القيادة المخلصة ، الملتزمة ، الواعية ، الذكية ... والتماسك الجماهيري ، والدفع الروحي الدائم ، والرؤية الموضوعية .

ولقد حقق نور الدين هذه الشروط فكسب أهميته الكبرى دون عشرات غيره من القادة والأمراء ، جاؤوا قبله أو بعده ، ولم يحققوا شيئاً على هذا المستوى الذي هو أساس النجاح الحقيقي في تاريخنا كله .

- ٢ -

لقد بدأ الرجل حكمه لإمارة محدودة لا تتجاوز مدينة حلب إلا قليلا .. وتوفي وهو يحكم دولة تمتد من حدود فارس حتى صحراء ليبيا ومن جبال الأناضول حتى النوبة واليمن والبحر العربي .. ليس هذا فحسب ، بل إنه أنشأ دولته هذه وسط تحديات الغزاة الصليبيين الذين انزرعوا في قلب المنطقة ، وكانوا ما يزالون حتى ذلك الحين يملكون قوتهم وحيويتهم وقدرتهم على الامتداد .

وليس هذا البحث سوى إجابة عن هذا السؤال ... تجوال في الخطوط الخلفية للجبهة بحثاً عن العناصر التي صاغت الانتصار في القيادة والقاعدة على السواء ...

والمنهج الصحيح هو الذي يعتمد المنطوق الاسلامي دوماً : إن اي تغيير في الخارج، في التاريخ ، لا يتحقق الا بانقلاب في الداخل .. في الذات .. بممارسة عملية (التغيير الذاتي) وفق المؤشر القرآني (إن الله لا يغيّر ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) .. وهو الأسلوب الذي اعتمده نور الدين في العمل فحقق به تلك الانتصارات التي حدثنا عنها كثير من المؤرخين ، كحسن حبشي في كتابه (نور الدين والصليبيون) وحسين مؤنس في كتابه (نور الدين محمود) وعبد الفتاح عاشور في كتابه (الحركةالصليبية) والسيد الباز العريني في كتابه (الشرق الأوسط والحروب الصليبية) ورنسمان في كتابه المترجم(تاريخ الحروب الصليبية)وكاهين في كتابه (Le Histoire de Croisades) وسيتون في كتابه (المحرّر) The History of The Crusades وإليسيف Elisseeff في كتابه (Nur Ad - din) وهو يشذ عن رفاقه في تخصيصه الجزء الثالث من كتابه لتحليل منجزات نور الدين العديدة في كافة المناحي الاجتماعية والمالية والإدارية والعمرانية والتعليمية . إلاّ أن المنهج الذي يعتمده الرجل غير المنهج الذي اعتمدناه

هنا ، فمحاولته ـ على أهميتها واتساعها ـ أقرب إلى أن تكون عملية مسح افقي للمنجزات منها إلى أن تكون توغل عمقي لتفهم حقيقة الدور الذي لعبه نور الديـن والأسباب البعيدة والقريبة التي تكمن وراء معطياته ..

ثم إن المؤرخ المذكور لا يقف عند حدود عصر نور الدين ، ولكنه يندفع وراء ضغط النصوص وندرتها وإغرائها، كذلك، لكي يتجاوز العصر والمكان، في محاولة لتقديم صورة أكثر اتساعاً وأغنى مادة لهذا الجانب أو ذاك . فالأداة الادارية التي يعرض لها ـ على سبيل المثال ـ ليست أداة نور الدين وحـده ولا أداة دولته في حدودها الجغرافية المعروفة ، ولكنها أداة استمدت مادتها البنائية من عصور سبقت نور الدين أو أعقبته ، ومن أمكنة تندّ عن حدود الخارطة السياسية التي بلغتها دولتـه .. وما يقال عن هذا الجانب يمكن أن يقال عن الجوانب الأخرى الاجتماعية والماليـة والتعليمية .. لكن كتـاب إليسيف بجزئيه الأولين اللذين يتناول فيهما منجزات نور الدين السياسية والعسكرية ، وبجزئه الثالث الذي يعرض فيه للجوانب المذكورة، يبقى ـ بعد هذا كله ـ أوسع دراسة كتبت عن نور الدين إلى هذا الوقت .

المهم أن هؤلاء المؤرخين لم يحدثونا بعمق وإسهاب عن الأسباب الحقيقية التي تكمن في شخصية نور الدين ، وفي منجزاته في الميادين الخلفية ، وفي تجاوب الجماهير معه .. الجماهير التي تظل قيم الاسلام كامنة في أعماقها حتى تتحرك بضربة حادثة ما ، او أسوة قيادة مخلصة ، أو بروز تحدٍّ خطير .. لكي ما تلبث أن تسهم في صنع الحركة التاريخية إسهاماً أصيلاً ..

- ٣ -

إن تجربة نور الدين هنا ـ فيما يمكن تسميته باطمئنان : إقامة الحكم الإسلامي في دولتـه ـ تأتي شاهداً تاريخياً مقنعاً ، تماماً كما كانت تجربة عمر بن عبد العزيز من قبله، على أن الإسلام كعقيدة (أيديولوجية) قدير في أية لحظة تتوفر فيها النيّة المخلصة والإيمان الصادق والالتزام المسؤول والذكاء الواعي ، على التماسّ مع واقع

الحركة التاريخية وصياغتها ، أو إعادة صياغتها ، على ضوء معطيات الاسلام (كتاباً) و (سنة) واجتهاداً ورصيداً تشريعياً ، وعلى أن الجماهير الإسلامية ، مهما صدّت عن الاتصال المباشر بموارد فكرها وعقيدتها وتاريخها ؛ فإنهـا تظل تحمل في عقولها وقلوبها ووجدانها ذلك التواصل الدائم ، والتناغم العميق ، مع هذا الدين الذي كرّمها الله ورسوله به ، والذي لن تجد معه في أي (بديل) قد يجيء من هنا أو يؤتى به من هناك .. إلاّ التغرّب والتمزق والانقطاع .

إنها جماهير قرون الالتزام الطويلة ليس مع عقيدة كالعقائد تحمل (الخرافة) التي تسقط بهـا في بدء الطريق ، أو (العتمة المادية) التي تضلّ معها في منتصف الطريق ... ولكنها عقيدة المنطق البشري والتوازن المعجز بين مطالب الروح العليا وضرورات المادة وشدّها .. إنها لن تجد ما تضيعه هناك:العقل أو الروح أو الجسد..

ومن ثم تظل تحمل الاستعداد للعودة إلى العقيدة التي ما ضيعتها ، إذ تفرقت بها السبل ، العودة التي كانت تتحقق كفعل تاريخي من خلال بروز تحدٍّ خارجي أو داخلي خطير ، أو في أعقاب ظهور قيادة واعية مؤمنة .. العودة التي كانت تخـرج بها دوماً من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيـا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام !!

- ٤ -

يتضمن هــذا البحث فصولاً أربع : تناولت في أوّلها عرضاً لتكوين شخصية نور الدين ، وفي ثانيها وثالثها ورابعها على التوالي تحليلاً لمنجزاته الإدارية فالاجتماعية فالثقافيـة .. معتمداً في هذا كله على طبقة المصادر الأساسية ـ وكثير منها معاصر لنور الدين ـ والتي خدمت جلّ مواد هذا البحث ، وأكثرها أهمية ولا ريب كتاب (سنا البرق الشامي) للعماد الأصفهاني و (ذيل تاريخ دمشق) لابن القلانسي و (الكامل) و (الباهر) لابن الأثير و (الروضتين) لأبي شامة و (رحلة ابن جبير) و (الأعلاق الخطيرة) لابن شداد و (زبدة الحلب) لابن العديم و (مرآة الزمان) لسبط ابن الجوزي ، وسيرة

نور الدين المعروفة بـ (الكواكب الدرية) لابن قاضي شهبة والتي لم يفعل فيها صاحبها سوى أنه جمع ما قدمته المصادر آنفة الذكر عن نور الدين من روايات . وثمة مجموعة اخرى من المصادر التي اعتمدتها تلي سابقتها في الأهمية وابرزها (مفرج الكروب) لابن واصل و (البداية والنهاية) لابن كثير و (وفيات الأعيان) لابن خلكان و (المنتظم) لابن الجوزي ، وغيرها مما يجده القارىء في قائمة المصادر في آخر الكتاب..ولم يكن تعاملي عبر هذه المصادر جميعاً إلاّ مع (النصّ) التاريخي وحده .. فلا إضافات قسرية ، ولا احكام أو تصوّرات مسبقة ، ولا تزييف للواقعة التاريخية أو قطعها أو بترها لإرغامها على الانسجام مع هذا الرأي أو تلك الوجهة،كما يفعل اليوم كثير من المؤرخين.

النصّ وحده .. وليس غير النصّ حكماً في البحث التاريخي إذا ما أريد له ان يكون علمياً جاداً ..

وكم كان بودّي أن أكتب عن الجانب الآخر من منجزات نور الدين : الانتصارات العسكرية والسياسية والاستراتيجية التي حققها ضد الغزاة الصليبيين ، فالمصادر متوفرة ، والروايات غنية ، والنصوص كثيفة .. فضلاً عن أن البحث في هذا الجانب يمثل استكمالاً طبيعياً ، يغري به التسلسل الزمني ، لما كنت قد كتبته من أبحاث (نشر بعضها ولم ينشر البعض الآخر) والتي تناولت في عدد من أهم فصولها منجزات المقاومة الإسلامية لمدى نصف قرن : تبدأ مع دخول الصليبيين الأرض الإسلامية عام ٤٨٨ هـ وتنتهي بمقتل عماد الدين زنكي عام ٥٤١هـ والتي حققها عدد من ولاة السلاجقة في الموصل[١] وقادة الأراتقة في ديار بكر [٢] وعماد الدين زنكي في الموصل وحلب[٣] .

---

(١) هنالك بحث للمؤلف بعنوان (عصر ولاة السلاجقة في الموصل) وهو قيد النشر.
(٢) هنالك بحث للمؤلف بعنوان (أراتقة ديار بكر) وهو أطروحة دكتوراه نشرتها مؤسسة الرسالة، بيروت ـ ١٩٨٠.

(٣) انظر كتاب (عماد الدين زنكي) للمؤلف ، الدار العلمية ، بيروت ـ ١٩٧١ .

كان بودّي أن أكتب عن هذا الجانب لولا أن أشبعه بحثاً المؤرخون المشار إليهم قبل قليل . ومن ثم فإن أي حديث (آخر) عنه سوف يجعلني أعتمد الطريق الخاطىء وهو (البدء من نقطة الصفر) في موضوع كان الآخرون قد قطعوا فيه المسافات الطوال. ولو أن أي باحث يلتزم ألا يكتب إلاّ إذا اطمأن أنه يأتي بجديد ـ بغض النظر عما قد يتضمنه الجديد من قصور أو أخطاء ـ لما تكبت مكتباتنا التاريخية وغير التاريخية بهذا التكرار الذي تتبعثر فيه طاقات نحن بأمس الحاجة إليها لكي ترتاد الحقول البكر في تاريخنا ، وما أكثرها وأوسعها ..

وإلى الله وحده ـ في ختام هذا البحث ـ أتوجه بالحمد والشكر .. ومن القارىء المخلص الجادّ وحده ، أطلب التوجيه والتسديد لما يكون قد تضمنه هـذا البحث المتواضع من أخطاء .. أو هو متضمنه فعلاً ..

الموصل : عماد الدين خليل

* * *

الفصل الأوّل

رحلة في تكوين الرَّجُل

تميّز نور الدين محمود بحشد من الصفات الذهنيـــة والنفسية والجسدية مكّنته من تحقيق ذلك النجاح الباهر في بناء وإدارة دولته الواسعة ، الممتدة .. وأشار عديد من المؤرخين إلى مواقف شتى كانت بمثابة (التعبير) العملي المباشـر لتلك القدرات والطاقات في ميادين العمل والحياة كافة .. إن الجدية والذكاء المتوقد النافذ الذي يصل في كثير من الأحيان حدّ الدهاء ، والشعور الدائم بالمسؤولية ، والمرونة في مجابهة المواقف المعقدة الصعبة ، والثقافة الواسعة والفقه العميق ، والقدرة على التوغل في نفوس الآخرين لاعتماد أولئك الذين يقدرون على تنفيـذ برامجه التغييرية الشاملة ، وقوة الشخصية ، ورسم الحلول بأسلوب علمي رصـين بعيد عن ضباب الدجل والخرافة ، والنزعة المتأصلة للبناء والإعمار والتحضّر في إطار من الإحساس الجمالي العميق ، والتمكن الفذّ من توسيع نطاق (الشعبية) بـين جماهير الأمة ، والتكوين العسكري الرياضي الممتاز ، والشجاعة الفائقة التي تصل حد الفداء ، والتجرّد العظيم تجاه إغراءات الجاه والسلطة ، والتقوى العميقة التي تتقدم بالإنسان المؤمن صعداً باتجاه قمم الإحسان وآفاقه الرحيبة ... كانت إلى جانب صفات عديدة أخرى ـ سنتلمّسها ونكشفها عبر بحثنا هذا ـ بمثابة نقاط الارتكاز التي بنيت عليها شخصية نور الديـن الفـذة المتفـردة ، وانجازاتـه العظيمة ... بالتالي .

— ١ —

منذ البداية والتكوين الجاد لنور الدين يدفعه دفعاً إلى الإسراع لسـدّ أية ثغرة قد يتسلل منها الهواء البارد ، واتخاذ الاجراءات الفورية الكفيلة بحماية الحق الإسلامي وردع المحاولات العدوانية .. « لما قتل زنكي عام ٥٤١ هـ ـ يقول ابن الأثير ـ كان جوسلين الفرنجي ، في ولايته غربي الفرات : تل باشر وما جاورها .

فراسل أهل الرها ، وكان عامتهم من الأرمن ، وواعدهم يوماً يصل إليهم فيه ، فأجابوه إلى ذلك، فسار في عساكره إليها وملكها ، وامتنعت عليه القلعة بمن فيها من المسلمين ، وقاتلهم وجدّ في قتالهم . فبلغ الخبر إلى نور الدين فسار مجداً إليها في العسكر الذي عنده ، فلما سمع جوسلين بوصوله خرج عن الرها إلى بلده ، ودخل نور الدين المدينة ونهبها وسبى أهلها فلم يبق منهم إلاّ القليل .. وأجلى من كان بها من الفرنج »[1] .. كان أبوه زنكي قد استرد هذا الموقع الخطير من الصليبيين عام ٥٣٩ هـ وأمر جنده يومها بالكف فوراً عن النهب والسلب والتخريب، ومنح النصارى المحليين حريات واسعة، وحمى كنائسهم وممتلكاتهم في محاولة منه لفك ارتباطهم بالغزاة الصليبيين الذين مارسوا معهم الكثير من أساليب التمييز والتفرقة الدينية .. أما وقد تآمروا ــ ثانية ــ في أخريات عهد زنكي ، وثالثة بعد مقتله لاعادة الرها إلى السيطرة الصليبية الغربية ، فإن إجراء نور الدين بنهب المدينة وسبي أهلها وطرد بقايا الصليبيين منها يجيء بمستوى الجدّ الذي يقتضيه الموقف إذا ما أريد لهذا الموقع أن يبقى محرّراً ، وألا يعود ثانية إلى قبضة الغزاة .

في عام ٥٦٧ هـ هاجم صليبيو اللاذقية مركبين للمسلمين كانا مملوءين بالأمتعة مكتظين بالتجار ، وغدروا بالمسلمين . وكان نور الدين قد هادنهم فنكثوا ، فلما سمع الخبر استعظمه وأرسل إلى الصليبيين يطلب إعادة ما أخذوه ، فغالطوه فلم يقبل مغالطتهم ، « وكان لا يهمل أمراً من أمور رعيته » كما يقول ابن الأثير ، إذ ما لبث أن جمع عساكره وبثّ سراياه في بلاد الصليبيين بين أنطاكية وطرابلس ، وقام هو بحصار حصن عرقة وتخريب ربضه ، والاستيلاء على حصني صافيتا والعزيمة شمالي الشام،وإجراء أعمال نهب وتخريب واسعة النطاق،الأمر الذي اضطر الصليبيين إلى مراسلة نور الدين يعرضون عليه استعدادهم لاعادة ما أخذوه من المركبين

(١) الباهر ص ٨٦ـ٨٧ ، الكامل ١١٤/١١ وانظر ما فعله بحصن العزيمة (الباهر ص ٩٠ والكامل ١٣١/١١ ــ ١٣٢) .

وتجديد الهدنة بين الطرفين ، فأجابهم نور الدين إلى ذلك لحاجته الماسّة ـ كما يبدو ـ إلى هدنة كهذه(٢) .

ويوماً بلغه ما فعله جوسلين من إرسال السلاح ـ الذي كان قد استولى عليه في إحدى معاركه مع نور الدين ـ إلى حميه السلطان مسعود حاكم سلاجقة الروم ، « فقام نور الدين لذلك وقعد ، وهجر الراحة للأخذ بثأره، فأذكى العيون على جوسلين ، وأحضر جماعة من التركمان وبذل لهم الرغائب إن هم ظفروا بجوسلين إما قتلاً أو أسراً . لأنه علم إن هو جمع العساكر الإسلامية لقصده جمع جوسلين الفرنج وحذر وامتنع ، فأخلد إلى إعمال الحيلة ... »(٣) . وكان نور الدين ـ كما يقول ابن الأثير ـ « إذا فتح حصناً لا يرحل عنه حتى يملأه رجالاً وذخائر يكفيه عشر سنين خوفاً من نصرة تتجدد للفرنج على المسلمين فتكون حصونهم مستعدة غير محتاجة لشيء »(٤) .

وهكذا ترتبط جدّية نور الدين بذكائه الحذر ودهائه الذي حقق له الكثير من المكاسب والمنجزات ، والذي لم يتح لأحد من الأعداء في الداخل والخارج أن ينفذ لتوجيه ضربة أو إصابة مقتل..كان كما يقول ابن الأثير مرة أخرى« يكثر إعمال الحيل والمكر والخداع مع الفرنج ، وأكثر ما ملكه من بلادهم به !! » ويضرب على ذلك مثلاً سياسته مع مليح بن ليون ملك الأرمن فيبلاد الأناضول « فإنه مازال يخدعه ويستميله حتى جعله في خدمته سفراً وحضراً ، وكان يقاتل به الفرنج . وكان يقول : إنما حملني على استمالته أن بلاده حصينة وعرة المسالك ، وقلاعه منيعة وليس لنا إليها طريق ، وهو يخرج منها ـ إذا أراد ـ فينال من بلاد الإسلام ، فإذا

---

(٢) ابن الأثير : الباهر ص ١٥٤ ـ ١٥٥ ، الكامل ١١/٣٧٣ ـ ٣٧٤ ، أبو شامة : الروضتين ١/٥١٦ ـ ٥١٧ .

(٣) الباهر ص ١٠٢ ، الكامل ١١/١٥٤ ـ ١٥٥ ، سبط ابن الجوزي : مرآة ٩/٢٠٢، ابن العديم: زبدة ٢/٣٠١-٣٠٢.

(٤) الباهر ص ١٠٣ ، الكامل ١١/١٥٥ .

طـّلب انحجر فيها فلا يقدر عليه . فلما رأيت الحال هكذا بذلت له شيئاً من الإقطاع على سبيل التآلف حتى أجاب إلى طاعتنا وخدمتنا وساعدنا على الفرنج . وحين توفي نور الدين وسلك من بعده غير هذا الطريق ملك زعيم الأرمن بعد مليح كثيراً من بلاد المسلمين وحصونهم ، وصار منه ضرر عظيم وخرق واسع لا يمكن رقعه »[٥] .

وفي محاولته فتح دمشق أدرك أن اعتماد العنف سيستفز حكامها ويدفعهم إلى مراسلة الصليبيين والاستعانة بهم ، فعمد إلى إعمال الحيلة ، وأخذ يراسل صاحبها مجير الدين ويستميله ويبعث إليه بالهدايا الموصولة ويظهر له المودة حتى وثق إليه . وأخذ نور الدين يكاتبه مشككاً إياه بنوايا عدد من أمرائه وإنهم بصدد الاتصال به ضد ملكهم ، الأمر الذي دفع مجير الدين إلى إبعاد واعتقال عدد من أبرز أصحابه، فلما خلت دمشق من زهرة أمرائها انتقل نور الدين خطوة أخرى فاتصل بأحداث دمشق (أي حرسها الشعبي) وجماهيرها واستمالهم فأجابوه إلى تسليم البلد . وعند ذلك تقدم لحصار دمشق وتمكن بمعونة أهلها أنفسهم من دخولها بسهولة بالغة ودونما إراقة للدماء[٦] .

وقبل ذلك ، وحينما بعث إليه الفاطميون يطلبون منه القيام بهجوم على المواقع الصليبية جنوبي الشام لاشغالهم عن مهاجمة مصر ، أجاب نور الدين أسامة بن منقذ سفيرهم في هذه المهمة « إن أهل دمشق[٧] أعداء والإفرنج أعداء ما آمن منهما إذا دخلت بينهما »[٨] .

ويحدثنا أبو شامة عن إحدى خدع نور الدين حينما أغار على طبرية وجمع بعض أعلام الصليبيين وشيئاً من ملابسهم وسلاحهم وسلمها إلى أحد جنده قائلاً :

---

(٥) الباهر ص ١٦٩ وانظر الكامل ١١/٣٨٧ ـ ٣٨٨ .

(٦) الباهر ص ١٠٧ ـ ١٠٨ ، الكامل ١١/١٩٧ ـ ١٩٨ ، ابن العديم : زبدة ٢/٣٠٣ ـ ٣٠٥ .

(٧) ويعني حكامها من آل طغتكين .

(٨) ابن منقذ : الاعتبار ص ١٤ .

أريد أن تعمل الحيلة في الدخول إلى بلبيس ، وتخبر أسد الدين شيركوه المحاصر هناك بما فتح الله على المسلمين في بلاد الشام ، وتعطيه هذه الأعلام وتأمره بنشرها في أسواق بلبيس فإن ذلك مما يفت في عضد الكفار ويدخل الوهن عليهم ؛ ففعل أسد الدين ما أمر به . فلما رأى الصليبيون ذلك قلقوا وخافوا على بلادهم وسألوا حليفهم شاور — الوزير المصري — الإذن بالانفصال[9] . كما يحدثنا ابن الأثير عن الأسلوب الذي اعتمده نور الدين في فتح حصن المنيطرة بالشام عام ٥٦١ هـ ، فهو لم يحشد له ولا جمع عساكره وإنما سار إليه في سرية من الفرسان على حين غرة من الصليبيين ، إذ أدرك أنه بجمعه العسكر سيعطي الإشارة إلى خصومه لكي يأخذوا أهبتهم . وما لبثت حامية الحصن أن فوجئت بهجوم نور الدين المباغت ، وبعد قتال عنيف سقط الحصن « ولم يجتمع الفرنج لدفعه إلا وقد ملكه ، ولو علموا أنه في قلة من العساكر لأسرعوا إليه ، إنما ظنوه أنه في جمع كثير ، فلما ملكه تفرقوا وأيسوا من رده »[10] .

وفي بدء حكمه حلب ، حينما ألح عليه أخوه الأكبر سيف الدين غازي حاكم الموصل أن يرحل لمقابلته وتقرير الأمور بين الرجلين بشكل نهائي ؛ تردد نور الدين في الاستجابة لطلب أخيه ، ورأى في ذلك مجازفة قد تودي بإمارته ، ولم يغادر حلب للقاء أخيه إلا بعد أن تأكد من موقفه الودي منه ، وبعد أن تم الاتفاق بينهما على أن يتم الاجتماع خارج معسكر سيف الدين ، ومع كل من الأميرين خمسمائة فارس ، وأن يكون اللقاء ليلاً في الخابور كيلا تكون هنالك فرصة لأن يقاتل أحدهما الآخر . ولعل الذي اختار هذا الوقت هو نور الدين لأنه هو الذي كان يخشى أخاه[11] .

---

(٩) الروضتين ٤٢٢/١ .

(١٠) الكامل ٣٢٢/١١ .

(١١) ابن الأثير : الباهر ص ٨٧ — ٨٨ ، سبط : مرآة ١٩٢/٨ وهامش ١ نفس الصفحة .

— ٢ —

وكان يحس بالمسؤولية إحساساً غامراً : المسؤولية تجاه الزمن أن يضيع ، وتجاه الدم المسلم أن يُهدر ، وتجاه الكرامة الاسلامية أن تداس أو تمتهن ، وتجاه الأرض الاسلامية أن تغزى وتقتطع •• كان يعمل ليل نهـار ، وكان يقتطع من أوقات راحته البيتية •• فكانت زوجته ـ كما يحدثنا رضيعها ـ تعتزل عنه إلى ما يختص بها ، وينفرد هو تارة يطالع رقاع أصحاب الاشغال وتارةً يقرأ كتاباً أتاه ويردُ عليه •• وما أن يحل فجر اليوم التالي حتى يظهر للركوب ويشتغل بمهـام الدولـة [١٢] •

في عام ٥٤٤ هـ حينما ورد نبأ تحالف دمشق مع الصليبيين قال : لا أنحرف عن جهادهم • إلا أنه مع ذلك كان يكفّ أيدي أصحابه عن العبث والإفساد في الضّياع ويحسن الرأي في الفـلاحين ويعمل على التخفيف عنهم الأمر الذي أكسبه عطف وتأييد جماهير دمشق وسائر البلاد التابعة لها ، فراحت تدعو له بالنصر • وكتب إلى زعماء دمشق « إنني ما قصدت بنزولي هذا المنزل طالباً لمحاربتكم ، وإنما دعاني إلى هذا الأمر كثرة شكاية المسلمين •• بأن الفلاحين أخذت أموالهم وشتت نساؤهم وأطفالهم بيد الفرنج وانعدام الناصر لهم ؛ فلا يسعني مع ما أعطاني الله وله الحمد من الاقتدار على نصرة المسلمين وجهاد المشركين وكثرة المال والرجال ، ولا يحلّ لي القعود عنهم والانتصار لهم ؛ مع معرفتي بعجزكم عن حفظ أعمالكم والذّب عنها والتقصير الذي دعاكم إلى الاستصراخ بالفرنج على محاربتي وبذلكم لهم أموال الضعفاء والمساكين من الرعية ظلماً لهم وتعدياً عليهم ؛ وهذا مالايرضي الله تعالى ولا أحداً من المسلمين •• » [١٣] •

في العام التالي خرج إليـه أهل دمشق وكثير من أجنادها ، بعد أن قرر عدم مهاجمتها عنوة كراهية لسفك دماء المسلمين ، والتقى بعدد من الطـلاب والفقراء

---

(١٢) الباهر ١٦٤ .

(١٣) ابن القلانسي : دمشق ص ٣٠٨ ـ ٣٠٩ .

والضعفاء فلم يخيب أحداً من قاصديه [١٤] • وقد أصر نور الدين طيلة الفترة التالية، على عدم القيام بهجوم على البلد تحرجاً من قتل المسلمين وقال : « لاحاجة إلى قتل المسلمين بأيدي بعضهم بعضاً ، وأنا أرفههم ليكون بذل نفوسهم في مجاهدة المشركين •• » [١٥] فهو يعلم جيداً أن الأمة إذا قتلت نفسها سهلت على العدو ، وإذا قدرت على حماية دمها بذلته رخيصاً في مجاهدة هذا العدو •• معادلة واضحة يمكن أن تفسر لنا الكثير من هزائم الأمم وانتصاراتها على السواء •• ومن ثم كانت عادة نور الدين كما يقول أبو شامة : « انه لا يقصد ولاية أحد من المسلمين إلا ضرورة ، إما ليستعين على قتال الفرنج ، أو للخوف عليها منهم كما فعل بدمشق ومصر وغيرهما » [١٦] • لقد كان الدم « عنده عظيماً » كما يقول ابن الأثير : « لما كان قد جبل عليه من الرأفة والرحمة والعدل » [١٧] •

ويتبدى شعور نور الدين بالمسؤولية تجاه الأرض الاسلامية ، في ذلك الجواب الذي بعث به مع رسول (أيلدكز) حاكم أذربيجان الذي استنجد به بعض أمراء الموصل ضد نور الدين ، والذي بعث إليه يتهدده بأن لا سبيل له إلى الموصل • قال نور الدين للرسول : « قل لصاحبك : أنا أرفق ببني أخي (يعني سيف الدين غازي) منك ، فلم تدخل نفسك بيننا ؟ وعند الفراغ من إصلاحهم يكون الحديث معك عند باب همذان ، فإنك قد ملكت نصف بلاد الاسلام وأهملت الثغور حتى غلب الكرج عليها وقد بليت أنا وحدي بأشجع الناس : الفرنج ، فأخذت بلادهم وأسرت ملوكهم • فلا يجوز لي أن أتركك على ما أنت عليه ، فإنه يجب علينا القيام بحفظ ما أهملت من بلاد الاسلام وإزالة الظلم عن المسلمين » [١٨] •

---

(١٤) ابن القلانسي ص ٣١٠ .

(١٥) نفسه ٣١٥ ـ ٣١٦ .

(١٦) الروضتين ١/٥٤٤ .

(١٧) الباهر ص ١٠٧ .

(١٨) نفسه ص ١٥٣ ـ ١٥٤ ، الكامل ١١/٣٦٢ ـ ٣٦٤ ، أبو شامة : الروضتين ١/٤٧٥ ـ ٤٧٧ ، ابن العديم ، زبدة ٢/٣٢ ـ ٣٣٣ .

- ٣ -

وفي مجابهته للمشاكل والأحداث كان نور الدين ، يعتمد ــ إذا صحّ التعبير ــ أسلوباً عقلياً واقعياً للوصول إلى الحلول الملائمة .. الاسلوب الذي دعا إليه القرآن الكريم وسار على هديه الرسول ﷺ وخلفاؤه الراشدون رضي الله عنهم فحققوا من خلاله تغييراً فعلياً في خارطة العلاقات والأشياء .

في عام ٥٥٢ هـ شهدت الجهات الوسطى والشمالية من بلاد الشام زلازل عنيفة تتابعت ضرباتها القاسية فخربت الكثير من القرى والمدن وأهلكت حشداً لا يحصى من الناس .. وتهدمت الاسوار والدور والقلاع .. فما كان من نور الدين إلاّ أن شمّر عن ساعد الجدّ وبذل جهوداً عظيمة في إعادة إعمار ماتهدم وتعزيز دفاعاته « فعادت البلاد كأحسن مما كانت ، ولولا أن الله منّ على المسلمين بنور الدين ، فجمع العساكر وحفظ البلاد ، لكان دخلها الفرنج بغير قتال ولا حصار »[١٩] .

وفي عام ٥٦٥ هـ ضربت بلدان المنطقة بغارة أخرى من الزلازل لم تقل هولاً عن سابقتها ، خربت الكثير من المدن وهدمت أسوارها وقلاعها ، وسقطت الدور على أهلها وهلك منهم مايخرج عن الحدّ والاحصاء . فلما بلغ الخبر نور الدين سار إلى بعلبك لإعادة إعمار ما تهدم من أسوارها وقلعتها،ولم يجأر إلى الله بالشكوى ويعلن أن الظلم قد فشا وأن هذا عقاب الله ، أو أن أشــراط الساعة قد لاحت في الأفق القريب .. وعندما وصل بعلبك أتاه خبر دمار باقي البلاد وهلاك الكثير من أهليها .. فرتب في بعلبك من يحميها ويعمرها وانطلق إلى حمص ففعل مثل ذلك ومنها إلى حماه فبعرين « وكان شديد الحذر على سائر البلاد من الفرنج لاسيما قلعة بعرين ، فإنها مع قربها منهم لم يبق من سورها شيء البتة فجعل فيها طائفة صالحة

---

(١٩) ابن الاثير : الباهر ص ١١٠ ، ١١٢ ، الكامل ٢١٨/١١ ، ابن العديم : زبدة ٣٠٦/٢ ــ ٣٠٨ ، ابن القلانسي : دمشق ص ٣٣٥ ــ ٣٣٦ ، ابن الجوزي : المنتظم ١٧٦/١٠ ــ ١٧٧ ، سبط : مرآة ٢٢٨/٨ ــ ٢٢٩ .

من العسكر مع أمير كبير ، ووكل بالعمارة من يحث عليها ليلاً ونهــاراً • ثم أتى مدينة حلب •• فلما شاهد ما صنعته الزلزلة بها وبأهلها أقام فيهــا وباشر عمارتها بنفسه ، وكان هو يقف على استعمال الفعلة والبنائين • ولم يزل كذلك حتى أحكم أسوار جميع البلاد وجوامعها وأخرج من المال مالا يقدر قدره »[٣٠] •

إن نور الدين يرفض في المرتين ، وفي غيرهما مما لم نشر إليه ، القول بأن هذه الكوارث الطبيعية جاءت غضباً من الله!! وهو يذكرنا هنا بموقف الرسول عليه السلام يوم وفاة ابنه إبراهيم حيث كسفت الشمس أو خسف القمر فقال بعض الناس : إنه الحزن على وفاة إبراهيم •• وكان جواب الرسول عليه السلام : إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لاتنكسفان ولا تنخسفان لموت أحد من الناس !!

إن الكوارث تجيء بمثابة تحديات دائمة تستفز الجماعات البشرية وقياداتها إلى المزيد من الوعي والانجاز ، وإن الاستجابة لهذه التحديات هي التي تقود الأمم والتجارب السياسية والحضارات خطوات إلى الأمام ، والعجز عنها هو الذي يربك مسيرتها ويصيبها بالعجز والشلل والجمود •• أما نور الدين فقد اختار الموقف الأول وأعاد إعمار ما هدمته الكوارث بسرعة مدهشة •• وواصل الطريق ••

ثمة واقعة أخرى ذات دلالة واضحة في هذا المجال : كانت في الموصل خربة واسعة في وسط البلد أشيع عنها أنه ماشرع في عمارتها إلا « من ذهب عمره ولم يتم على مراد أمره » فأشار الشيخ عمر الملاء ــ أحد صالحي المدينة وشيوخها الورعين ــ بابتياعها وبناء جامع كبير فيهــا تقام فيه الصلوات وتخطب الجمع وتدرس العلوم ففعل نور الدين وأنفق فيه أموالاً كثيرة ••[٣١] •

لم يضرب نور الدين الخرافة والشائعة بالكلمة•• ولكنه ضربها بالفعل •• بالانجاز •• وزالت الخرافة •• ولكن المسجد الكبير الذي بناه على أنقاضها ظل حتى اليوم يستقبل مئات المتعبدين والدارسين •

---

(٣٠) الباهر ص ٤٥ ، الكامل ١١/٣٥٤ ، ابو شامة : الروضتين ١/٤٦٧ ــ ٤٦٨ ابن الجوزي : المنتظم ١٠/٢٣٠ •

(٣١) ابو شامة : الروضتين ١/٤٨٠ •

— ٤ —

وموقف نور الدين العملي من هذه الكوارث يعكس لنا جانباً آخر من تكوينه : ذلك هو نزعته العميقة المتأصلة للإعمار والبناء والإنجاز •• إن الحكم الناجح في نظره هو ذلك الذي يعرف كيف يحقق أكبر قدر من العمران والتحضّر بأقل قدر من الزمن •• إنه السباق الحضاري المعروف بين الإنسان والزمن من أجل الإنجاز والبناء والتغيير ، السباق الذي تحدثنا عنه في أكثر من مكان وقلنا أن كتاب الله سبحانه وتعالى قد دعانا إلى الاستجابة لتحدّيه.. ووصف المؤمنين بأنهم (يسارعون في الخيرات) وأنهم (لها سابقون) •• المسارعة والسبق •• وكلتاهما تتضمنان مفهوماً زمنياً واضحاً •

إن الحكم الصالح في نظر نور الدين — من ثم — ماهو إلاّ الاداة القديرة على حل هذه المعادلة البسيطة لتحقيق أفضل النتائج في كافة ميادين العمل والابداع، لقد بنى الرجل الجوامع والمساجد والربط والزوايا للتعبد وتربية الروح •• كما بنى المدارس ودور الحديث للتعلم وتربية العقل •• وشجع أعمال الفروسية والنشاطات الرياضية لكسب مزيد من المهارات القتالية وتربية الجسد •• ولم تمضِ على حكمه سنوات فحسب حتى بدت دولته تشهد المزيد من مؤسسات الخدمات الاجتماعية : المارستانات ، الملاجىء ، دور الايتام ، المدارس ، دور الحديث ، الخانات ، الربط ، الجسور ، القناطر ، الحدائق ، القنوات ، الاسواق ، الحمامات ، الطرق العامة ، المخافر والأسوار ، كما سنتحدث عنها بإسهاب فيما بعد • ويكفي هنا أن نشير إلى ما ذكره مؤرخ «العصر النوري» العماد الأصفهاني من أن نور الدين : « أمر بإحصاء ما في محالّ دمشق من مساجد هجرت وخربت فأناف على مائة مسجد وموضع ؛ فأمر بعمارة ذلك كله وعين له وقوفاً • ولو اشتغلت بإحصاء وقوفه وصدقاته في كل بلد

لطال الكتاب ولم أبلغ إلى أمد . ومشاهدة أبنيته الدالة على خلوص نيته يغني عن خبرها بالعيان ، ويكفي أسوار البلد فضلاً عن المدارس والربط ... »[٢٢] .

ولم يغفل نور الدين ــ وهو بصدد البناء والإعمار ــ عن الجانب الجمالي الذي يرتبط ارتباطاً أساسياً بالإبداع .. ورجل كنور الدين تخرجه مدرسة الإسلام الرحيبة الشاملة لايمكن إلاّ أن يرى في العمل والتزيين .. في المضمون والشكل .. في الوقائع والجماليات، وجهين لعملة واحدة..رأى محراب مدرسة العماد الأصفهاني غير مفصّص فنفذ لعمارته فصوصاً مذهبة وذهباً ثم توفي دون إتمامه [٢٣] ، وأوقف بستان الميدان والغيضة التي تليه في دمشق لتطييب جوامع دمشق ومدارسها .. لكي يظل هواؤها معبقاً بالروائح الطيبة والشذى العبق .. وكان على اهتمام كبير بهذه المسألة بحيث أنه حدّد مصارف وقفه المذكور « نصفه على تطييب جامع دمشق والنصف الآخر يقسم عشرة أجزاء ، جزءان على تطييب المدرسة التي أنشأها للحنفية والثمانية أجزاء الأخرى على تطييب المساجد التسعة في دمشق وأطرافها »[٢٤] .وجلب للمدرسة الحلاوية التي بناها في حلب ، من مدينة أفامية ، مذبحاً من الرخام الملكي الشفاف الذي إذا وضع تحته ضوء شفّ من وراء الرخام [٢٥] . ولما دخل قلعة دمشق عام ٥٤٩ هـ أنشأ بها داراً عامة « في غاية الحسن » سماها دار المسرّة [٢٦] ..

---

(٢٢) البرق ص ١٤٤ وانظر : سبط : مرآة ٨/٢٤٧ ــ ٢٤٨ ، ٢٧٠ ، ٢٨٠ ، ٣٠٦ ، ابن كثير : البداية ١٢/٢٧٨ ، ٢٨١ ، ابو شامة : الروضتين ١/١/١٠ ، ٤١ ــ ٤٤ ، ابن كثير : ١١/٣٩٥ ، ابن شداد : الاعلاق (قسم حلب) ١٧ ، ٢١ ، ٢٤ ، ٣٢، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤٩ ، ٩٣ ، ١٤٤ (قسم دمشق) ٣٦ ، ٣٨ ، ٧٦ ، ١٠٣ ــ ١٠٤ ، ١١٢ ، ١١٤ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٣٦ ، ١٤٦ ، ١٥١ ، ١٥٩ ، ١٩٢ .
إليسيف : نور الدين ص ٧٥١ ــ ٧٧٩ .

(٢٣) العماد : البرق ص ١٤٥ .

(٢٤) ابن كثير : البداية ١٢/٢٨٣ .

(٢٥) ابن شداد : الاعلاق (قسم حلب) ص ١١٠ ــ ١١١ .

(٢٦) نفسه : (قسم دمشق) ص ٣٨ .

وفي قلعة حلب أنشأ نور الدين أبنية كثيرة وأقام ميداناً « خضّره بالحشيش » وسمي الميدان الأخضر[27] .

ويرتبط بهذه المسألة الجمالية ما كان نور الدين يأمر به في المناسبات من تزيين دمشق ، حاضرة دولته ، وإبرازها في مظاهر البهجة والجمال .. وابن القلانسي ، شاهد العيان ، يحدثنا عن إحدى هذه المناسبات عام ٥٥٢ هـ حيث أمر نور الدين بزينة قلعته ودار مملكته بحيث حلّى أسوارها بالآلات الحربية من الجواشن والدروع والتراس والسيوف والرماح والطوارق الإفرنجية والأعلام والطبول والبوقات وأنواع الملاهي المختلفات . وهرعت الأجناد والرعايا وغرباء البلاد لمشاهدة الحال فشاهدوا ما استحسن منه مدة سبعة أيام »[28] لقد كان أكسسوار الحفل وديكوراته ـ إذا صح التعبير ـ مناسبة تماماً لمدينة كدمشق تتزعم حركة الجهاد وتقف في قلب التحدي !!

وتبدو نزعة نور الدين للاعمار والتحضير ، أكثر ماتبدو ، في سياسته الرامية لتوطين العناصر البدوية وجعلها تمارس حياة الاستقرار . ونحن نرى في رواية لسبط ابن الجوزي نورَ الدين وهو يُقطِع أمراء العرب في جنوبي الشام والحجاز القطائع لئلا يتعرضوا لقوافل الحجاج [29] . وفي رواية أخرى للعماد وهو ينقل أعراب بني عباد من البلقاء والأردن إلى صرخد الملاصقة لبلاد حوران من أعمال دمشق .. ورغم أن هدف هذه الخطوة انصب على تجميد نشاط هؤلاء في مساعدة صليبيي المنطقة وإرشادهم على الطرق ، وتحويل هؤلاء الأعراب إلى قوة تعمل لصالح المسلمين أنفسهم ، كما أشارت الرواية المذكورة[30] إلا أنها حققت من ناحية أخرى هدفاً عمرانياً واضحاً .

---

(٢٧) ابن شداد : الاعلاق (قسم حلب) ص ٢٤ .

(٢٨) مرآة : ٣٠٦/٨ .

(٢٩) مرآة ٣٠٦/٨ .

(٣٠) البرق ص ١٢٥ ـ ١٢٦ .

وفي الإجراء الذكي الذي اتخذه نور الدين باعتماد (الحمام الزاجل) اعتماداً منظماً في الخدمات البريدية دلالة واضحة على رغبته العميقة في اختزال الزمن ومجابهة اتساع دولته وامتدادها الجغرافي الواسع بأسلوب عملي رصين يقطع الطريق على مناورات أعدائه الصليبيين،فضلاً عن الاسراع في تقديم الخدمات البريدية الداخلية. وقد أمر نور الدين بتنفيذ أسلوبه الجديد هذا « وكتب إلى سائر البلاد وأجرى الجرايات لها ولمربيها ، فوجد بها راحة كثيرة ، فقد كانت الأخبار تأتيه لوقتها ، فإنه كان له في كل ثغر رجـال مرتبون ومعهم حمام المدينة التي تجاورهم فإذا رأوا أو سمعوا أمراً كتبوه لوقته وعلّقوه على الطائر وسرحوه،فيصل إلى المدينةالتي هو فيها في ساعته ، فتنقل الرقعة منه إلى طائر آخر من البلد الذي يجاورهم في الجهة التي فيها نور الدين ، وهكذا إلى أن تصل الأخبار إليه ، فانحفظت الثغور بذلك ... »(٣١) وقد جلب نور الدين عدداً كبيراً من الحمام من الموصل ووزعها على بلدان الشام ومصر، وأمر بالاعتناء بتربيتها وفق طرق فنية مدروسة، كما أمر ببناء الأبراج على الطرق التي تصل بين المدن المختلفة لكي تكون أشبه بالمحطـات لاستبدال الحمام كي يقدر على مواصلة مهمته (٣٢) .

وليس ثمة رواية تحمل دلالتها على نزعة نور الدين للبناء والإعمار ، تعدل رواية ابن جبير ، الرحالة الذي زار دمشق ووصف معالمها ، بعد سنوات فحسب من وفاة نور الدين . ولا ريب أن وصفه هـذا ينسحب على العصر الذي تتحدث عنه لأن تغييرات جغرافيا المدن لا تقاس بالسنين المحدودة بل بعقودها على أقل تقدير ... يقول الرجل، مشيراً إلى الاتساع العمودي لدمشق « وبناء البلد ثلاث طبقات، فيحتوي من الخلق على ماتحتوي ثلاث مدن ، لأنه أكثر بلاد الدنيا خلقاً وحسنه كله خارج المدينـة لا داخلها .. وبدمشق (ما يقرب من) مائـة حمّام فيها وفي

---

(٣١) ابن الأثير : الباهر ص ١٥٩ ، الكامل ٣٧٥/١١ ، سبط : مرآة ٢٨٥/٨ – ٢٨٦ ، أبو شامة : الروضتين ٥٢٠/١ .

(٣٢) انظر إليسيف : نور الدين ص ٧٨٣ – ٧٨٥ .

أرباضها • وفيها نحو أربعين داراً للوضوء يجري الماء فيها كلها • وليس في هذه البلاد كلها بلدة أحسن منها للغريب لأن المرافق بها كثيرة •• وأسواق هذه البلدة من أحفل أسواق البلاد وأحسنها انتظاماً وأبدعها صنعاً » [٣٣] •

وقد سرت عدوى الرغبة في البناء والإعمار إلى رجال نور الدين وكبار موظفيه ـ كما سنرى في الفصول التالية ـ فراحوا يتسابقون في بنـاء المدارس والمساجد ومؤسسات الخدمات الاجتماعية ، وما أكثر الروايات التي قيلت في هذا الصدد ، ويكفي أن نطلع على تراجم رجال نور الدين محمود ، بل النساء اللواتي اشتهرن في عصره كذلك !!

ـ ٥ ـ

وكان نور الدين قوي الشخصية ، قديراً على الوقوف في نقطة التوازن بين الصرامة والمرونة ، والشدة واللين ، والعنف والرحمة ، مائلاً ـ بقدر ـ إلى هذا الجانب أو ذاك حيثما تطلّب الموقف التحرك إلى هنا أو هناك •• يصفه ابن الأثير بأنه كان « مهيباً مخوفاً مع لينه ورحمته » [٣٤] ، وأنه « كانت إليه النهاية في الوقار والهيبة •• شديداً في غير عنف ، رقيقاً في غير ضعف » [٣٥] ، ويصف مجلسه فيقول : « إنه كان كما روي في صفة مجلس الرسول ﷺ ، مجلس حلم وحياء لاتؤبن فيه الحرم ، ولا يذكر فيه إلا العلم والدين وأحوال الصالحين والمشورة في أمر الجهاد وقصد بلاد العدوّ ، ولا يتعدى هذا •• وقال الحافظ ابن عساكر الدمشقي : « كنا نحضر مجلس نور الدين فكنا كما قيل : كأن على رؤوسنا الطير ، تعلونا الهيبـة والوقار وإذا تكلم أنصتنا ، وإذا تكلمنا استمع لنا » [٣٦] • وقال ابن كثير : « لم يسمع منه كلمة فحش قط في غضب ولا رضى ، صموتاً وقوراً » [٣٧] •

---

(٣٣) رحلة ص ٢٥٥ ، ٢٦١ .

(٣٤) الباهر ص ١٤١ .

(٣٥) نفسه ص ١٧٢ـ ١٧٣ .

(٣٦) نفسه ص ١٧٣ .

(٣٧) البداية ٢٧٨/١٢ .

كان يملك هيمنة عجيبة على موظفيه، صغيرهم وكبيرهم، فكان يلزمهم بوظائف الخدمة « ولم يجلس عنده أمير من غير أن يأمره بالجلوس .. وكان مع هذه العظمة وهذا الناموس القائم، إذا دخـل عليه الفقيه أو الصوفي أو الفقير يقوم له ويمشي بين يديه ويجلسه إلى جانبه ويقبل عليه بحديثه كأنه أقرب الناس إليه »(٣٨).

- ٦ -

ويقودنا هذا - في المقابل - إلى ماكان يتمتع به الرجل من شعبية بين أبناء أمته - وقد تناغم في تكوينه الذاتي هذا الحشد الغني من المزايا والصفات - شعبية امتدت لكي تتجاوز مدن دولته وحصونها وقراها.. إلى ما وراء الحدود فيكسب جماهير خصومه من الداخل، فيهز عروشهم، ويقطع جذور مواقعهم من الاعماق، ويزيحهم من طريق الوحدة التي اعتزم بناءها دونما قطرة من دم فالدم المسلم « كان عنده عظيماً » وليست تجربته مع جماهير دمشق بالمثل الوحيد(٣٩).

منذ عام ٥٤٣ هـ حينما تقدم على رأس قواته للمساعدة على فك حصار الحملة الصليبية الثانية عن دمشق « شاهد الدماشقة حرمته حتى تمنوه »(٤٠) وراحوا يدعون له دعاءً متواصلاً(٤١)، وأخذ يخرج إليـه - خلال المراحل التالية من الحصار - عدد كبير من الطلاب والفقراء والضعفاء، ولهـذا دلالته، فهم الذين

---

(٣٨) الباهر ص ١٧٢ - ١٧٣.

(٣٩) انظر مثلاً تفاصيل دخوله الموصل عام ٥٦٦ هـ حيث يذكر ابن الأثير « ان هوى كل من بالموصل من جندي وعامي كان مع نور الدين، لحسن سيرته وعدله » (الباهر ص ١٥٣ - ١٥٤).

وانظر الكامل ١١/٣٦٢ - ٣٦٤ وأبا شامة: الروضتين ١/٤٧٥ - ٤٧٧، وابن العديم: زبدة ٢/٣٣٢ - ٣٣٣.

(٤٠) ابن كثير: البداية ١٢/٢٢٣.

(٤١) ابن القلانسي: دمشق ص ٣٠٨ - ٣٠٩.

كانوا في الواقع أصدقاءه الحقيقيين كما سيتبين لنا ، « فما خاب قاصده» كما يقول ابن القلانسي [٤٢] أما فلاحو المنطقة فكانت قلوبهم معه لأنه منع أصحابه من العبث في مزارعهم ، وأعلن أنه جاء لكي يحمي كدحهم من تخريب الصليبيين[٤٣] .

وفي عام ٥٤٧ هـ عندما تقدم إلى دمشق لضمها إلى جبهة القتال الجادّ المخلص ضد الصليبيين ، واستنجد حاكمها مجير الدين بالعسكر والاحداث [٤٤] للخروج إلى قتاله « لم يخرج إلا القليل ، لما وقر في نفوسهم من استنجاد مجير الدين بالفرنج ... وأقام نور الدين على دمشق من غير قتال ولا زحف خوفاً على المسلمين ...» [٤٥] ، وقد عزّز بذلك محبة الدمشقيين له فكانوا « يدعون ليلاً نهاراً أن يبدلهم الله سبحانه بالملك نور الدين » [٤٦] ، وأخذ نور الدين يكاتب أهل دمشق ويستميلهم « وكان الناس يميلون إليه لما هو عليه من العدل والديانة والاحسان ، فوعدوه بالتسليم » [٤٧] .

وقد دخل نور الدين دمشق عام ٥٤٩ هـ في فتح أبيض لم ترق فيه دماء وماذلك إلاّ بمساعدة الجماهير التي كانت تنتظر دخوله منذ سنوات وسنوات « ويقال أن امرأة كانت على السور فدلّت حبلاً فصعدوا إليه ، وصار على السور جماعة ونصبوا السلالم وصعدت جماعة أخرى ونصبوا علماً وصاحوا بشعار نور الدين » [٤٨] .

---

(٤٢) ابن القلانسي : دمشق ص ٣١٠ .

(٤٣) نفسه ص ٣٠٨ ــ ٣٠٩ .

(٤٤) رجال الشرطة المكلفون بإخماد الفتن وعقاب مثيري الشغب ، أو هم رجال الحرس الإقليمي في العصور الوسطى (ابو شامة : الروضتين ٨٥/١/١ هامش ٤) .

(٤٥) سبط : مرآة ٢٠٩/٨ ــ ٢١٠ .

(٤٦) ابن كثير : البداية ٢٣١/١٢ .

(٤٧) ابن العديم : زبدة ٣٠٤/٢ ــ ٣٠٥ .

(٤٨) ابو شامة : الروضتين ٢٣٩/١/١ .

وبعد أقل من ثلاث سنين ، حينما أعلن في دمشق عن التطوع في حملة لقتال العدو خرج كل قادر على حمل السلاح من أهل دمشق •• وتبع نور الدين في حملته تلك « فتيان البلد من الأحداث والغرباء والمتطوعة والفقهاء والصوفية والمتدينين ، العدد الكثير »[٤٩] •

وثمة رواية لابن الأثير ، تناقلهـا كثير من المؤرخين ، تحمل دلالتها العميقة في هذا الموضوع •• طلب نور الدين عام ٥٥٩ هـ نجدات من أمراء الأطراف لفتح حارم المعروفة بحصانتها الشديدة ، « فأما فخر الدين قرا أرسلان الارتقي ، حاكم حصن كيفا في ديار بكر ، فبلغني عنه أنه قال له ندماؤه وخواصه : على أي شيء عزمت ؟ فقال: على القعود،فإن نور الدين قد تحشّف من كثرةالصوم والصلاة،فهو يلقي بنفسه والناس معه في المهالك. فكلهم وافقه على ذلك، فلما كان الغد أمر بالنداء في العسكر بالتجهز للغزاة فقال له أولئك : فارقناك بالأمس على حال نرى الآن ضدها ؟ فقال : إن نور الدين قد سلك معي طريقـاً إن لم أنجده خرج أهل بلادي على طاعتي ، وأخرجوا البلاد من يدي !! فإنه كاتب زهادها وعبادها والمنقطعين عن الدنيا ، يذكر لهم مالقي المسلمون من الفرنج ومانالهم من القتل والأسر والنهب ويستمد منهم الدعاء ويطلب منهم أن يحثوا المسلمين على الغزاة ، فقد قعد كل واحد من أولئك ومعه أتباعه وأصحابه وهم يقرأون كتب نور الدين ويبكون ، ويلعنوني ويدعون عليّ فلا بد من إجابة دعوته •ثم تجهز (هو) أيضاً وسار إلى نور الدين بنفسه »[٥٠] •

إن نور الدين يتعامل مع القواعد ••• يكسب قلوبها وتأييدها ومحبتها ••• يطلعها على تفاصيل مايجري على الساحة •• فإن تردد الحكام والامراء ، أو جبنوا أو بخلوا، فإن بمقدور القواعد، الأكثر ثقلاً وتأثيراً، أن ترغمهم على الطاعة

---

(٤٩) ابن القلانسي : دمشق ص ٣٤٠ .

(٥٠) الباهر ص ١٢٣ ، الكامل ٣٠٢/١١ ، ابن العديم : زبدة ٣١٨/٢ ـ ٣١٩ ابو شامة : الروضتين ٣٤٠/١ ، سبط : مرآة ٢٤٦/٨ ـ ٢٤٧ .

وإلاّ عصفت بهم وأخرجت البلاد من أيديهم •• وذلك هو الضمان الكبير في تجنيد القدرات الاسلامية كافة ودفعها إلى سوح الجهاد !!

وما من شك في أن انسجاماً عميقاً يتحقق بين القيادة والقواعد ، ومحبة عفوية واعية تسود العلاقة بين الرجل والجمهور •• وتعاطفاً مخلصاً من أجل الاهداف الكبيرة يطبع التقابل الفعّال بين هذين القطبين••مامن شك أن هذا وذاك مما شهده عصر نور الدين محمود يمنح المؤرخ المعاصر مؤشرات إيجابية عن حكم الرجل وتفسيراً منطقياً لسبب من أهم أسباب النجاح والتوفيق في ادارة دولته •

— ٧ —

وثمة التكوين العسكري الفذ لشخصية نور الدين : الشجاعة التي تصل حدّ الفدائية وعشق الموت •• مهارات الفروسية ورياضاتها العنيفة التي جعلت الرجل يستوي على ظهر جواده ، وهو يقاتل ويلعب ويتمرن ، وكأنه والجواد قُدّا من قطعة واحدة !! ••• القيادة الذكية البصيرة التي تعرف كيف تخطط وكيف تضرب وكيف تضمن الانتصار ••• أخلاقية الجندي والقائد وهو يقاتل من أجل القيم العليا ، ويجاهد في سبيل انتصار كلمة الله في الأرض بعيداً عن الأهداف القريبة ورفضاً للالتصاق بالأرض والاخلاد إليها ••

إن الناس في بلاد الشام كانوا يعيشون يومذاك حالة حرب دائمة لأنهم كانوا في قلب الساحة ، ينامون على قرع الطبول ويصحون على صوت النفير •• كان على الرجل يومها أن يجاهد أو يقعد مع الأطفال والشيوخ والعجزة ••• ولا أقول النساء لأن النساء كن يقاتلن في الساحات التي أتيح لهن أن يقاتلن فيها ••• أن يظل الانسان في حالة وسط ، يقاتل إذا شاء ويستريح إذا أراد ، معناه أن يداس بحوافر الخيول المتصارعة القادمة من مشارق الأرض ومغاربها ••• وحركة التاريخ التي كانت تقذف إلى سدّة القيادة ــ أحياناً ــ رجالاً لايقدرون على حمل مسؤولية الجهاد الدائم ، كانت تقذف بهم ــ بعد فترة قد تطول وقد تقصر ــ بعيداً عن مناصبهم لكي تفسح المكان للرجل الأقدر والأقوى والأشجع والأكثر التزاماً •••

لقد تسلم نور الدين القيادة مجاهداً من طراز أوّل ••• الجهاد بمفهومه البعيد العميق الذي يطبع أخلاقية المقاتل وفكره وعاطفته وارادته وأعصابه وتكوينه النفسي والفسلجي ••• على السواء ••• وهو يذكرنا هنا بنماذج المجاهدين الذين بعثهم كتاب الله ورسوله الكريم ، يوما ، ففتحوا العالم وأسقطوا تيجانه وعروشه وغيروا خرائطه •• لقد كان هذا التكوين « الجهادي » المتميز عاملاً من أكبر عوامل الانتصار الذي حققه نور الدين ••• وهو يشعّ عفوياً ، نقياً ، واضحاً ، لمن يتأمل الرجل،فيعرف كيف أصبح بحق أحدالأبطالالكبار في خط المقاومة الاسلامي الطويل•

قبيل معركة البابين في مصر عام ٥٦٢ هـ بين المسلمين والصليبيين ـ وكان هؤلاء يفوقون المسلمين بكثير عدة وعدداً ـ يقف رجل من أصحاب نور الدين يدعى شرف الدين برغش ، وكان من الشجاعة بمكان مشهور ••• وقد رأى تردد أصحابه ، فينادي : من يخاف القتل والجراح فلا يخدم الملوك ••• والله لئن عدتم إلى الملك العادل من غير غلبة وبلا عذر تعتذرون فيه ليأخذن اقطاعكم وليعودن عليكم بجميع ما أخذتموه منه منذ خدمتموه إلى يومنا هذا ويقول لكم : أتأخذون أموال المسلمين وتفرون من عدوهم وتسلـّمون الديار المصرية يتصرف فيها الكفار (٥١) !!

إن الرجل يرفض الهزيمة ، إلا إذا اجتمعت أسبابها ، وما أقل ما تجتمع الأسباب إذا خلصت النية، وصحّ العزم، واستقام الطريق، وامتلك المقاتل الشجاعة التي تمكنه من مجابهة المخاوف والتفوق عليها •• ولم تكن العدة أو العدد في يوم من الأيام هي الحكم الفصل في مصير المعارك والحروب •• وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله!!

وتتوالى الروايات عن شجاعة القائد التي بعثت في لحظات الخطر والتردّد حشوداً من المقاتلين الشجعان عرفوا كيف ينتزعون النصر من فكّي الهزيمة •• في عام ٥٤٤ هـ فرض نور الدين الحصار على حصن أنب شمالي الشام ، فاجتمع له

---

(٥١) ابن الأثير : الباهر ص ١٢٣ ، الكامل ١١/٣٢٥ ، ابو شامة : الروضتين ١/٣٦٥ .

الصليبيون بقيادة أمير انطاكية وساروا إليه ليبعدوه عن الحصن ، فلم يتراجع أمام حشدهم الكبير بل لقيهم واشتبك معهم في قتال مرير ظهر منه خلاله ، كما يقول ابن الأثير « من الشجاعة والصبر في الحرب .. على حداثة سنة[٥٢] .. ما تعجب الناس منه »[٥٣] ، وانجلت الحرب عن هزيمة الصليبيين وقتل أمير أنطاكية .

وعند حصن الأكراد عام ٥٥٨ هـ هاجم الصليبيون معسكر نور الدين على حين غفلة وهو في قلة من أصحابه ، فانسحب بسرعة إلى حمص وأخذ منها ما يحتاجه من خيام وتجهيزات عسكرية ، وعاد فعسكر على بحيرة « قدس » على بعد أربعة فراسخ فحسب من مكان الهجوم . يقول ابن الأثير : « فكان الناس لا يظنون أنه يقف دون حلب فكان ـ رحمه الله ـ أشجع من ذلك وأقوى عزماً » . وعلى بحيرة قدس اجتمع إليه كل ناجٍ من المعركة ، فقال له بعض أصحابه : ليس من الرأي أن تقيم هاهنا ، فإن الفرنج ربما حملهم الطمع على المجيء إلينا ونحن على هذه الحال . فوبخّه وأسكته وقال :

إذا كان معي الف فارس لا ابالي بأعدائي قلّوا أم كثروا . والله لا أستظل بجدار حتى آخذ بثأر الاسلام وثأري .

وأرسل إلى حلب ودمشق يطلب مزيداً من الأموال والعدد . وكان في نية الصليبيين الهجوم على حمص باعتبارها أقرب المواقع إليهم ، فلما بلغهم مقام نور الدين قريباً منها قالوا إنه لم يفعل هذا إلا وعنده من القوة ما يمنعنا[٥٤] !!

كان في الحرب ـ كما يصفه سبط ابن الجوزي ـ **ثابت القدم ، حسن الرمي ، يتقدم أصحابه ويتعرض للشهادة ويسأل الله أن يحشره من بطون السباع وحواصل الطير (٥٥) ..** اصيب اخوه « نصرة الدين » خلال حصار بانياس عام ٥٦٠ هـ بسهم

---

(٥٢) نحو ثلاث وثلاثين سنة .

(٥٣) الباهر ص ٦٩ .

(٥٤) نفسه ص ١١٧ـ١١٨ ، الكامل ١١/٢٩٤ـ٢٩٥ ، سبط : مرآة ٨/٢٢٤ .

(٥٥) مرآة ٨/٣٠٧ .

أذهب إحدى عينيه !! فلما رآه نور الدين قال له : لو كشف لك من الأجر الذي أعد لك لتمنيت ذهاب الأخرى[٥٦] !!

وتردّد أحد أمراء الأطراف يوماً في الاستجابة لطلب نور الدين بإرسال نجدة للمساعدة على فتح حارم .. ولما سأله أصحابه عن سبب تردّده ذاك أجابهم : أن نور الدين قد تحشف من كثرة الصوم والصلاة ، فهو يلقي نفسه والناس معه في المهالك[٥٧] . وتلك هي طبيعة الروح الفدائية في القتال : تبدو للقاعدين والعاجزين والمترفين تهلكة يرمي بأنفسهم إليها أولئك الذين أضنتهم كثرة الصوم والصلاة !!

وهو يملك في حسّه وتصوّره ووجدانه معنى (الشهادة) العميق .. المعنى الذي دفع أجيالاً من المسلمين إلى سوح الجهاد طلباً للموت ، فأسقطوا الدول ، وغيروا الخرائط وسحقوا العروش ومرغوا الأنوف .. ولم يموتوا !! فكان نور الدين ــ إذا حضر الحرب ــ أخذ قوسين وجعبتين وباشر القتال بنفسه . وكان يقول : طالما تعرضت للشهادة فلم أرزقها . وسمعه يوماً الإمام قطب الدين النيسابوري، الفقيه الشافعي، وهو يقول ذلك، فقال له: بالله لا تخاطر بنفسك وبالإسلام والمسلمين فإنك عمادهم وإن أصبت ــ والعياذ بالله ــ في معركة ، لا يبقى من المسلمين أحد إلا وأخذه السيف وأخذت البلاد . فأجابه :

يا قطب الدين ، ومن محمود حتى يقال له هذا !! قبلي مَنْ حفظ البلاد والاسلام ؟! ذلك الله الذي لا إله إلاّ هو[٥٨] !!

وثمة روايات ووقائع أخرى كثيرة تمنحنا مزيداً من الشهادات على شجاعة الرجل ، وتمتدّ لكي تغطي مسافة الثلاثين سنة التي قاد فيها أمته في ميادين الحرب والسلم .

---

(٥٦) ابن الأثير : الباهر ص ١٣٠ ــ ١٣١ ، الكامل ٣٠٤/١١ ، سبط : مرآة ٢٥٢/٨ .

(٥٧) الباهر ص ١٢٣ ، ابن العديم : زبدة ٣١٨/٢ ــ ٣١٩ ، سبط مرآة ٢٤٦/٨ ــ ٢٤٧ .

(٥٨) الباهر ص ١٦٩ ، الكامل ٤٠٤/١١ .

فإذا ما استحضرنا إلى الأذهان ، ما سبق وأن ذكرناه ، من سعة حيلة الرجل ، ودهائه وحذره ، وذكائه ، وحسن رأيه في مجابهة المشاكل ، وهي تعدّ بحق ضوابط أو فرامل الشجاعة البشرية كيلا تتحول بين يدي القيادة إلى اندفاع لاهدف وراءه ، وكيلا يغدو الفداء تهوّراً لا طائل تحته .. أدركنا حجم المكاسب التي جنتها حركة المقاومة في بلاد الشام من شجاعة قيادتها وفدائيتها ، وتذكرنا عبارة ابن الأثير في هذا الصدد وهو يصف نور الدين بقوله : « وأما شجاعته وحسن رأيه فقد كانت النهاية إليه فيهما ، فإنه كان أصبر الناس في الحرب ، وأحسنهم مكيدة ورأياً ، وأجودهم معرفة بأمور الأجناد وأحوالهم . وبه كان يضرب المثل في ذلك . سمعت جمعاً كثيراً من الناس لا أحصيهم ، يقولون : إنهم لم يروا على ظهر الفرس أحسن منه ، كأنه خلق منه لا يتحرك ولا يتزلزل »[٥٩] .. وهذا ينقلنا الى طرف آخر من تكوين الرجل المجاهد .. والقائد الفارس ..

— ٨ —

فلقد كان نور الدين « رياضياً » من طراز أول ، يعشق اللعب عشقاً يفوق الوصف . كان مولعاً بضرب الكرة « البولو »[٦٠] ، كما يقول العماد الأصفهاني أحد معاصريه ، وربما دخل الظلام فلعب بها بالشموع [٦١] ، وكان كما يصفه ابن الأثير « من أحسن الناس لعباً بالكرة وأقدرهم عليها ، لم ير جوكانه[٦٢] يعلو رأسه ،

---

(٥٩) الباهر ص ١٦٨ .

(٦٠) العماد : البرق هامش ٢ ص ٧٠ .

(٦١) نفسه ٧٠ ، ابو شامة : الروضتين ١/٣٨٢ .

(٦٢) كلمة فارسية معناها : المحجن أو العصا أو الصولجان الذي تضرب به الكرة في اللعبة التي كانت تعرف باسم (الكرة والصولجة) والتي تعرف الآن باسم البولو . وكانت الجوكان عصا مدهونة طولها نحواً من أربعة أذرع وبرأسها خشبة مخروطة معقوفة تزيد نصف ذراع (ابن واصل : بني ايوب هامش ١ جزء ١ ص ٢٦٧ وانظر المقريزي : السلوك هامش ١ جزء ١ ص ٤٣٥) .

وكان ربما ضرب الكرة فتعلو ، فيُجري الفرس ،ويتناولها بيده من الهواء ويرميها إلى آخر الميدان . وكانت يده لا ترى والجوكان فيهـا ، بل تكون في كم قبائه استهانة باللعب » [٦٣] .

وقد فسّر الممارسة الرياضية تفسيراً فروسياً رائعاً في جوابه على اعتراض أحد أصدقائه الزهاد عندما كتب إليه يقول : ما كنت أظن أنك تلهو وتلعب وتعذب الخيل لغير فائدة دينية .. وكان جوابه بخط يده « والله ما حملني على اللعب بالكرة اللهو والبطر ، إنما نحن في ثغر والعدوّ قريب منّا ، وبينما نحن جلوس إذ يقع صوت (الحرب) فنركب في الطلب ، ولا يمكننا أيضاً ملازمة الجهاد ليلاً ونهاراً ، شتاءً وصيفاً ، إذ لا بد من الراحة للجند ، ومتى تركنا الخيل على مرابطها صارت جماماً[٦٤] لا قدرة لها على إدمان السير في الطلب ، ولا معرفة لها أيضاً بسرعة الانعطاف في الكر والفر في المعركة ، فنحن نركبها ونروضها بهذا اللعب ، فيذهب جمامها وتتعوّد سرعـة الانعطاف والطاعة لراكبها في الحرب ، فهـذا والله هو الذي يبعثني على اللعب بالكرة » [٦٥] .

وكانت رحلات الصيد الممتعة رياضته الأخرى .. رياضة تحمل من الجدّ جنب متعتها البريئة، ما يجعلها من بين المهارات الفروسية التي يتقنها ويتعشقها يومذاك الفارس والمجاهد .. ولقد قال الرسول ﷺ يومها (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ألا إن القوة الرمي ، ألا إن القوة الرمي ، ألا إن القوة الرمي) وقال: (من تعلم الرمي ثم تركه فليس منـا) .. وليست مهارات الصيد سوى محاولة ، من بين عديد من المحاولات ،لتركيز القدرة على الرمي وحمايتها من التبدد والنسيان .

---

(٦٣) الباهر ص ١٦٨ ـ ١٦٩ .

(٦٤) أي مالت الى الراحة .

(٦٥) الباهر ص ١٦٤ ـ ١٦٥ .

وأسامة بن منقذ يحكي لنا في مذكراته ، وبأسلوبه المعروف في (الاعتبار) والذي يقرب من العامية السقيمة ، بعض مشاهد الصيد التي رافق فيها نور الدين .. « شهدت الصيد — يقول ابن منقذ — مع الملك العادل نور الدين رحمه الله ، فحضرته ونحن بأرض حماة ، وقد جلبوا أرنباً فضربها بنشابة كشماء وقامت وسبقت إلى جحر ودخلته ، فركضنا خلفها ووقف عليها نور الدين . وناولني (أحدهم) رجلها ، قطعتها النشابة من فوق العرقوب ، وشقت جوفها قرنة النصلة فوقع منها بيت الولد!!

وسبقت بعد هذا (ودخلت الجحر) فأمر نور الدين (بعض أصحابه) فنزل وخلع خفافه ودخل خلفها ، فما وصل إليها !! وقلت للذي معه بيت الأولاد وفيه (اثنان) : شقّه وأطمرهم بالتراب .. ففعل ، فتحركوا وعاشوا !! »[٦٦] .

ويواصل ابن منقذ حديثه فيقول : « وحضرته يوماً وقد أرسل كلبة على ثعلب، ونحن على قرا حصار بأرض حلب ، فركض خلفه وأنا معه ، فلحقت الكلبة أخذت ذنب الثعلب ، فرجع إليها برأسه فعضّ خيشومها . فصارت الكلبة تعوي ونورالدين — رحمه الله — يضحك . ثم خلاها الثعلب ودخل جحراً ، فما قدرنا عليه »[٦٧] .

وثمة رواية أخرى يُحدثنا بها الرجل فيقول : « جاءه — أي نور الدين — يوماً ونحن ركاب تحت قلعة حلب من شمال البلد باز ، فقال (لأحد أصحابه) : قل لفلان — يعنيني — يأخذ هذا الباز يلعب به . .فقلت له : ما أحسن اللعب .. فقال : أنتم في الصيد ما كنتم تزالون . ما تحسن تصلح الباز ؟ قلت : يامولاي ما كنا نصلحها نحن ، كان لنا بازيارية وغلمان يصلحونها ويتصيدون بها قدامنا .. وما أخذت الباز »[٦٨] .

ظل نور الدين يمارس رياضة الصيد ، ويتعشق لعب الكرة والرماية حتى مرضه الأخير الذي أودى به بعد أيام قلائل من ذلك اليوم الحافل الذي قرّر فيه ختان ولده الملك الصالح اسماعيل حيث أقيمت الاحتفالات ورددت الأناشيد ..

(٦٦ ، ٦٧ ، ٦٨) الاعتبار ص ١٩٧ — ١٩٨ وانظر : سبط : مرآة ٣١٣/٨ .

وخرج الرجل مع بعض أصحابه إلى الميدان الأخضر شمالي دمشق ، لممارسة العديد من ألعاب الفروسية « كطعن الحلق ورمي القبق »[69] ، كما يقول العماد الأصفهاني •• فما غادر الساحة إلا وهو يعاني ألماً حاداً وسرعان ما أودى بحياته بعد قليل [70] .

— ٩ —

أما عن نور الدين العالم ، المثقف ، الفقيه ، فإن الحديث يطول •• لقد شغلت هذه المسألة جانباً كبيراً من حياته وتكوينه •• كان لتعشقه العلم يسعى وهو في قمة السلطة « الى التشبه بالعلماء والصالحين والاقتداء بسيرة من سلف منهم •• »[71] ، وكان العلماء عنده في المنزلة الأولى والمحلّ العظيم [72] ، يحضرهم الى مجلسه « فيدنيهم ويتواضع لهم ، وإذا أقبل أحدهم إليه يقوم له مذ تقع عينه عليه••ويجلسه

---

(٦٩) القبق : لفظ تركي معناه لغة نبات القرعة العسلية ومعناه اصطلاحاً الهدف الذي كان يستعمل في اللعبة التي عرفت في الشرق في العصور الوسطى بنفس الاسم . وكانت طريقة لعب القبق ـ كما وصفها دوزي في معجمه ـ أن ينصب صار طويل من خشب يكون في رأسه شكل قرعة من ذهب أو فضة بمثابة الهدف ، ويكون في القرعة طير حمام ، ثم يأتي اللاعبون للمباراة في رمي الهدف بالنشاب او السهام وهم على ظهور الخيل ، فمن أصاب منهم القرعة وأطار الحمام جاز السباق واخذ القرعة المعدنية لنفسه. غير ان المقريزي (الخطط ٣/١٨٠) وصف هذه اللعبة وصفاً يختلف عن الوصف السابق بعض الشيء ، ويبدو أن وصفه هو الذي تعنيه الرواية هنا : فالقبق عنده عبارة عن « خشبة عالية جداً تنصب في براح من الأرض ويعمل بأعلاها دائرة من خشب وتقف الرماة بقسيها وترمي بالسهام جوف الدائرة لكي تمر من داخلها إلى غرض هناك تمريناً لهم على إحكام الرمي » (ابن واصل : بني أيوب هامش ٨ جزء ١ ص ٢٦٠ ـ ٢٦١) . والتفسير الأخير أقرب إلى فكرة نور الدين عن الممارسة الرياضية .

(٧٠) انظر البرق ص ١٥٠ ـ ١٥٤ ، أبا شامة : الروضتين ١/٥٧٩ ـ ٥٨٠ .

(٧١) الروضتين ١/٥٨٢ ـ ٥٨٣ .

(٧٢) ابن واصل : بني ايوب ١/٢٨٣ .

معه •• ويقبل عليه بكليته تعظيماً وتوقيراً واحتراماً »[٧٣] ، وكان مجلسه ندوة كبيرة يجتمع إليها العلماء والفقهاء للبحث والنظر [٧٤] •

كان نور الدين عارفاً بمذهب أبي حنيفة ، ملتزماً به ، من غير تعصّب منه ولا تحيّز ، فالمذاهب عنده ـ كما أجمع المؤرخون ـ كلها سواء « والانصاف سجيته في كل شيء »[٧٥] •• سمع الحديث حتى حصل على الإجازة العلمية التي تتيح له أن يسمعه للآخرين •• ولقد مارس مهمة التحديث هذه رغم كثافة عمله السياسي والعسكري ، محاولة منه في تعزيز مكانة (السنّة) ونشرها بالحفظ والأداء والتحديث[٧٦] ، كما ألف كتاباً في الجهاد[٧٧] ، وأوقف كتباً كثيرة في مدارسه ، وكان حسن الخط كثير المطالعة للكتب الفقهية ، متميزاً بعقله المتين ورأيه الثاقب الرزين [٧٨]

ونظراً لارتباط هذا الجانب من تكوين الرجل بالسياسات التعليمية والتربوية التي شهدتها دولته فإننا نحيل القارىء إلى تفاصيله هناك في الفصل الرابع من هذا البحث •••

ـ ١٠ ـ

ونواصل التجوال عبر منحنيات شخصية نور الدين ودروبها وملامحها •• وعندما نقف أمام تجرّد الرجل وتقواه •• نكون قد (حضرنا) بمواجهة أعظم

---

(٧٣) ابن الأثير : الباهر ص ١٧١ ـ ١٧٣ ، ابن الجوزي : المنتظم ٢٤٩/١٠ .

(٧٤) الباهر ص ١٧١ ـ ١٧٣ ، ابن واصل : بني ايوب ٢٨٣/١ .

(٧٥) الباهر ص ١٦٥ .

(٧٦) الروضتين ٥٨٢/١ ـ ٥٨٣ ، ابن قاضي شهبة : الكواكب ص ٥٦ ـ ٥٧ ، الباهر ١٦٥ ـ ١٦٦ .

(٧٧) سبط : مرآة ٣١٣/٨ .

(٧٨) نفسه ٣٠٦/٨ ـ ٣٠٧ ، الروضتين ١٠/١/١ ـ ١١ .

التجارب في حياته وأثقلها حجماً وأشدها تركيزاً •• مساحة ناصعة ، مؤثرة ، من أروع المساحات في تكوين الشخصية التي بين أيدينا ، وأكثرها ضوءاً وعطاءً •• ومن ثم يطول الوقوف ••

إن التجرد العظيم الذي يمارسه الرجل ، إنما يمارسه وهو في قمة السلطة والجاه والإغراء •• وإنه لضغط ساحق يتطلب دفعاً هائلاً من داخل الشخصية البشرية ، من نسيج الذات لحمة وسدى ، لتحقيق التوازن المطلوب ، والخروج من التجربة الصعبة بنجاح •• إننا هنا نستحضر في أذهاننا ، صورة عمر بن عبد العزيز وهو يمارس ببطولة نادرة الامتحان العسير ، ويخرج منه بانتصار يشرّف الانسان المسلم في كل مكان وزمان •• رغم أنه فقد عبر ساعاته الصعبة ولحظاته الباهظة ، زهرة عمره ، وسنيّ شبابه ، وهو في العنفوان •• بل إنه فقد حياته نفسها ثمناً للفوز الذي حققه للعقيدة والتاريخ والشخصية البشرية على السواء •

ومن وراء عمر يُستحضر حشد آخر من الرجال الكبار الذين صنعهم كتاب الله وصاغهم رسوله الكريم ، وهو الحشد الذي يقف الرسول ﷺ نفسه في قمته ولا ريب ، يضرب مثلاً باهراً على قدرة (المسلم) على التجرّد وهو في قمة الدنيا •• يطل من سقفها العالي ، وما فوقه إلاّ الله •• (أيها الناس ـ قال الرسول ـ ردّوا علي ردائي ، فوالذي نفس محمد بيده ، لو كان لكم عندي عدد شجر تهامة نعماً ، لرددته عليكم ، ثم ما ألفيتموني بخيلاً ولا جباناً ولا كذاباً) (أيها الناس ـ قال الرسول بعد أن انتزع وبرة من جمل يقف قريباً منه ـ والله مالي من فيئكم ولا هذه الوبرة ؛ إلاّ الخمس ، والخمس مردود عليكم ••) •• ويوم اشتكى إليه أصحابه الجوع ، وكشفوا عن بطونهم التي ربطها كل منهم بقطعة من حجارة ، كشف هو ﷺ عن بطنه وقد عصبها بقطعتين !!

أما أبو بكر •• وعمر •• وعثمان •• وعلي •• وسائر رجالات الجيل الأول الذي عايش تجربة نبيه وقائده •• فتلتمع صور تجارب تجردهم العظيم في الذهن

ضوءاً كثيفاً مركزاً كالشهب الثاقبة في ليلة شديدة الحلكة ، عميقة الظلام ، وقد وقفنا عند بعضها في غير هذا المكان [٧٩] •

إن التجرّد يعني في نهاية التحليل : قدرة المسؤول المسلم على مجابهة ثقل السلطة وإغراءاتها ، وأبوابها المشرعة التي تنفتح من حيث لا يشعر الانسان أحياناً على الأخذ الذي يزداد ويزداد حتى يغدو بمرور الأيام سرقة وسلباً وابتزازاً •• وترفاً وتخمة •• وفساداً •• وتنقفل على العطاء الذي يشح ويشح حتى يغدو جبناً وبخلاً وجبروتاً ، وطغياناً ••• إننا هنا ـ إذن ـ بمواجهة ما يمكن تسميته (بأخلاقية العدل الاجتماعي) •••

إن المسؤول المسلم إذا ما وصل السلطة يوماً فعليه أن يتحقق بهذه الأخلاقية : أن ينقلب على ذاته ، أن يغيّر في تركيبها الداخلي مؤشراتها ودوافعها ومنازعها ، ويسكت من جهة أخرى ، نزواتها وشهواتها •• وأن يقابل التاريخ متجرداً من هذا كله ، عارياً من كل البطائن والستائر التي قد تحجب أو تخفي •• قديراً على العطاء الدائم •• صامداً بوجه شياطين الأخذ والاغراء ••

وتقوى الله هي القوة الباطنية التي تمنح المسؤول المسلم القدرة على المجابهة الصعبة بالتغيير الذاتي الدائم والتبديل المستمر •• وتعطيه امكانية استجاشة كل الدفوع الممكنة في باطن الشخصية البشرية لمجابهة الضغوط الخارجية الباهظة وحلّ المعادلة الصعبة ، واستمراء الجهد الشاق ، والتعب ، والنصب ، والإرهاق ••

وبدون هذا التجرد الذي تصنعه التقوى ، بدون أخلاقية العدل الاجتماعي هذه ••لن يتحقق عدل" أبداً •• لأنه إذا انكسرت همة القيادة العقائدية إزاء المال والإغراء ، إذا انشرخت القمة واتسع شرخها ؛ فليس لنا أن نتوقع حقاً وعدلاً ، وليس لنا أن ننتظر فرصة سحرية ، تأتينا بنتائج ، غابت شروطها الاساسية في بطون القيادة وفروجها !!

إن السقيم لا يمنح المرضى صحة وعافية •• والبئر المرة العفنة لا تنضح حلواً صافياً •• لا تنضح إلاّ المرّ والكدَر !!

---

(٧٩) انظر (ملامح الانقلاب) و (دراسة في السيرة) و (مقال في العدل الاجتماعي) للمؤلف .

ما هي الأبعاد الحقيقية لتجربة نور الدين في (التجرد) ؟ وإلى أيّ مدى ذهب الرجل في (تقواه) ؟ وهل قدر في نهاية الأمر على (حلّ) المعادلة الصعبة والخروج من المحنة بسلام ؟ أسئلة شتى لن يكون إلاّ للوقائع نفسها أن تجيبنا عنها لكي تمنحنا القناعة والرضا والاطمئنان .

يسأل ابن الأثير المؤرخ هذا السؤال : « إن قال قائل : كيف يوصف بالزهد من له الممالك الفسيحة ، وتجبى إليه الأموال الكثيرة ؟ » ويجيب « ليذكر نبي الله سليمان بن داود عليهما السلام ، مع اتساع ملكه ، وهو سيد الزاهدين في زمانه ، ونبينا ﷺ قد حكم على حضرموت واليمن والحجاز وجزيرة العرب جميعها من حدود الشام إلى العراق ، وهو على الحقيقة سيّد الزاهدين » ويخلص أخيراً إلى هذه النتيجة التي يعدها مفتاحاً لتفسير هذه المواقف جميعاً « إنما الزهد خلوّ القلب من محبة الدنيا لا خلوّ اليد عنها » (٨٠) .

هل كان نور الدين محمود خالي اليد وهو يحصل في معركة واحدة مع العدو الصليبي على مبلغ قدره ستمائة ألف دينار ؟ كلا بطبيعة الحال .. فهل قدر على أن يخلي قلبه من محبة الدنيا ؟ !

ثمة حشد من المؤرخين بعضهم معاصر لنور الدين وبعضهم قريب منه يقدمون لنا الإجابة عن هذا السؤال :

العماد الأصفهاني : كان رسم نفقته الخاص في كل سنة من جزية أهل الذمة مبلغ ألفي قرطاس (٨١) يصرفه في كسوته ونفقته ومأكوله ومشروبه وحوائجه المهمة ، حتى أجرة خياطه وطباخه .. من ذلك المقرر المعين النزر . ثم يستفضل ما يتصدق به في آخر الشهر ويفضّه على المساكين وأهل الفقر .

---

(٨٠) الباهر ص ١٦٦ .

(٨١) قيمة القرطاس الواحد مائة وخمسون درهماً : ابن قاضي شهبة : الكواكب ص ٥٣ ـ ٥٤ .

وأما ما يهدى إليه من الثياب والألطاف وهدايا الملوك من المناديل والسكاكين والمهاميز والدبابيس ، وكل دقيق وجليل ، لا يتصرف في شيء منه بل يعرض نظره عنه وإذا اجتمع يخرجه إلى مجلس القاضي ليحصّل أثمانها الموفورة ويصـرفها في عمارة المساجد المهجورة (٨٢) .

ابن الأثير : أحضر نور الدين الفقهاء واستفتاهم في أخذ ما يحلّ له ، فأخذ ما أفتوه بحلّه ولم يتعدّه إلى غيره البتة . ولم يلبس قط ما حرّمه الشرع من حرير أو ذهب أو فضة (٨٣) .

وحكى لي عنه أنه حمل إليه من مصر عمامة من القصب الرفيع مذهبة فلـم يحضرها عنده ، فوصفت له فلم يلتفت إليها ، وبينما هم معــه في حديثها ، إذ قد جاءه رجل صوفي فأمر له بها ، فقيل له : إنها لا تصلح لهذا الرجل ، ولو أعطي غيرها لكان أنفع له ، فقال : أعطوها له فإني أرجو أن أعوّض عنها في الآخرة . فسلمت إليه فسار بها إلى بغداد فباعها بستمائة دينار أو سبعمائة ، وأنا أشك أنهـا كانت تساوي أكثر (٨٤) .

وقال رضيع الخاتون « زوجة نور الدين » : إنها قلت عليها النفقة ولم يكفها ماكان قد قرّره لها ، فأرسلني إليه أطلب منه زيادة في وظيفتها (أي مخصصاتها المالية) فلما قلت له ذلك تنكّر واحمرّ وجهه ثم قال : من أين أعطيها ، أما يكفيها مالها ؟ والله لا أخوض نار جهنم في هواها !! إن كانت تظن أن الذي بيدي من الأموال هي لي فبئس الظن !! إنما هي أموال المسلمين ومرصدة لمصالحهم ومعدّة لفتق ــ إن كان ــ من عدّو الاسلام ، وأنا خازنهم عليها فلا أخونهم فيها ، ثم قال : لي بمدينة حمص ثلاث دكاكين ملكاً قد وهبتها إياها فلتأخذها !! قال الرضيع : وكان يحصل منها قدر قليل ، نحو عشرين ديناراً (٨٥) .

---

(٨٢) البرق ص ١٤٣ ــ ١٤٤ وانظر ابن واصل : بني أيوب ٢٨١/١ والكواكب ص ٥٣ ــ ٥٤ .

(٨٣) الباهر ص ١٦٤ وانظر الكواكب ص ٥٣ ــ ٥٤ .

(٨٤) الباهر ص ١٦٥ .

(٨٥) الباهر ص ١٦٤ ، الكامل ٤٠٣/١١ .

ابن كثير : كان نور الدين عفيف البطن والفرج ، مقتصداً في الإنفاق على أهله وعياله في المطعم والملبس حتى قيل : إنه كان أدنى الفقراء في زمانه أعلى نفقة منه ، من غير اكتناز ولا استئثار بالدنيا (٨٦) .

وكان عمر الملاّء رجلاً من الصالحين الزاهدين ، وكان نور الدين يستقرض منه في كل رمضان ما يفطر عليه . وكان يرسل إليه بفتيت ورقاق فيفطر عليه (٨٧) .

سبط ابن الجوزي : كان إذا أقام الولائم العظيمة لا يمدّ يده إليها إنما يأكل من طبق خاص فيه طعام بسيط (٨٨) .

وحدثني رجل من أهل حرّان قال : خرج نور الدين يوماً من حرّان قاصداً الرها فاجتاز على نهر ، وفقير نائم على جنب النهر ، فوقف وسلم عليه ، فرفع الفقير رأسه وقال بيده كذا ، معناه في أي شيء أنت ؟ فحرّك نور الدين اصبعاً واحداً ، فحرّك الفقير أصبعين .. ومضى نور الدين باكياً فقيل له ما هذا ؟ قال : أشار إلي الفقير وقال : في أي شيء أنت هذا كله ؟ لماذا ؟ فقلت : من أجل رغيف واحد . فأشار إليّ باصبعيه ، فأنا آكل كل يوم رغيفين وأنا مثلك !! (٨٩) .

أما مقرّ سكنى حاكم الجزيرة والشام ومصر واليمن فكانت داراً متواضعة تطل على النهر الداخل إلى القلعة من الشمال ، ألحق بها صُفّة يخلو فيها للعبادة . فلما ضربت الزلازل دمشق،بنى بإزاء تلك الصفة بيتاً من الأخشاب « فهو يبيت فيه ويصبح ويخلو بعبادته ولا يبرح » . ولما توفي دفن في البيت البسيط المقام من الأخشاب(٩٠).

---

(٨٦) البداية ٢٧٨/١٢ .

(٨٧) نفسه ٢٨٢/١٢ .

(٨٨) مرآة ٣١٥/٨ .

(٨٩) نفسه ٣٢٠/٨ .

(٩٠) العماد : البرق ص ١٥٣ ــ ١٥٤ ، أبو شامة : الروضتين ٥٨١/١ ــ ٥٨٢ ، ابن الأثير : الباهر ص ١٦١ ــ ١٦٢ ، الكامل ٤٠٢/١١ ــ ٤٠٣ .

وهو يتفوق بتقواه على إغراءات الجاه واللقب والسلطان •• يتجرد عن كل ما يمكن أن يقطع الحبل المتين بينه وبين طرفي القضية : الله •• والأمة •• ثمة حشد زاخر من الألقاب كانت الخلافة العباسية الأسيرة في بغداد تمنحه لكبار القادة والمجاهدين لأنه لم يكن بمقدورها أن تمنح شيئاً آخر •• وعندما تفقد قيادة ما القدرة على الاسهام الجادّ في حركة التاريخ ، يتحول همها إلى منح النياشين والألقاب لمن يقدرون •• من أجل أن تغطي عجزها وانكماشها •• لكن رجلاً (فاعلاً) كنور الدين يرفض هذه (المنح) خوف أن يكون في طياتها الكذب والمبالغة والزيف •• وخوف أن تقوده إلى نوع من الاعتداد والغرور كثيراً ما انتهى إليهما القادة والعاملون •• أما نور الدين الذي علمه التجرد كيف يكون الرفض ، فإنه يتمنع حتى النهاية عن الذهاب مع الاغراء إلى ما يريد الشيطان لا ما يريد الله ••

تلقى يوماً من بغداد هدية تشريف عباسية ومعها (قائمة) بألقابه التي كان يذكر بها على منابر بغداد « •• اللهم أصلح المولى السلطان الملك العادل العالم العامل الزاهد العابد الورع المجاهد المرابط المثاغر نور الدين وعدته ، ركن الإسلام وسيفه ، قسيم الدولة وعمادها ، اختيار الخلافة ومعزها ، رضيّ الإمامة وأثيرها ، فخر الملّة ومجدها ، شمس المعالي وملكها ، سيد ملوك المشرق والمغرب وسلطانها، محيي العدل في العالمين منصف المظلوم من الظالمين ناصر دولة أمير المؤمنين •• » !!

لكن نور الدين أسقط جميع الألقاب وطرح دعاءً واحداً يقول : « اللهم وأصلح عبدك الفقير محمود بن زنكي !! »[٩١] .

وثمة رواية أخرى تمنحنا مزيداً من الأضواء عن الموضوع وتتضمن كلمات وجملاً من انشاء نور الدين نفسه •• روي أنه كتب رقعة بخطه إلى وزيره خالد بن

(٩١) ابن قاضي شهبة : الكواكب ص ٦٨ — ٦٩ .

القيسراني ــ بعد أن استفزته كثرة الألقاب ــ يأمره أن يكتب له صورة ما يدعى له به على المنابر • وكان مقصوده صيانة الخطيب عن الكذب ولئلا يقول ما ليس فيه • فكتب ابن القيسراني كلاماً ودعا له فيه ثم قال : وأرى أن يقال على المنبر : اللهم وأصلح عبدك الفقير إلى رحمتك ، الخاضع لهيبتك ، المعتصم بقوتك ، المجاهد في سبيلك ، المرابط لأعداء دينك ، أبا القاسم محمود بن زنكي • فكان جواب نور الدين : « هذا لا يدخله كذب و لاتزيّد » ، وكتب بخطه في أعلى الصفحة : « مقصودي أن لا يكذب على المنبر • أنا بخلاف كل ما يقال • أفرح بما لا أعمل ؟ » والتفت إلى وزيره قائلاً : « الذي كتبت به جيد • اكتب به نسخاً إلى البلاد »[٩٢]•

وفي ساحة الحرب •• حيث الموت على بعد خطوات •• وحيث لقاء الله آتٍ وراء كل لحظة •• كان نور الدين يذوب تواضعاً وإشفاقاً •• وتقفه تقواه العميقة في حضور مؤثر أمام الله حيث تتمزق في أعماق وعيه بقايا الستائر والحجب التي ظل يكافح من أجل تمزيقها لكي يقف نقياً •• عارياً •• في الساحة التي عشقها وتمناها •• ليس ثمة في الحرب موقف وسط : إما أن يكون القائد جباراً في الأرض •• أو صدّيقاً ••

عندما التقت قواته في حارم بالصليبيين الذين كانوا يفوقونهم عدة وعدداً انفرد نور الدين تحت تل حارم ، وسجد لربّه عز وجل ومرّغ وجهه وتضرّع وقال : يارب هؤلاء عبيدك وهم أولياؤك ، وهؤلاء عبيدك وهم أعداؤك ، فانصر أولياءك على أعدائك • إيش فضول محمود في الوسط ؟ يقول أبو شامة : يشير نور الدين هنا إلى أنك يارب إن نصرت المسلمين فدينك نصرت ، فلا تمنعهم النصر بسبب محمود إن كان غير مستحق للنصر • وبلغني أنه قال اللهم انصر دينك ولا تنصر محموداً •• من هو محمود •• حتى ينصر ؟[٩٣]

---

(٩٢) سبط : مرآة ٣٢٢/٨ ــ ٣٢٣ •

(٩٣) الروضتين ٣٤٢/١ ــ ٣٤٣ •

وتحضرنا هنا ــ ثانية ــ رواية ابن الأثير حيث يبدو نور الديــن لا فدائيــاً فحسب ولكن فقيهاً بقدر الله، متبصراً بدور الانسان في حركة التاريخ، عالماً أن إرادة الله إذا شاءت تهيأت لها الأسباب .. ولن يعجزها شيء .. ولو مات أو قتل عشرات القادة والمجاهدين .. فإن آخر رجل منهــم سيحمل المهمــة ويواصــل الطريق . ومن ثم يستوي ــ عبر هذه الرؤية ــ هذا القائد أو ذاك !!

كان يقول : طالما تعرضت للشهادة فلم أرزقها . وسمعه يوماً الامام قطب الدين النيسابوري فقال له : بالله لا تخاطر بنفسك وبالاسلام والمسلمين، فإنك عمادهم، وإن أصبت في معركة لا يبقى من المسلمين أحد إلاّ وأخذه السيف ... ويجيئــه جواب الرجل الخبير : يا قطب الدين، ومن محمود حتى يقال له هذا ؟ قبلي من حفظ بلاد الاسلام ؟! ذلك الله الذي لا إله إلا هو (٩٤) .

الله الذي هو الأوّل، والآخر، والظاهر والباطن .. وما الناس، ابتداء مــن أصغر جندي فيهم حتى أكبر قائد، إلاّ أدوات (فاعلة) في يده يحرّكها وفــق خرائطه المعجزة لتحقيق كلمته في الكون ... الله ... وكفى ...

ذلك هو موقع التجرد الكامل والتقوى الفاعلة ... تجرّد (القمة) الذي لو أدركته قياداتنا عبر التاريخ لعرفت كيف تصنع هذا التاريخ لصالحنا نحن لا لصالح الخصوم والأعداء ... ولسعادتنا في الأرض لا لشقائنا وتعاستنا .. ولتفرّدنا على الأمم، لا لذلّنا وتبعيتنا وضياعنا ... رغم أن نــور الدين نفسه كان سيضيــع لو حاول القادة الذين سبقوه أو أعقبوه ...أن يكونوا مثله !!.

كانت دمشق جنة الدنيا ــ يومذاك ــ ترغم الناس على أن يخلدوا إليها حيناً بعدحين يستجمون في ظلالها، ويستروحون نسائمها، ويشربــون ماءهــا الحلو، ويأكلون من ثمرها. . . وكان أحرى بنور الدين أن يؤوب ـ بعد النصب الطويل ـ إلى قاعدته ليرتاح. . لكنه يرفض هذا لأن ساحة أخرى تناديه وتمنحه المتعة كذلك. . ساحة الجهاد. . يحدثنا العماد الأصفهاني فيقول: « حضرت عند نور الدين بدمشق

---

(٩٤) ابن الأثير : الباهر ص ١٦٩ الكامل ١١/٤٠٤ .

ـ في شهر صفر ـ والحديث يجري في طيب دمشق ورقة هوائها وأزهار رياضها.. وكل منا يمدحها ويطريها. فقال نور الدين: إنما حب الجهاد يسليني عنها فما أرغب فيها »(٩٥).

فما أرغب فيها !! لكأننا نحسّ بنظرات نور الدين وهي تجوس في منحنيات نفسه ودروب وجدانه، تفتش عن بقايا الرغبة لكي تستأصلها من مكامنها.. فلا يبقى هناك إلاّ إحساس غامر" بتعشق الجهاد .. حيث يظل الانسان يقاتل .. معلقاً (وجوده) كله بإحدى اثنتين: النصر أو الجنة !!

ومرة أخرى نلتقي به وهو يغادر الموصل بعد عشرين يوماً من دخوله إياها عام ٥٦٦ هـ فيسأله أصحابه: إنك تحب الموصل والمقام بها، ونراك أسرعت العود ؟ فيجيب: قد تغيّر قلبي فيها فإن لم أفارقها ظلمت !!! ويمنعني أيضاً أنني ها هنا لا أكون مرابطاً للعدوّ وملازماً للجهاد (٩٦).

- ١٣ -

لقد صنع الرجل بتقواه العميقة تجرّده العظيم .. فكيف صنع تقواه ؟ بأي وقود نقيّ أشعل فتيلة الروح فمنح تجربته الذاتية الضوء الذي تجاوز بها مواقع الظلمات ؟

قال أبو شامة: « سمعت ابن شداد يقول: بلغنا بأخبار التواتر عن جماعة يعتمد على قولهم أنه كان أكثر الليالي يصلّي ويناجي ربّه مقبلاً بوجهه عليه، ويؤدي الصلوات الخمس في أوقاتها بتمام شرائطها وأركانها وركوعها وسجودها .. وكان كفار القدس يقولون: إن نور الدين له مع الله سرّ !! فإنه ما يظفر علينا بكثرة جنده وعسكره وإنما يظفر علينا بالدعاء وصلاة الليل، والله يستجيب دعاءه ويعطيه

(٩٥) البرق ص ١٢٦.

(٩٦) ابن الأثير: الباهر ص ١٥٣ ـ ١٥٤.

سؤله وما يردّ يده خائبة ، فيظفر علينا »[97] . وقال : « كان من عادة نور الدين أنه كان ينزل إلى المسجد بغلس ، ولا يزال يركع فيه حتى يصلي الصبح » [98] .

وقال ابن الأثير : « حدثني صديق لنا بدمشق ــ كان رضيع الخاتون زوجة نور الدين ــ فقال : كان نور الدين يصلّي فيطيل الصلاة ، وله أوراد في النهار ، فإذا جاء الليل وصلى العشاء نام ، ثم يستيقظ نصف الليل ، ويقوم إلى الوضوء والصلاة والدعاء إلى بكرة ، ثم يظهر للركوب ويشتغل بمهام الدولة »[99] !!

وقال ابن كثير : « كان نور الدين كثير المطالعة للكتب الدينية ، متبعاً للآثار النبوية ، محافظاً على الصلوات في الجماعات، كثير التلاوة .. صموتاً وقوراً»[100].

إنها إطالة (التعبّد) إذن .. التعبّد الخالص الدائم العميق الذي أراد له الله سبحانه أن يكون طريق التقوى وروحها في الوقت نفسه .. ولن يكون ذلك إلاّ بأن يمارس في إطار من (الذكر) الذي يحقق التواصل مع حقيقة الألوهية والتجاوب مع حركة الكون والموجودات .

ويمضي نور الدين في تعبّده آناء الليل وأطراف النهار .. لكنه ليس ذلك التعبّد السالب الذي يدفعه إلى الفرار من المسؤولية ؛ بل ذلك الذي يضعه في قلب المسؤولية وهو أعمق وعياً وأشد خشية وأمضى عزيمة وأقدح ذكاء .. إن المؤرخ ابن قاضي شهبة ، في إشارة عابرة له ، يسلّط الضوء على هذه المسألة : « كان نور الدين كثير الصيام ، وله أوراد في الليل والنهار ، وكان يقدم أشغال المسلمين عليها ثم يتمم أوراده »[101] .

---

(٩٧) الروضتين ١/١/٣٤ .

(٩٨) نفسه ١/٤٥٩ .

(٩٩) الباهر ص ١٦٤ .

(١٠٠) الكواكب ص ٥٤ .

(١٠١) الكواكب ص ٥٤ .

يقدم أشغال المسلمين عليها ثم يتمم أوراده •• هذا هو المنطوق الذي علمنا إياه الاسلام والذي يجعل التعبد ، الذي هو غاية الخلائق ، ممارسة إيجابية تضرب في أعماق الناس فتغيّر نفوسهم ، وتمتد إلى حركة التاريخ فتصوغ مسيرته ••

يمضي نور الدين في تعبّده حتى تتكشف له حقيقة الحياة الدنيا وتتبين مواقع الموت القريبة •• ويظل حسّه وذهنه ووجدانه مطبوعاً بالرؤية الرصينة للكون والحياة والأشياء •• لا تعتمها إغراءات السلطة ، ولا تحيطها بالضباب والظلمة نزغات القوة والجاه والسلطان •

حكى الأمير بهاء الدين علي بن الشكري ، وكان قد صحب نور الدين منذ أيام الصبا وأنس به ، قال : « كنت معه يوماً في الميدان ــ بمدينة الرها ــ نسير والشمس في ظهورنا فكلما سرنا تقدمنا ظلنا ، فلما عدنا صار ظلنا وراء ظهورنا • فأجرى فرسه وهو يلتفت وقال لي : أتدري لأي شيء أجري فرسي وألتفت ورائي ؟ قلت : لا • قال : قد شبهت ما نحن فيه بالدنيا تهرب ممن طلبها وتطلب من هرب منها »(١٠٢) !!

وفي أول أيام عيد الفطر المبارك من عام ٥٦٩ ، حينما خرج إلى الميدان الأخضر شمالي دمشق لبدء الاحتفالات هناك ، تقدم منه أحد كبار أمرائه : همام بن مودود ، وسأله : ترى •• هل نكون هنا في مثل هذا اليوم في العام القابل؟ أجاب نور الدين: هل نكون بعد شهر ، فإن السنة بعيدة (١٠٣) !!

بلى •• إن السنة بعيدة على الذين يقدرون على تصوّر الحدود الهشّة ، الخفية التي لا تلمس ولا ترى •• بين الحياة والموت •• السنة بعيدة •• وقبل أن يستكمل الشهر الذي خمّنه الرجل التقي موعداً لرحيله •• قبل أن يستكمل دورته ، كان الرجل قد فارق الحياة بعد أن سبر غورها وهو يعمل في قمتها •• على سقفها العالي !!

---

(١٠٢) ابن الأثير : الباهر ص ١٦٥ .

(١٠٣) ابو شامة : الروضتين ١/٥٧٩ ــ ٥٨٠ .

ولد نور الدين أبو القاسم محمود عند طلوع شمس السابع عشر من شوال سنة ٥١١ هـ بحلب ، ونشأ على الخير والصلاح وقراءة القرآن والعبادة وقلة المخالطة للجند ، وكان أبوه عماد الدين زنكي يقدمه على بقية أولاده ويرى فيه مخايل النجابة [١٠٤] ..

كان أسمر اللون ، طويل القامة ، واسع الجبهة ، حسن الصورة ، حلو العينين ، ذا لحية خفيفة في حنكه .. مهيباً . .متواضعاً .. عليه جلالة ونور [١٠٥] .

تزوج عام ٥٤١ هـ ، الزواج الذي لم تكن له من ورائه جارية ولا سريّة ، من عصمت الدين خاتون ابنة الأتابك معين الدين أنر حاكم دمشق ، بعد أن ترددت المراسلات بين الرجلين ، « واستقرت الحال بينهما على أجمل صفة ، وتأكدت الأمور على ما اقترح كل منهما » وكتب كتاب العقد في دمشق ، بمحضر من رسل نور الدين في الثالث والعشرين من شوال ، وما أن تم إعداد الجهاز حتى قفل الوفد عائداً وبصحبته ابنة معين الدين [١٠٦] .

خلف نور الدين من زوجته هذه ابنة واحدة وولدين هما الصالح إسماعيل الذي تولى الحكم من بعده وتوفي شاباً لم يبلغ العشرين من العمر ، من جراء مرض ألم به عام ٥٧٧ هـ ، وأحمد الذي ولد بحمص عام ٥٤٧ هـ ، ثم توفي في دمشق طفلاً [١٠٧] .

---

(١٠٤) ابن قاضي شهبة : الكواكب ص ١٥ ، سبط : مرآة ٣٠٥/٨ ، ابن خلكان : وفيات ١٨٤/٥ .

(١٠٥) ابن الأثير : الباهر ص ١٦٢ ، الكامل ٤٠٣/١١ ، أبو شامة : الروضتين ٥٨٢/١ ، ابن كثير : البداية ٢٨٤/١٢ ، ابن خلكان : وفيات ١٨٨/٥ ، ابن قاضي شهبة : الكواكب ص ١٥ ، سبط : مرآة ٣٠٥/٨ .

(١٠٦) ابن القلانسي : دمشق ص ٢٨٨ — ٢٨٩ .

(١٠٧) النعيمي : الدارس ٦١٣/١ .

وسرعان ما امتدت تقوى الرجل إلى زوجته وابنه الأكبر .. فكانت زوجته تكثر القيـام في الليل ، ونامت ليـلة عن وردها فأصبحت وهي غضبى ؛ فسألها نور الدين عن أمرها فذكرت نومها الذي فوّت عليها وردها .. فأمر نور الدين عند ذلك بضرب الطبول في القلعة وقت السحر لتوقظ النائمين حينذاك لقيام الليل ، ومنح الضاربين أجراً جزيلاً [١٠٨] ... وصفها المؤرخون بأنها كانت من أحسن النساء وأعفهن وأكثرهن خدمة ، متمسكة من الدين بالعروة الوثقى ، وكانت لها أوقاف وصدقات كثيرة وبرّ عظيم [١٠٩] .

وعرف عن الصالح اسماعيل تقواه العميقة والتزامه الأخلاقي المسؤول .. حتى لقد رفض الأخذ برأي الأطباء في شرب شيء من الخمر عندما ألحّت عليه علة القولنج التي أودت بحياته . وقال : لا ، حتى أسأل الفقهاء ، فلما أفتوه بالجواز لم يقبل وسأل كبيرهم : إن الله تعالى قرّب أجلي ، أيؤخره شرب الخمر ؟ قال : لا . فأجابه: فوالله لا لقيت الله وقد فعلت ما حرّم عليّ [١١٠] !!

في صبيحة يوم الاثنين ثاني أيام عيـد الفطر المبارك من عام ٥٦٩ هـ خرج نور الدين إلى الميدان الأخضـر ، شمالي دمشق ، لممارسة الألعـاب والتماريـن الفروسية والاحتفال بختان ولده الصالح إسماعيل ، فما عاد إلى بيته إلاّ وقد تمكن منه مرض الخوانيق [١١١] ، وراح يضيق الخناق عليه ، وهو معتزل في بيته الخشبي المتواضع شمالي القلعة [١١٢] .

---

(١٠٨) ابن كثير : البداية ٢٧٩/١٢ .

(١٠٩) النعيمي : ٥٠٨/١ ـ ٥٠٩ .

(١١٠) ابن الأثير : الباهر ص ١٨٢ .

(١١١) هي الذبحة الصدرية كما يسميها الطب الحديث (ابن العديم : زبدة هامش ٤ جزء ٢ ص ٣٤٠) .

(١١٢) ابن العديم : زبدة ، العماد : البرق ص ١٥٠ ـ ١٥٣ ، ابـو شامـة : الروضتين ٥٧٩/١ ـ ٥٨٠ .

يقول ابن الأثير : « حكى لي طبيب دمشقي يعرف بالرحبي — وهو من حذّاق الأطباء — قال : استدعاني نور الدين في مرضه الذي توفي فيه مع غيري من الأطباء فدخلنا عليه ، وهو في بيت صغير بقلعة دمشق ، وقد تمكنت الخوانيق منه وقارب الهلاك فلا يكاد يسمع صوته . فكان يخلو فيه للتعبد في أكثر أوقاته ، فابتدأ به المرض فيه ، فلم ينتقل عنه ، فلما دخلنا إليه ورأينا ما به قلت له : كان ينبغي ألاّ تؤخر إحضارنا إلى أن يشتد بك المرض إلى هذا الحدّ . فالآن ينبغي أن تنتقل عن هذا الموضع إلى مكان فسيح .. وشرعنا في علاجه فلم ينجح فيه الدواء ، وعظم الداء »[113] .. وما لبث أن توفي يوم الأربعاء الحادي عشر من شوال « ووقف الناس يضطربون ويضطرمون » .. ودفن في بيته ذاك الذي كان يلازم الجلوس والتعبد والمبيت فيه ، ثم نقل إلى مقبرة تجاور مدرسته التي بناها للحنفية عند باب سوق الخواصين في الشارع الغربي[114] .



(١١٣) الباهر ص ١٦١ — ١٦٢ ، الكامل ١١/٤٠٢ — ٤٠٣ ، أبو شامة ١/٥٨٢.

(١١٤) العماد : البرق ص ١٥٣ — ١٥٤ ، أبو شامة ١/٥٨٣ .

الفصل الثاني

في ميدان الإدارة والقضاء

- ١ -

اعتمد نور الدين في ادارة دولته المتنامية على عدد كبير من الرجال كان يعرف كيف ينتقيهم بعيداً عن انتماءاتهم الاجتماعية • وناظراً إلى قدراتهم ونزاهتهم وثقافتهم وقبولهم لدى جماهير المسلمين • وكان يعرف كيف يخضعهم لمراجعته الدقيقة الصارمة ويوقفهم في الوقت المناسب منزلاً بهم العقاب العادل (١) • وكان كما يصفه العماد الأصفهاني « ذكياً ألمعياً ، فطناً لوذعياً ، لا تشتبه عليه الأحوال ، ولا يتبهرج عليه الرجال »(٢) • ولم يتقدم لديه إلا ذوو الفضل والقدرة على الانجاز الأمين المسؤول (٣) ، بغض النظر عن الاعتبارات الشكلية التي يرفضها نور الدين أشد الرفض ، حتى أن عدداً من كبار موظفيه كان من الخدم والعبيد وعدداً آخر كان من غير الشاميين ، ممن جاؤوا من أقاصي المشرق والمغرب ، فولوا أعلى المناصب وصعدوا قدماً صوب أرقى الدرجات لأنهم جاؤوا إلى نور الدين وهم يملكون كفاءات الإدارة الناجحة التي أشرنا إليها قبل قليل •

ويبدو أن نور الدين اعتمد نفس النظم الادارية المعمول بها في عصره والتي كان السلاجقة قد أرسوا قواعدها العريضة ، وجاء الأيوبيون والمماليك من بعدهم لكي يسيروا بها نحو مزيد من النضج والتخصص والشمول • لكن نور الدين أكد على مؤشر أساسي في ميدان الادارة ذلك هو أن كفاءة أجهزتها وحصيلة معطياتها لا تعتمد على بنيان الجهاز أو تركيب المنصب نفسه قدر اعتمادها على

---

(١) انظر ابن القلانسي : دمشق ص ٣٣٦ وابن قاضي شهبة : الكواكب ص ٢٥ والعماد الأصفهاني : البرق ص ١٢٠ ــ ١٢٢ ، ١٤٦ ــ ١٤٧ وأبا شامة : الروضتين ٥٨٢/١ ــ ٥٨٣ وابن واصل : بني أيوب ٢٦٩/١ •

(٢) البرق : ص ١٢٠ ــ ١٢١ •

(٣) Elisseeff : Nur Ad — din, pp 785 — 786

(الرجال) أنفسهم الذين يعهد إليهم بتسييرها • ومن ثم فإننا نجد نور الدين يملأ أجهزته بنماذج متنوعة من هؤلاء الرجال كانوا يتباينون في الانتماء الجنسي والجغرافي والاجتماعي ولكنهم ـ في الأغلب ـ يجتمعون على تلك الميزات التي لا تستقيم بدونها إدارة ما •

في البداية ، عندما قتل أبوه عماد الدين زنكي عام (٥٤١ هـ ـ ١١٤٦ م) وجد في بعض رجالاته المتقدمين في ميادين الادارة المدنية والعسكرية ساعده الأيمن الذي اعتمده في الوصول إلى الحكم في حلب وتثبيت أركان إمارته الفتية هناك • اتصل به أسد الدين شيركوه عم الناصر صلاح الدين وقال له : « اعلم أن الوزير جمال الدين الأصفهاني ـ أكبر وزراء زنكي ـ قد أخذ عسكر الموصل وعمل على تقديم أخيك (سيف الدين غازي) وتمليكه الموصل وقد انضوى إليه جل العسكر • وقد أنفذ إلي يغريني على اللحاق به ، فلم أستجب لطلبه ، وقد رأيت أن أصيرك إلى حلب فتجعلها كرسي ملكك وتجتمع في خدمتك عساكر الشام • وأنا أعلم أن الأمر يصير جميعه إليك لأن من ملك الشام ملك حلب • ومن ملك حلب استظهر على بلاد الشرق » • فما كان من نور الدين إلا أن أصدر أمره بأن ينادى ليلاً في عساكر الشام للاجتماع ، وانطلق من ثم إلى حلب فدخلها في السابع من ربيع الأول واعتمد أسد الدين شيركوه الذي أصبح أشبه بوزيره الأول[٤] •

ولم يكن دور كل من سيف الدين سوار ، القائد العسكري المشهور الذي عمل نائباً لزنكي في حلب ، وصلاح الدين الياغسياني ، رجل زنكي المعتمد وأحد كبار مستشاريه [٥] ، ليقل عن دور شيركوه في إسناد مركز نور الدين في الأيام الفاصلة التي أعقبت مقتل زنكي ، وتمكينه من إنشاء إمارته في حلب[٦] • وفي عبارة لابن العديم يقول فيها أن الياغسياني « كان يدبر أمور نور الدين في حلب ويقوم

---

(٤) أبو شامة : الروضتين ١/١/١١٩ ـ ١٢٠ .

(٥) انظر فصل ، نظم الموصل الادارية في عهد زنكي من كتاب (عماد الدين زنكي) للمؤلف ص ١٩٤ ـ ١٩٥ ، ٢٤٥ ـ ٢٤٦ .

(٦) انظر ابن القلانسي :دمشق ص ٢٨٥ وسبط ابن الجوزي ٨/١٩١ ٠

بحفظ دواته » في أيامها الأولى [٧] ما يوحي بأن الرجل ظل على ما كان عليه أيام زنكي : مستشار الامارة الأول وأحد كبار إدارييها • كما أن نور الدين اتصل عام ٥٤٤ هـ بجمال الدين الأصفهاني،كبير وزراء الموصل في عهد زنكي وابنه سيف الدين غازي من بعده وصاحب الخدمات الادارية الممتازة ، وحاول إقناعه بالالتحاق بخدمته قائلاً له : « لا بد من أن تكون عندي فلي من الحق مثل ما لأخي ــ غازي ــ وأنا أحوج إليك منه » فأجاب الرجل : « أنت فيك من الكفاية ما يستغنى به عن وزير ومشير ، وليس عندك من الأعداء ما عند أخيك ، لأن عدوك كافر فالناس يدفعونه ديانة ، وأعداء أخيك مسلمون فيحتاج من يقوم بدفعهم ، وإذا كنت عند أخيك فالنفع عائد إليك » [٨] فكف نور الدين عن المطالبة به •

ويبدو أن نور الدين لم يشأ أن يجعل جل اعتماده على العناصر الادارية المخضرمة ورأى أن يطعمها بعناصر جديدة أكثر ملائمة وفهماً لأهدافه ، أسوة بما يفعله مؤسسو الدول في إعادة تنظيم أجهزتهم الادارية وترشيح العناصر الأكثر تقبلاً للوضع الجديد وتجانساً معه • وقد كان مجد الدين محمد أبو بكر بن الداية ، شقيق نور الدين في الرضاعة ، واخوته شمس الدين علي وسابق الدين عثمان وبدر الدين حسن وبهاء الدين عمر ــ الذي لم يبرز في ميدان الادارة كما برز اخوته ربما لصغر سنه ــ على رأس هذه العناصر دون شك ، حيث استناب نور الدين أولهم في حلب وولاه كما يقول ابن أبي طي « جميع أموره وجميع مملكته » [٩] وأصبح استناداً إلى ذلك رجل الدولة الأول بعد نور الدين منذ عام (٥٤١ هـ ــ ١١٤٦ م) وحتى وفاته عام (٥٦٥ هـ ــ ١١٦٩ م) •

ويتحدث العماد الأصفهاني عن المكانة العالية التي بلغها مجد الدين واخوته في إمارة نور الدين فيقول: «كان مجد الدين رضيع نور الدين قد تربى معه ولزمه وتبعه

---

(٧) زبدة الحلب ٢/٢٨٩ ــ ٢٩٠ .

(٨) ابن الأثير : الباهر ص ٩٧ .

(٩) أبو شامة : الروضتين ١/١/١٢٤ وانظر ابن العديم : زبدة الحلب ٢/٣٠٢ .

إلى أن ملك الشام بعد والده ففوض إليه نور الدين جميع مقاصده وحكمه في الملك فلا يحل ولا يعقد إلا برأيه » وكان يسكن قلعة حلب . وقد سلمت قلعة جعبر وتل باشر لأخيه الأصغر سابق الدين عثمان ، وحارم لأخيه الثالث بـدر الدين حسن . وثمة مواقع عديدة أخرى مثل عزاز وعين تاب وغيرهما كان مجد الدين يشرف عليها بنفسه عن طريق نوابه [10] . وعندما هدمت الزلازل شيزر عام ٥٥٢ ـ ١١٥٧ م واستولى عليها نور الدين من بني منقذ سلمها إلى مجد الدين [11] . ويؤكد سبط ابن الجوزي أن مجد الدين واخوته « كانوا أعز الناس على نور الدين وكان قد أسكنهم معه في قلعة حلب ولا يصدر إلا عن رأيهم »[12] .

ويكاد المؤرخون يجمعون على أن مجد الدين أحسن تدبير المهمة التي عهـدت إليه وأنه كان عند حسن الظن . [13] وظل طوال خمسة عشر عاماً يتمتع بثقة سيده ومحبته وتفويضه الأمور في قاعدة ملكه حلب . وقد امتاز الرجل بشجاعته وتدينه وتعشقه لتقديم الخدمات الاجتماعية[14] . وعندما توفي عام ٥٦٥ هـ ـ ١١٦٩ م نفس السنة التي توفي فيها نائب كبير آخر في دولة نور الدين يدعى العمادي محمد ، حزن نور الدين حزناً عميقاً وقال وهو يبكي : « لقد قصت جناحاي »[15] وسرعان ما عهد بجميع ماكان له من مناصب وصلاحيات إلى أخيه شمس الـدين علي [16]

---

(١٠) عن أبي شامة :الروضتين ٥٩٣/١ .

(١١) ابو شامة : الروضتين ٢٧٦/١/١ .

(١٢) مرآة ٣٢٤/٨ ـ ٣٢٥ .

(١٣) انظر ابن العديم : زبدةالحلب ٣٠٢/٢ وسبط ابن الجوزي: مرآة ٢٨٠/٨ـ ٢٨١ وابن الأثير : الكامل ، ٣٥٩/١١ .

(١٤) سبط : مرآة ٢٨١/٨ .

(١٥) نفسه ٢٨١/٨ .

(١٦) ابن الأثير : الكامل ٣٥٩/١١ .

الذي غدا بمرور الوقت « أكبر الأمراء النورية في حلب » [١٧] أما أخوه الآخر سابق الدين عثمان فقد جعله مقدم عساكره[١٨] .

وفي عام (٥٦٩ هـ ــ ١١٧٣ م) ــ السنة التي توفي فيها نور الدين ــ كان بنو الداية قد تمكن نفوذهم في حلب تماماً وأصبح « أمرها إليهم ، وعساكرها معهم في حياة نور الدين وبعده » [١٩] . وكان شمس الدين علي قد عهدت إليه أمور الجيش والديوان ، وعهدت الشحنكية إلى أخيه بدر الدين حسن ، وكانت بيد هؤلاء الأخوة جميع المعاقل المحيطة بحلب [٢٠] .

ولا يذهبن إلى الظن أن تفويض أمور حلب إلى بني الداية يشير إلى نوع من الضعف الاداري أو الاتكالية في موقف نور الدين : فمن جهة رأينا قوة شخصيته وهيمنته على أجهزة الدولة وموظفيها وممارسته الأمور بنفسه[٢١] ، ومن جهة أخرى كانت ساحات الجهاد قد استغرقت معظم وقته مما لم يتح معه التفرغ الكامل للأعمال الادارية الداخلية ، ومن جهة ثالثة لم يكن بنو الداية يمارسون صلاحياتهم الواسعة إلا في إقليم واحد فقط من أقاليم الدولة النورية الواسعة هو إقليم حلب ، وثمة أقاليم ومدن أخرى كان رجال آخرون وأسر أخرى يمارسون صلاحياتهم فيها بما لا يقل في اتساعه عما فوض به بنو الداية ، لا بل إن الصلاحيات الشاملة التي عهدت إلى العماد الأصفهاني كانت أوسع بكثير مما عهد إلى بني الداية . وسنرى ، فضلاً عن هذا وذاك ، أن بني الداية لم يكونوا هم أول وآخر من برز في ميدان الادارة بل برزت معهم ، وطيلة العصر النوري ، أسماء لم تكن لتقل عنهم شهرة وانجازاً ...

---

(١٧) ابن الأثير : الكامل ٤٠٧/١١ الباهر ص ١٦٣ ، ابن العديم : زبدة ٣/١٠–١١ .

(١٨) سبط : مرآة ٢٨١/٨ .

(١٩) ابن الأثير : الباهر ص ١٦٣ ابن العديم ، زبدة ٣/١٠ – ١١ .

(٢٠) أبو شامة : الروضتين ٥٩٥/١ .

(٢١) وانظر شهادة العماد الأصفهاني في البرق ص ١٢٠ – ١٢٢ ، ١٣١ – ١٣٢ .

ولابن أبي طي تفسير لهذه الخطوة التي خطاها نور الدين بصـــدد اعتمـــاد مجد الدين بن الداية،لا يستقيم ومجريات الأحداث،فهو يقول «إنه لما بلغ نورالدين اتفاق نجم الدين أيوب مع صاحب دمشق من آل طغتكين ، خاف أن يفسد عليه أسد الدين لصالح صاحب دمشق بحصول أخيه نجم الدين عنده فمال إلى ابن الداية حتى ولاه جميـــع أموره •• فشق ذلك على أسد الدين »[٢٢] • ونحن نعرف أن علاقة أسد الدين بنور الدين ظلت كما هي قوة وانسجاماً ، بل إنها أخذت تزداد مع الأيام حتى بلغت قمتها في ترشيح أسد الدين لقيادة الحملة النورية على مصـــر في رحلاتها الثلاث •• ونعرف كذلك أن نور الدين اعتمد أسد الدين للاتصال بأخيه نجم الدين في دمشق والتمهيد لدخولها سلماً بعد إذ تبين استحالة أخذها عنوة •وقد توجت هذه الاتصالات الناجحة بدخول نور الدين دمشق عام ٥٤٩ هـ ــ ١١٥٤ م بمعونة الأخوين نجم الدين وأسد الدين ، حيث ازدادت مكانتهما ارتفاعاً • وبرز إلى دائرة الضوء ابنا نجم الدين وهما : الناصر صلاح الدين وتورانشاه كأميرين متقدمين في الدولة كما سنرى •• وأبو شامة يشير بالحرف الواحد إلى أنه « كان لأسد الدين اليد الطولى في فتح دمشق فولاه نور الدين أمرها ورد إليه جميع أحوالها »[٢٣] • وزاد على ذلك فأقطعه الرحبة[٢٤] ••• ويواصل أبو شامة حديثه فيقول : « وتوسط أسد الدين في أمر أخيه نجم الدين مع نور الدين (والوساطة هنا ــ كما يبدو ــ لا تأتي بمعنى المصالحة وإنما بمعنى التعريف والتقديم) فأقطعه اقطاعاً وسيره إلى دمشق فأقام فيها ورد نظر دمشق إليه ، وولى ولده تورانشـــاه شحنكيـــة دمشق فساسها أحسن سياسة ولم يزل بها إلى أن استبدل بأخيـــه صلاح الدين »[٢٥] •

---

(٢٢) أبو شامة : الروضتين ١/١/١٢٤ .

(٢٣) الروضتين ١/١/٢٣٩ .

(٢٤) المصدر نفسه .

(٢٥) الروضتين ١/١/٢٥٠ ــ ٢٥١ .

ولابن أبي طي تفسير لهذه الخطوة التي خطاها نور الدين بصدد اعتماد مجد الدين بن الداية،لا يستقيم ومجريات الأحداث،فهو يقول «إنه لما بلغ نورالدين اتفاق نجم الدين أيوب مع صاحب دمشق من آل طغتكين ، خاف أن يفسد عليه أسد الدين لصالح صاحب دمشق بحصول أخيه نجم الدين عنده فمال إلى ابن الداية حتى ولاه جميع أموره .. فشق ذلك على أسد الدين »(٢٢) . ونحن نعرف أن علاقة أسد الدين بنور الدين ظلت كما هي قوة وانسجاماً ، بل إنها أخذت تزداد مع الأيام حتى بلغت قمتها في ترشيح أسد الدين لقيادة الحملة النورية على مصر في رحلاتها الثلاث .. ونعرف كذلك أن نور الدين اعتمد أسد الدين للاتصال بأخيه نجم الدين في دمشق والتمهيد لدخولها سلماً بعد إذ تبين استحالة أخذها عنوة .وقد توجت هذه الاتصالات الناجحة بدخول نور الدين دمشق عام ٥٤٩ هـ ــ ١١٥٤ م بمعونة الأخوين نجم الدين وأسد الدين ، حيث ازدادت مكانتهما ارتفاعاً . وبرز إلى دائرة الضوء ابنا نجم الدين وهما : الناصر صلاح الدين وتورانشاه كأميرين متقدمين في الدولة كما سنرى .. وأبو شامة يشير بالحرف الواحد إلى أنه « كان لأسد الدين اليد الطولى في فتح دمشق فولاه نور الدين أمرها ورد إليه جميع أحوالها »(٢٣) . وزاد على ذلك فأقطعه الرحبة(٢٤) ... ويواصل أبو شامة حديثه فيقول : « وتوسط أسد الدين في أمر أخيه نجم الدين مع نور الدين (والوساطة هنا ــ كما يبدو ــ لا تأتي بمعنى المصالحة وإنما بمعنى التعريف والتقديم) فأقطعه اقطاعاً وسيره إلى دمشق فأقام فيها ورد نظر دمشق إليه ، وولى ولده تورانشاه شحنكية دمشق فساسها أحسن سياسة ولم يزل بها إلى أن استبدل بأخيه صلاح الدين »(٢٥) .

---

(٢٢) أبو شامة : الروضتين ١/١/١٢٤ .

(٢٣) الروضتين ١/١/٢٣٩ .

(٢٤) المصدر نفسه .

(٢٥) الروضتين ١/١/٢٥٠ ــ ٢٥١ .

وكان صلاح الدين قد فارق أباه نجم الدين منذ عام ٥٤٦ هـ ـ ١١٥١ م وانتقل إلى خدمة عمه أسدالدين في حلب ، فقدمه بين يدي نور الدين فقبله وأقطعه اقطاعاً حسناً [٢٦] ..

وابن أبي طي هو نفسه الذي يحدثنا كيف أن نور الدين « استخص صلاح الدين وألحقه بخواصه فكان لا يفارقه في سفر ولا حضر »[٢٧] ... ويذكر ابن الأثير كيف أن كلا من نجم الدين وأسد الدين صارا عند نور الدين بعد فتح دمشق ، في أعلى المنازل « لا سيما نجم الدين فإن سائر الأمراء كانوا لا يقعدون عند نور الدين إلا أن يأمرهم أو أحدهم بذلك ، إلا نجم الدين فإنه كان إذا دخل إليه قعد من غير أن يؤمر بذلك »[٢٨] . كما يحدثنا كيف أن أسد الدين كان قد لزم خدمة نور الدين منذ أيام والده زنكي .. وبعد أن تولى إمارة حلب راح يقربه ويقدمه « ورأى منه شجاعة يعجز غيره عنها فزاده حتى صار له حمص والرحبة وغيرهما ، وجعله مقدم عسكره»[٢٩] .

وإلى جانب بني الداية وبني أيوب تبرز أسماء لامعة أخرى في ميدان الإدارة يقف العماد الأصفهاني الكاتب في قمتها ولا ريب ...

غادر العماد بغداد ميمماً شطر الشام فوصل إلى دمشق في شعبان سنة ٥٦٢ هـ ـ ١١٦٦ م وأعانه قاضي القضاة كمال الدين الشهرزوري ، وأنزله بالمدرسة الشافعية النورية وسرعان ما توثقت العلاقة بينه وبين بني أيوب : نجم الدين ، أسد الدين وصلاح الدين .. ثم ما لبث كمال الدين الشهرزوري أن قدمه في أواخر السنة إلى نور الدين ونوّه بشأنه . فرتبه نور الدين في ديوانه منشئاً في مطلع عام (٥٦٣ هـ ـ

---

(٢٦) الروضتين ٢١٠/١/١ .

(٢٧) نفسه ٢٥١/١/١ ـ ٢٥٢ .

(٢٨) الباهر ص ١٢٠ .

(٢٩) الكامل ٣٤٢/١١ .

١١٦٧ م) وصار رئيس ديوان الانشاء وكاتب السر ومدبج الوثائق الرسمية حتى وفاة نور الدين • وكان يتلقى من بني أيوب في مصر تقارير مفصلة عما يستجد فيها من أحداث فيقرأها على نور الدين ويكتب أجوبتها • وقد جاء تعيين العماد في هذا المنصب ــ كما يذكر هو نفسه ــ بعد استعفاء أبي اليسر شاكر بن عبد الله من الخدمة في ديوان الانشاء واعتكافه في بيته • وهو يذكر أيضاً أنه وجد من نور الدين منذ ذلك الوقت « الاعزاز والتمكين على الأيام » • وقد اعتمده نور الدين، فضلاً عن ذلك، في عدد من السفارات : إلى شاه أرمن صاحب خلاط في أرمينيا أواخر سنة ٥٦٤ هـ ــ ١١٦٨م وإلى الخليفة العباسي في أوائل سنة ٥٦٦ هـ ــ ١١٧٠م كما فوضه الاشراف على المدرسة النورية في دمشق، والتي سميت بعدئذ بالمدرسة العمادية، نسبة إليه، في رجب سنة ٥٦٧ هـ ــ ١١٧١م • وفي العام التالي أصبح العماد مشرفاً على دواوين المملكة كلها، إضافة إلى مهمته في ديوان الانشاء • والاشراف هو المراقبة وتفتيش أمور الدواوين ، فكأن المشرف هو المفتش العام للحكومة [٣٠] « فجمعت، يقول العماد ، بين المنصبين، وقسمت زماني على النصيبين، فمرة للكتب والمناشير وتارة للإثبات في الدساتير[٣١] . ولم أثق بنائب وباشرت العمل بنفسي »[٣٢] .

وبعد توجه الموفق خالد القيسراني إلى مصر قام العماد مقامه وصار مستوفي المملكة وأصبح بذلك الرجل الأول في الدولة وأكثر من يعتمدهم نور الدين من الرجال حتى وفاته ، إذ أصبح العماد بمناصبه الثلاثة تلك المسؤول الأول عن الكتابة والاشراف الاداري والمالي [٣٣] •

---

(٣٠) دوزي : معجم ٧٥٠/١ عن العماد الأصفهاني : البرق ص ١٢٠ هامش رقم ٢ •

(٣١) الدستور : هو الدفتر الذي تكتب فيه أسماء الجند ومرتباتهم (البرق ص ١٢٢ هامش ١) .

(٣٢) العماد الاصفهاني : البرق ، ص ١٢٠ ــ ١٢٢ .

(٣٣) انظر العماد الأصفهاني : البرق ، المقدمة ص . ١ ــ ١١ ، ٣٦ ، ١٢٠ ــ ١٢٢ ابو شامة : الروضتين ٣٧٧/١ ــ ٣٧٨ ، ٥٢٤ .

ويحدثنا العماد عن الثقة المتبادلة بينه وبين نور الدين، وحرص الأخير على تجاوز (الروتين) الاداري فيقول : « .. وقد مال إلي نور الدين وعول في مناصبه علي وطالعته كل يوم بمرافق عملي ومنافع شغلي . فما أتحف بتحفة ، ولا أخص من أحد بعطية إلا أطالعه به وأطلعه على سببه . فكان يعجبه مني تلك الشيمة ويقول : تصرف فيه تصرفك في مالك »[٣٤] ويمضي العماد إلى القول : « ثم اعتمد علي اعتماداً كلياً وجعلني له نجياً ، وإذا أراد أن يكتب إلى أحد في مهم يقول : اكتب إليه من عندك . ومن جملة ذلك أن سعد الدين كمشتكين ـ نائبه في الموصل ـ أخذ من رجل ألف دينار بعلة عللها ، فجاء ـ الرجل ـ وتظلم ، فأمرني نور الدين بأن أكتب إليه بردها عليه . فقال كمشتكين: ما ينفعني إلا كتابه وتوقيعه، فأنهيت ذلك إليه فقال : ما معناه ؟ أما يعلم كمشتكين أنك كاتبي وأميني وصاحبي ولا تكتب إلا بأمري ؟ فإن خالف كتابك إليه قلعت عينيه !! فمضى إليه بكتابي فسارع إلى طاعته ورد عليه الألف في ساعته »[٣٥] .

ومما لا شك فيه أن العماد الأصفهاني قد حقق نجاحاً كبيراً في مهماته الادارية الأمر الذي أكسبه ثقة نور الدين المتزايدة وجعله يظفر سريعاً في مدى لا يتجاوز السنوات الست بأهم وظائف الدولة وأعلاها : الكتابة والاشراف (الاداري) والاستيفاء (المالي) . وإذا صح ما يقوله الرجل عن نفسه ـ وهو الأرجح ، لما سبق وأن ذكرناه ـ فإن نور الدين كان قد اعتمده إلى حد تفويضه الأمر كاملاً في مناصبه تلك . ورغم ذلك فإن العماد ما كان ليقدم على خطوة إلا بعد أن يطلع سيده عليها ... وقد عمق هذا الموقف الذكي من الرجل الثقة بين الطرفين تلك التي استمرت حتى نهاية حكم نور الدين .

تلي هذه الأسماء في ميدان الادارة (أي بنو الداية وبنو أيوب والعماد الأصفهاني) أسماء أخرى أقل منها أهمية ، وإن كان بعضها قد بلغ القمة التي بلغها أولئك الرجال، رغم أن المصادر لم تشر إليها إلا عرضاً ولم تقدم لنا عنها الشيء الكثير.

---

(٣٤) البرق : ص ١٣١ ـ ١٣٢ .

(٣٥) البرق : ص ١٣٢ ـ ١٣٣ .

هناك الموفق خالد بن محمد القيسراني مستوفي المملكة حتى عام ٥٦٨ هـ ـ ١١٧٢ م والذي يصفه العماد بأنه كان عند نور الدين « في مقام الوزير ، وله انبساط زائد »[٣٦] . ويذكر في (الخريدة) أنه لما وصل الشام وجد القيسراني « في صدر مناصبها وبدر مراتبها ... وكان نور الدين قد رفعه واصطنعه وبلغ منه مبلغاً من الأمر كأنه أشركه في الملك معه . ولقد كان حقيقاً بذلك »[٣٧] ويتحدث عنه أحد أحفاده المدعو معين الدين بن محمد فيقول : « كان جدي خالد قريب المنزلة من نور الدين إلى الغاية ، وإليه استيفاء دواوينه بأسرها ، وكتابة الانشاء وإمرة مجلسه ، وهو المشير والوزير،والأمور كلها عائدة إليه »[٣٨] وواضح أن عمله في كتابة الانشاء كان في الفترة التي سبقت توليها من قبل العماد الأصفهاني .

وهناك محمد العمادي صاحب نور الدين وأمير حاجبه وأحد كبار نوابه في حلب وصاحب بعلبك وتدمر [٣٩] . كان كما يصفه سبط ابن الجوزي : « عزيزاً عند نور الدين ومن أعظم أمرائه » ، ولدى سماع الأخير نبأ وفاته عام ٥٦٥ هـ ـ ١١٦٩ م ووفاة مجد الدين بن الداية في العام نفسه، بكى وقال: قصّت جناحاي، وكافأ أولاد العمادي بمدينة بعلبك[٤٠].

والشيخ الأمير مخلص الدين أبو البركات عبد القاهر بن علي بن أبي جرادة الحلبي الأمين على خزائن أموال نور الدين . توفي عام ٥٥٢ هـ ـ ١١٥٧ م ويصفه ابن القلانسي بأنه كان خيِّراً كاتباً بليغاً مستحسن الفنون ، حسن الخط مع صفاء الذهن وتوقد الفطنة والذكاء . وكان على علاقة وثيقة بابن القلانسي نفسه بحكم تردده بين حلب ودمشق ، وقد ريع الرجل لدى سماعه نبأ وفاة صديقه [٤١] .

---

(٣٦) البرق ص ١١٦ .

(٣٧) قسم شعراء الشام : ص ١٢٥ .

(٣٨) ابن واصل : بنو ايوب ١/ ٢٧٠ .

(٣٩) أبو شامة : الروضتين ١/٤٥٨ سبط : مرآة ٨/ ٢٨٠ .

(٤٠) مرآة ٨/ ٢٨١ .

(٤١) دمشق :ص ٣٤٥أماسبط فيجعل وفاته عام٥٥٦ هـ (مرآة ٨/ ٢٣٩ـ ٢٤٠).

وأبو سالم بن همام الحلبي الذي ولي الاشراف على الديوان بدمشق حتى عام ٥٥١ هـ ــ ١١٥٦ م حينما كشف التحقيق معه عن استغلاله المنصب لسرقة أموال الدولة فألقي القبض عليه واعتقل ، ثم أصدر نور الدين أمراً بكشف خيانته للناس وعقابه عقاباً قاسياً والطواف به في الأسواق حيث كان المنادي يصيح : « هذا جزاء كل خائن » . وبعد أن أقام في المعتقل بدمشق أياماً أمر نور الدين بنفيه إلى حلب فغادر دمشق « على أقبح صفة من لعن الناس ونشر مخازيه .. »[٤٢] .

يلي هؤلاء موظفون آخرون لا نجد عنهم سوى إشارات مقتضبة إلى أسماء الوظائف التي عهدت إليهم[٤٣] . وثمة حشد من الأمراء الذين وردت أسماؤهم

---

(٤٢) ابن القلانسي : دمشق ص ٣٣٦ .

(٤٣) وهم : عبد الله بن أحمد الحمدي المعروف بابن النقار الذي عمل كاتباً لنور الدين وكان يتميز بقدرته على الكتابة ونظم الشعر (سبط : مرآة ٢٨٩/٨) والشيخ ولي الدين اسماعيل الذي تولى خزانة بيت المال (العماد : البرق ص ٧٥) وضياء الدين بكريسان : الأمير الحاجب مفتش العروض العسكرية الذي كان يعد من أكابر الأمراء واعتمده نور الدين في كثير من الأمور (نفسه ص ١٢٢) وجمال الدين ريحان الذي وصف بأنه من اكبر الخدم (ابو شامة : الروضتين ٥٨٦/١) وهمام الدين مودود الذي كان ــ هو الآخر ــ من كبار الأمراء وتولى حلب في بدء عهد نور الدين (نفسه ٥٧٩/١ ــ ٥٨٠) وابو شمام المحالي : ضامن دار الزكاة (ابن واصل : بنو أيوب ٢٦٩/١) وابو اليسر شاكر بن عبد الله المعري الذي تولى كتابة الانشاء قبل العماد الأصفهاني ، فلما استعفى وقعد في بيته تولى العماد كتابة الانشاء بعده (الطباخ : تاريخ حلب ٢٧٣/٤) والأمير جمال الدين شاذبخت : الخادم الهندي عتيق نور الدين كان نائباً عن نور الدين في حلب وهو الذي بنى المدرسة المعروفة باسمه هناك (ابن العديم : زبدة ٩/٣ ، أبو شامة : الروضتين ٥٩٥/١) وشهاب الدين أبو صالح العجمي : ناظر الديوان (العماد : البرق ص ١٣١) وشمس الدين محمد بن عبد الملك المعروف بابن المقدم الذي تولى اتابكية الملك الصالح ابن نور الدين (ابن كثير : البداية ٢٨٥/١٢) ويبدو أنه تولى هذه المهمة بعد تعيين الاتابك السابق سعد الدين كمشتكين نائباً لنور الدين في قلعة الموصل عام ٥٦٦ هـ (انظر : ابا شامة الروضتين ٥٨٧/١ والعماد : البرق ص ٩٩) وأبو نصر :

←

بين الحين والآخر ، دون أن يشار إلى الوظائف التي تسلموها ولعل أغلبهم كانوا قادة عسكريين أو أمراء مرافقين لنور الدين في مهماته المدنية والحربية على السواء ، وبعضهم اشترك في حملات أسد الدين شيركوه على مصر واستقر به المقام هناك . وتولى فيما بعد في عصر الأيوبيين أرفع المناصب[٤٤] .

أما الولاة والمقطعون ففيما يلي قائمة بأهم الأسماء التي يستطيع الباحث أن يضع يده عليها :

مجد الدين بن الداية : قلعة جعبر ، عين تاب ، عزاز ، شيزر[٤٥] .

بدر الدين بن الداية : حارم[٤٦] .

→

الحاجب (نفسه ص ٤٦ ١ ــ ١٤٧) وابو محمد الحكم : المشرف على رئاسة حلب (ابن العديم : زبدة ١٣/١٨) .

وامين الدين زين الحاج ابو القسم : متولي الديوان (ابن القلانسي : دمشق ص ٥٥) وعز الدين جورديك المملوك : متولي ولاية القلعة (نفسه) ورضي الدين ابو غالب بن اسد التميمي: رئيس دمشق(ابو شامة : الروضتين١/١/٤١ــ٤٢)ونظام‌الدين ابن ابي المضاء : متولي الوزارة بدمشق (نفسه) والمنتجب ابو سالم بن عبد الرحمن الحلبي : متولي كتابة الجيش وعرض الأخبار في ديوان نور الدين (ابن‌القلانسي :دمشق ص ٣٥٣ ــ ٣٥٤) وابو الفتح عمر بن حموي شيخ الشيوخ الذي فوضه نور الدين امر الربط والزوايا والأوقاف في عدد من المدن الشامية (سبط : مرآة ٢٧٢/٨) ويبدو أن ذلك تم قبل منح صلاحية الاشراف على أوقاف المملكة لقاضي القضاة كمال الدين الشهرزوري . او لعله كان يعمل وغيره تحت إمرة الشهرزوري كمشرف عام .

(٤٤) من بين هذا الحشد من الأمراء تبرز أسماء : غرس الدين قلج ، شرف الدين بزغش ، عين الدولة الياروقي ، سيف الدين المشطوب الهكاري ، شهاب الدين محمود الحارمي ، الفقيه عيسى الهكاري ، حسام الدين بن عيسى الجراحي ، فخر الدين بن الزعفراني ، اسامة بن منقذ الشاعر المؤرخ المعروف .

(٤٥) ابن الأثير الباهر ١٣٦ ــ ١٣٧ ، ابن العديم : زبدة ٣٢٥/٢ ، ابو شامة : الروضتين ٣٨٦/١ ــ ٣٨٧ ، ٥٩٣ .

(٤٦) أبو شامة : الروضتين ٥٩٣/١ .

سابق الدين بن الداية : تل باشر • وعموماً فقد كانت لبني الداية جميع المعاقل المحيطة بحلب [٤٧] •

أسد الدين شيركوه : حمص وأعمالها عام ٥٦٣ هـ ــ ١١٦٧ م ، الرحبة • ولما استقر بنو أيوب في مصر استرد نور الدين هذين الموقعين وعين عليهما عمالا آخرين [٤٨] •

الناصر صلاح الدين : مدكين (من ضياع كفر طاب) وزردنا من ضياع حلب (عام ٥٦٣ هـ ــ ١١٦٧ م) [٤٩] •

مجاهد الدين بزان بن مامين : صرخد (عام ٥٤٢ هـ ــ ١١٤٧ م) [٥٠] •

محمد العمادي : بعلبك ، تدمر وبعد وفاته عام ٥٦٥ هـ ــ ١١٦٩ م اعطيت بعلبك لأولاده [٥١] •

زين الدين عمر بن لاجين : حصن بعرين،وعندما اتجه إلى مصر رتب نور الدين بدلا منه الأمير عين الدولة الياروقي [٥٢] •

حسان المنبجي : سلم مدينة تل باشر سنة ٥٤٩ هـ ــ ١١٥٤ م قبل أن يتولاها سابق الدين بن الداية [٥٣] •

---

(٤٧) الروضتين : ٥٩٣/١ ، ٥٩٥ .

(٤٨) نفسه : ٣٨٣/١ ، ٤٤١ .

(٤٩) العماد :البرق ص ٧٠ ــ ٧١ .

(٥٠) أبو شامة : الروضتين ١٤٩/١/١ هامش ٧ . وقد اشتهر الرجل بأوقافه الكثيرة على أبواب البر منها المدرستان المنسوبتان إليه في دمشق (أبو شامة:الروضتين ٣٠٩/١/١) . ويصفه ابن القلانسي بأنه كان وجيهاً في الدولة موصوفاً بالشجاعة والسماحة ، مواظباً على الصلاة وعلى بث الصدقات في المساكين والفقراء مع الزمان (دمشق ص ٣٥٩) .

(٥١) أبو شامة : الروضتين ٤٥٨/١ ابن شداد : الاعلاق ص ٤٢ النعيمي : الدارس ٢٥٩/٢) .

(٥٢) العماد : البرق ص ٩٢ .

(٥٣) ابن الأثير : الكامل ١٩٩/١١ .

قطب الدين ينال بن حسان : منبج (عام ٥٦٢ هـ ــ ١١٦٦ م)[٥٤] .

علم الدين علي كرد : حماة [٥٥] .

حسام الدين طومان بن ملاعب : الرقة[٥٦] .

شهاب الدين مالك العقيلي : أخرج من قلعة جعبر عام ٥٦٤ هـ ــ ١١٦٨ م وعوض بمدينة سروج وأعمالها [٥٧] .

قايماز الحراني (مملوك نور الدين) : حران [٥٨] .

خادم أسود لنور الدين (؟) : الرها [٥٩] .

سعد الدين كمشتكين (خادم كذلك) : قلعة الموصل (٥٦٦هـ ــ ١١٧٠م)[٦٠] .

— ٢ —

ومن خلال الروايات الشحيحة عن الجانب الاداري والتي عرضنا لها في الصفحات السابقة نستطيع أن تتبين قائمة بأهم الادارات والوظائف في دولة نور الدين : النائب ، الوزير ، ناظر الديوان ، المستوفي ، المشرف ، أمير ، حاجب ، والي الاقليم ، والي البلد ، والي القلعة ، الشحنة ، رئيس البلد ، الأتابك ، الخادم .

---

(٥٤) الكامل ١١/٣٢٩ الباهر ص١٣٤ــ١٣٥ ، ابن العديم : زبدة ٢/٣٢٤ــ٣٢٥ .

(٥٥) ابن منقذ : الاعتبار ص ١٩٨ هامش ٣٥ .

(٥٦) النعيمي : الدارس ١/٥٤٢ ــ ٥٤٣ .

(٥٧) ابن الأثير : الباهر ص ١٣٦ ــ ١٣٧ ابن العديم : زبدة ٢/٣٢٥ أبو شامة : الروضتين ١/٣٨٦ ــ ٣٨٧ .

(٥٨) ابن الأثير : الكامل ١١/٤٠٧ .

(٥٩) نفسه .

(٦٠) العماد : البرق ص ٩٩ .

وكما سبق أن ذكرنا فان نور الدين اعتمد نفس النظم الادارية المعمول بها في عصره والتي كان السلاجقة قد أرسوا قواعدها العريضة ، وكان ابوه زنكي قد اعتمدها وأفاد منها إلى حد كبير طيلة عشرين عاماً (٥٢١ ــ ٥٤١ هـ ، ١١٢٧ ــ ١١٤٦ م) وجاء الأيوبيون فيما بعد ، والمماليك في أعقابهم ، لكي يسيروا بها نحو مزيد من النضج والتخصص والشمول . وثمة إشارة المؤرخ الفرنسي (فيت) تتضمن تأكيداً لهذه الحقيقة فهو يقول بأن المنطقة كانت قد تأثرت في هذه المرحلة التاريخية إلى حد كبير أو صغير ، بما أنشأه السلاجقة من نظم حربية واقتصادية وما لجأوا إليه من انشاء المدارس [٦١] . وقد أشار القلقشندي إلى هذه المؤثرات الحضارية للسلاجقة ، والأتابكيات التي تفرعت عنها في مختلف أنحاء المنطقة ، بحيث أن أهم الدول والامارات التي قامت فيها كانت تستمد نظمها من هؤلاء في معظم الأحيان [٦٢] .

وثمة نتيجة تتمخض عن هذه الاعتبارات وهي أن كل دراسة للنظم التي التزمتها الدولة السلجوقية ، أو الدول والإمارات التي أخذت عنها كأتابكية الموصل والدولة الأيوبية وغيرهما [٦٣] تلقي ضوءاً في الوقت ذاته على المعالم الأساسية للإدارة في عصر نور الدين ، خاصة وأن دولته شملت مدناً ومواقع كان أبوه زنكي ، والسلاجقة من قبله ، قد نسقوا شؤونها الادارية ووضعوا بصماتهم عليها . ولنا هنا أن نمر على هذه الوظائف بإيجاز ووفق تسلسلها في الأهمية ، لكي نعرّف بها تعريفاً سريعاً قدر ما يسمح به المجال[٦٤] .

---

(٦١) L'Egypte Arabe, p. 230

(٦٢) صبح الأعشى ٤/٥ .

(٦٣) انظر : القلقشندي : صبح الأعشى ٤/٥ .

(٦٤) سبق وأن حللنا بالتفصيل كافة الوظائف والادارات المشار إليها آنفاً في بحثين سابقين ، أولهما (عماد الدين زنكي) (الفصلان التاسع والعاشر) وثانيهما (الإمارات الأرتقية في الجزيرة والشام) (الفصل الأخير). وقد نشر البحث الأول (الدار العلمية، بيروت - ١٩٧١)، وتبعه البحث الثاني (مؤسسة الرسالة، بيروت - ١٩٨٠).

فالنائب ـ كما يعرفه القلقشندي ـ هو « القائم مقام السلطان في عامة أموره أو غالبها » [٦٥] وقد كان النائب في العصرين الأيوبي ـ والمملوكي يشترك مع السلطان في منح لقب الإمارة ، وتوزيع الاقطاعات ، وتعيين الموظفين ، ويعرض عليه كشفاً بأسماء الأشخاص الذين يرى وجوب ترشيحهم للمناصب المختلفة ، فيقرها السلطان دون أن يرفض تعيين أحد المرشحين إلا نادراً [٦٦] . وكان من أعمال النائب كذلك توقيع المراسيم والمنشورات وتنفيذ القوانين والركوب على رأس فرق الجيش في المواكب الرسمية [٦٧] . وترؤس اجتماعات ديوان الجيش [٦٨] وتلقي مكاتبات نواب المدن بصدد الأمور المتعلقة بنياباتهم [٦٩] . وهكذا كان النائب هو المتصرف المطلق في شتى المجالات العسكرية والمالية والادارية [٧٠] وقد أكد (فان برشم) على أن نائب السلطنة كان على رأس الموظفين [٧١] . وكان النائب في عهد زنكي والد نور الدين . يارس ـ هو الآخر ـ سلطات واسعة في شتى المجالات الادارية والمالية والعمرانية والعسكرية . ذلك أنه كان معتمده الأول في إمارته [٧٣] . وفي عهد نور الدين شهدت المدن الكبرى لدولته ـ حلب ، دمشق ـ نواباً كان يستخلصهم من بين أكثر رجالاته كفاءة وإخلاصاً، وكانوا يمارسون صلاحيات واسعة في المجالات العسكرية والمالية والادارية ، وكانت تقام لدى تعيين أحدهم حفلة رسمية يمنح

---

(٦٥) صبح الأعشى ٤٥٣/٥ .

(٦٦) المقريزي : خطط ٢١٥/٢ السبكي : معيد النعم ص ٣٤ .

(٦٧) القلقشندي : صبح الأعشى ١٧/٤ .

(٦٨) نفسه ١٦/٤ المقريزي : خطط ٢١٤/٢ .

(٦٩) المقريزي : خطط ٢١٥/٢ .

(٧٠) نفسه .

(٧١) علي إبراهيم حسن : المماليك البحرية ص ٢١٥ .

(٧٢) عماد الدين خليل : عماد الدين زنكي ص ٢٣٤ ـ ٢٣٥ وانظر الامارات الارتقية ٣٠٤ ـ ٣٠٥ .

فيها خلعة شرفية وتقليداً رمزياً وكتاباً رسمياً يسمى التشريف [٧٣] . ولكن يجب أن لا يغيب عن بالنا هنا أن مهمات نائب السلطنة في العصر المملوكي ، كما يبينها القلقشندي وغيره ، لا تتطابق بالكلية مع مهماته في عهد نور الدين وأبيه زنكي من قبل ، وأن مصطلح (نائب السلطنة) لم يرد بصيغته هذه إلا في عصور تالية،لاسيما وأن أياً من الرجلين لم يتخذ لقب (السلطان) .

وتثير مشكلة (الوزارة) في عهد نور الدين نفس التعقيدات التي أثارتها بالنسبة لأبيه زنكي (٥٢١ ــ ٥٤١ هـ) بسبب غموض النصوص ، وندرتهاواعتمادها طريقة التعميم الذي لا تتضح معه طبيعة الصلاحيات التي أنيطت بالوزير . وأغلب الظن أن إدخال وظيفة (النائب) إلى الجهاز الاداري منذ العصر السلجوقي جعل معظم اختصاصات الوزير وسلطاته العملية تتحول إلى هذا الموظف الرئيسي ، ومن ثم غدا منصبه أقل أهمية من ذي قبل . ويشير إليسيف إلى أن الوزير ــ عموماً ــ هو رئيس الادارة والمسؤول عن الدوائر الكبرى : الخزينة ، الدواوين ... الخ لكنه غدا في حكم نور الدين في الدرجة الثانية وأصبح أشبه بمستشار سياسي للدولة[٧٤] .

ومع ذلك فإن الوزارة في هذا العهد والعهدين الأيوبي والمملوكي اللذين أعقباه لم تفقد مكانتها نهائياً بدليل ما أورده المؤرخون المعاصرون لتلك الفترة عن هذا المنصب فالظاهري يقول : « ومن انتصب لهذه الوظيفة ــ أي الوزارة ــ لزمه النهوض بمهمات الدولة وأمور المملكة ، بأن يحمل أثقالها ويزيح اختلالها ويصلح أحوالها ويحفظ رجالها وينمي أموالها ، ويستخدم الكفاة ويوليهم أعمالها ... فمن أخلص رفعه ومن غدر عزله . ويعتني بجهات الأموال وحراسة أسبابها وضبط حسابها والعدل في جبايتها .. ويقوم بتوزيع القطائع »[٧٥] . كما يذكر القلقشندي أن الوزارة « من أجل الوظائف وأرفعها رتبة في الحقيقة »[٧٦] .

---

(٧٣) انظر : ــ . Elisseeff : Nur Ad-in, pp. 778-790

(٧٤) Ibid. — pp. 786—787

(٧٥) زبدة ، كشف الممالك ص ٩٣ ــ ٩٥ .

(٧٦) صبح الاعشى ٣٨/٤ .

إلا أن الذي حد من نفوذ الوزير في هذا العهد ليس فقط النائب وإنما إيجاد مجموعة من الوظائف على رأس كل منها شخص يدعى الناظر ، كناظر الجيش وناظر الدولة (أي الذي يشارك الوزير في الأمور العامة والقضايا المالية) فضلاً عن الوظائف الأخرى آنفة الذكر(٧٧) . ويجب أن نلاحظ ـ كذلك ـ أن المصادر لم تشر بوضوح تام إلى منصب الوزير في عهد نور الدين ، فهي إذ تتحدث عن أحدهم تصفه حيناً بأنه كان (في مقام وزير) وحيناً آخر بأنه (المشير والوزير) أو (متولي الوزارة) ، وهذا مما يزيد المشكلة تعقيداً لاسيما إذا تذكرنا أن بعض الحكام لم يشاؤوا اتخاذ الوزراء احتراماً للخليفة العباسي .

أما ناظر الديوان فكان يطلق ـ لدى المماليك ـ بصورة عامة على المسؤول الأعلى للديوان سواء كان ديوان انشاء أو بريد أو نظر (أي مالية) ... وكان يساعده في تسيير شؤون ديوانه عدد من الموظفين كالوكيل ومستوفي الدولة ، وعدد من صغار المستوفين . كما كان يطلق بشكل خاص على المسؤول عن القضايا المالية « وهو مخاطب عن كل ما يتم في معاملته من خلل »(٧٨) .

وتعد وظيفة الاستيفاء من الوظائف المهمة التي عرفت لدى الدولة السلجوقية ، وكان المستوفي يلي الوزير في الأهمية ، وكان من واجبه الاشراف على حسابات الدولة وتدقيقها وضبط الأموال المتعلقة بالجيش وادارة ديوان الاستيفاء(٧٩) .

أما الإشراف على الديوان فكان يعد من الوظائف المهمة لدى السلاجقة ولها ديوان خاص يقوم المشرف بادارته ، وهو يعني بالاشراف على ضبط الحسابات والصادرات والواردات والموازنة بينهما ، وهو في الحقيقة مكمل لديوان الاستيفاء،

---

(٧٧) انظر : عماد الدين زنكي (للمؤلف) ص ٢٥٦ ـ ٢٦١ .

(٧٨) ابن مماتي : قوانين الدواوين ص٢٩٨ علي ابراهيم حسن : المماليك البحرية ص ٢١٣ عماد الدين خليل : الامارات الارتقية ص ٣٠٦ .

(٧٩) حسين أمين : نظام الحكم في العصر السلجوقي ، مجلة سومر مجلد ٢٠ سنة ١٩٦٤ ، الامارات الارتقية ص ٣٠٧ ـ ٣٠٨ .

ومثل المشرف كمثل المستوفي يستطيع أن ينيب عنه في كل ولاية نائباً . ونظراً لما بين المستوفي والمشرف من علاقة ، يكون المستوفي مراقباً لديوان الاشراف [٨٠] .

والأمير الحاجب يشرف على ديوان الجيش ، وتختلف وظيفته عن وظيفة الحجاب القدماء، إذ أن عمله هو أن «ينصف بين الأمراء والجند، تارة بنفسه وتارة بمشاورة السلطان وتارة بمراجعة النائب ، وإليه تقديم من يعرض ومن يرد ، وعرض الجند وما ناسب ذلك »[٨١] .أما الحاجب نفسه فقد اختلفت صلاحياته حسب الأزمنة اختلافاً كبيراً . وفي العصر الذي تتحدث عنه أصبحت مهمته إبلاغ السلطان حالة الشعب وكشف مظالمهم أمامه واطلاعه على الأمور الرئيسية للدولة ، ومطاردة الظلم وفق توجيهات المسؤول الأعلى ، فالحاجب ـ إذن ـ يشبه وزير الداخلية حالياً [٨٢] .

فإذا ما جئنا إلى ولاة الأقاليم والمقطعين فإننا لانجد المصادر تمنحنا قدراً كافياً من الروايات عن طبيعة المسؤولية التي كلف الولاة بها ، والجهاز الاقليمي الذي يعاونهم في شؤون الادارة ، وصلاحية تعيين أعضائه . ولما كانت معظم المواقع (الولايات) يوم ذاك ذات قلاع وحصون فالمرجح أن أهم أعمال أولئك الولاة كانت، حسبما ذكره القلقشندي « حفظ تلك القلاع وعمارة ما دعت الحاجة إلى عمارته منها، وأخذه بقلوب من فيها، وجمعهم على الطاعة بالإحسان إليهم، وتحصينها بآلات الحصار، وادخار آلات الحرب ومهماتها،والاعتناء بغلق أبواب القلعة وفتحها ، وتفقد أحوالها في كل صباح ومساء ، وإقامة الحرس وإدامة العسس ، وتعرف أحوال المجاورين لها من الاعداء ، والمطالعة بكل ما يتحدد لديه من الأخبار »[٨٣] . هذا

---

(٨٠) حسين امين : المرجع السابق ، الامارات الارتقية ص ٣٠٦ ـ ٣٠٨ .

(٨١) القلقشندي : صبح الأعشى ١٩/٤ وانظر : المقريزي خطط ٢١٩/٢ ، عماد الدين زنكي ص ١٩١ ـ ١٩٥ .

(٨٢) Elisseeff : Nur Ad-din, pp. 787—788,
وانظر السبكي : معيد النعم ص ٣٠ ـ ٣١ .

(٨٣) صبح الأعشى : ٩٢/١١ .

بالاضافة إلى مهمات الوالي المالية والعسكرية الأخرى كمساعدة السلطان في عملياته الحربية بشكل مباشر ، أي بإمداده بالجند والميرة ، أو غير مباشر ، كأن يقوم بتوسيع منطقة ولايته والدفاع عنها ضد هجمات الاعداء(٨٤) .

ونلاحظ أن المصادر استعملت كلمات مختلفة بالنسبة لتعيين الولاة على المدن مثل (تولى) و (سلم)و (اقطع) و (اعطي) و (رتب) و (عين) كما أنها سمت بعضهم بـ (صاحب كذا ...) بدلاً من وال ؛ وهذا يشير ــ بطبيعة الحال ــ إلى نوعية السلطة والاختصاصات التي كان الوالي يمارسها ، حيث نجد أن المقطع يتمتع بصلاحيات أوسع في مجال إقطاعه ، من الوالي الذي يمارس عملاً إدارياً فحسب(٨٥).

ويجب أن نلاحظ أن اقطاع أمير ما مدينة من المدن ليس معناه ــ بالضرورة ــ أن نور الدين جعله صاحبها ، بل المراد أنه خوله الحق في أن يأخذ لنفسه صافي إيرادها بعد نفقات المنافع العامة ومرتبات الموظفين عسكريين ومدنيين . وقد يقيم المقطع في إقطاعه أو لايقيم ، لأن إدارته كانت بيد رجال السلطان . أي أن الاقطاع ــ على هذا ــ كان نوعاً من المكافأة المالية إلى جانب الراتب(٨٦) .

وعلى العموم فقد قسمت دولة نور الدين ــ إدارياً ــ إلى عدة أقاليم شهد كل منها عدداً من الولاة أو المقطعين: القسم الشمالي من بلاد الشام وقاعدته حلب، والقسم الأوسط وقاعدته دمشق ، ومقاطعة حمص ، واقليم الجزيرة الذي ضم ثلاث مقاطعات : ديار ربيعة وقاعدتها الموصل ، وديار مضر وقاعدتها الرقة ، وديار بكر وقاعدتها آمد . هذا فضلاً عن الأقاليم التي فتحت فيما بعد كمصر واليمن ... ولم يغفل نور الدين عن ضرورة ربط هذه الأقاليم الادارية جميعاً بسياسة مركزية

---

(٨٤) عماد الدين خليل : الامارات الارتقية ص ٣٠٤ ، عماد الدين زنكي ص ٢٤٦ ــ ٢٤٩ .

(٨٥) انظر عماد الدين زنكي ص ٢٤٩ .

(٨٦) حسين مؤنس : نور الدين محمود ص ٣٨٤ ــ ٣٨٥ وانظر عن (الاقطاع) في هذا العصر بالتفصيل الصفحات ٢١٢ ــ ٢٢٥ من كتاب (عماد الدين زنكي) و
Lambton : Landlord and Peasant in persia, (London 1953).

موحدة لمجابهة تحديات الصليبيين من جهة ، ومحو آثار التمزق الذي عاتته المنطقة طيلة العقود السابقة من جهة أخرى[87] . فهي ـ إذن ـ ليست محاولة لتنمية (الروح السورية) كما استنتج إليسيف [88] !!

أما والي البلد فيرجح أنه كان يقوم بنفس مهام الوالي المركزي لدى الأيوبيين والمماليك ـ فيما بعد ـ حيث كانت مهمته « الاستعلام عن مجددات ولايته من قتل أو حريق كبير أو نحو ذلك »[89] . وهو الذي ينفذ الأحكام ويقيم الحدود ويتعقب المفسدين ومثيري الفتن ومدمني الخمر. ومن اختصاصه أيضاً مراقبة أبواب المدينة والطواف بأحياء التجارة والمال [90] أي أن مهمته أشبه بمهمة كل من البلدية والشرطة في الوقت الحاضر [91] .

وكانت اختصاصات والي القلعة ـ فيما يبدو ـ مشابهة إلى حد كبير لاختصاصات نائب القلعة لدى المماليك ـ فيما بعد ـ حيث كان هذا يقوم بالاشراف على فتح واغلاق باب القلعة المخصص لدخول الجند وخروجهم ويتفقد أسوار القلعة ومنافذها ويعمل على إصلاحها . ثم أصبح من اختصاصه الفصل فيما يقع بين العامة من الخصومات ، وهي أشبه بوظيفة الشرطة أو الانضباط العسكري في الوقت الحاضر ، وكان يتمتع باستقلال كبير عن النائب [92] .

والشحنة وظيفة استحدثها السلاجقة ويعين صاحبها من قبل السلطان وهي

---

(٨٧) انظر : Elisseeff : Nur Ad-in, pp. 781 -783.

(٨٨) Ibid

(٨٩) القلقشندي : صبح الأعشى ٦٠/٤ .

(٩٠) علي إبراهيم حسن : المماليك البحرية ص ٢٣٠ .

(٩١) الامارات الارتقية ص ٣١٠ .

(٩٢) القلقشندي : صبح الأعشى ٢٢/٤ ـ ٢٣ ، العمري التعريف بالمصطلح الشريف ص٩٤ ـ ٩٦ ، ١٤٨ ـ ١٤٩ ، علي ابراهيم حسن : المماليك البحرية ص٢٣١ ، الامارات الارتقية ص ٣٠٦ .

أشبه ما تكون بوظيفة الحاكم العسكري في عصرنا الحاضر ، يتمتع شاغلها بسلطات بوليسية وإدارية،وهو المسؤول عن ادارة المدينة وملاحظة الخارجين على النظام(٩٣).

أما رئيس البلد ، أو رئيس الأحداث ، فيتولى رئاسة جماعات مسلحةمن سكان المدينة أشبه بالقوات الشعبية ، وكانت هذه الجماعات قد ازداد شأنها في بلاد الشام في مستهل القرن السادس الهجري وأصبحت لهم السيطرة على الحياة في دمشق وصار لهم رئيس اتخذ لقب رئيس الأحداث أو رئيس البلد ، ويقر والي المدينة اختياره ، وقد قلدت حلب أختها دمشق في ذلك (٩٤) .

أما (الأتابك) فهي كلمة تتألف من لفظين تركيين هما (أتا) بمعنى أب و (بك) بمعنى أمير ، أي الأمير الوالد (٩٥) « وليس للاتابك وظيفة ترجع إلى حكم وأمر ونهي ، وغايته رفعة المحل وعلو المقام » وكان الأتابك يكلف من قبل السلطان الحاكم بالوصاية على واحد أو أكثر من أبنائه الذين لم يبلغوا سن الرشد (٩٦) .

وكان الخدم ، أو الخدام ، يعملون سوية مع الحجاب في قضايا التشريفات والوفود وتنظيم أمور القصر وتلقي المكاتبات أحياناً (٩٧) .

---

(٩٣) حسين أمين : نظام الحكم في العصر السلجوقي ، مجلة سومر مجلد ٢٠ سنة ١٩٦٤ وانظر الامارات الارتقية ص ٣١٠ ــ ٣١١ ، Elisseeff : Nur Ad-din, p. 833

(٩٤) C. Cahen : Mouvements Populaires, pp. 11-16
Elisseeff : op. cit, pp. 830 - 832
السيد الباز العريني : الشرق الأوسط والحروب الصليبية ١/٢٤ ــ ٢٥ ، الامارات الارتقية ص ٣٠٩ ــ ٣١٠ .

(٩٥) ابن خلكان : وفيات الاعيان ١/٣١٦ .

(٩٦) القلقشندي : صبح الأعشى ٤/١٨ ، عماد الدين زنكي ص ٢٢٦ هامش ١٧٦ .
Gibb : Damascus Chronicle. pp. 23 - 27
Encyclopeadia of Islam, ed. 2, art : Atabak (by cl. Cahen).

(٩٧) انظر القلقشندي : صبح الأعشى (طبعة ٢) ٧/٢٦٧ ــ ٢٦٩ ، ٨/ ٢٢٥ ، ٢٢٩ الامارات الارتقية ص ٣٠٨ ــ ٣٠٩ .

- ٣ -

وقد أولى نور الدين المؤسسة القضائية اهتماماً كبيراً وجعلها - بما أنها الاداة التنفيذية لاقرار مبادىء الحق والعدل ، وتحويل قيم الشريعة ومبادئها إلى واقع ملتزم - في قمة أجهزته الادارية ، وخول القضاة على اختلاف درجاتهم في سلم المناصب القضائية صلاحيات واسعة ، إن لم نقل مطلقة ، ومنحهم استقلالاً تاماً[٩٨] في دراسة القضايا المعروضة عليهم وإصدار أحكامهم بصددها . وتوج ذلك كله بانشاء (دار العدل) التي كانت بمثابة (محكمة عليا) لمحاسبة كبار الموظفين وارغامهم على سلوك المحجةالبيضاء أو طردهم واستبدالهم بغيرهم إن اقتضى الأمر .

وكان شعاره ما أكده أصحابه مراراً « حرام على كل من صحبني ولا يرفع إلي قصة مظلوم لا يستطيع الوصول إلي »[٩٩] . ويحكي خادمه شاذبخت الطواشي الهندي - الذي كان أحد نوابه في حلب - هذه الحادثة ذات الدلالة الواضحة في هذا المجال : كنت يوماً أنا ورجل واقفين على رأس نور الدين وقد صلى المغرب وجلس وهو مفكر فكراً عظيماً وجعل ينكش باصبعه الأرض ، فعجبنا من فكره وقلنا : في أي شيء يفكر ؟ في عائلته أو في وفاء دينه ؟ وكأنه فطن بنا فرفع رأسه وقال : ما تقولان ؟ فأجبناه بعد تردد فقال : والله إني أفكر في والٍ وليته أمور المسلمين فلم يعدل فيهم ، أو فيمن يظلم المسلمين من أصحابي وأعواني ، وأخاف المطالبة بذلك (أمام الله) !! فبالله عليكم - وإلا فخبزي عليكم حرام - لا تريان قصة مظلوم لا ترفع إلي ، أو تعلمان مظلمة ، إلا وأعلماني بها وارفعاها إلي[١٠٠] .

يصفه ابن الأثير بأنه « كان يتحرى العدل ، وينصف المظلوم من الظالم كائناً من كان . القوي والضعيف عنده في الحق سواء ، فكان يسمع شكوى المظلوم ويتولى

---

(٩٨) ابن قاضي شهبة : الكواكب ص ٢٥ .

(٩٩) نفسه : ص ٧٠ .

(١٠٠) نفسه ص ٢٥ .

كشف حاله بنفسه ، ولا يكل ذلك إلى حاجب ولا أمير ، فلا جرم أن سار ذكره في شرق الأرض وغربها »(١٠١) .

وكانت قمة إجراءاته القضائية إنشاءه داراً في دمشق لكشف المظـالم سماها (دار العدل) وكانت ــ كما ذكرنا ــ أشبه بمحكمة عليا لمحاسبة كبار الموظفـين ثم عممت صلاحياتها فامتدت أقضيتها إلى سائر أبناء الأمة . وقد جاء انشاؤهـا بسبب من تزايد سلطان عدد من كبار الأمراء في دمشق، وبخاصة أسد الدين شيركوه وتماديهم في اقتناء الأملاك ، وتجاوز بعضهم حقوق البعض الآخر . فكثرت الشكوى إلى قاضي القضاة كمال الدين الشهرزوري فأنصف بعضهم من بعض لكنه لم يقدم على الإنصاف من شيركوه ، فأنهى الحال إلى نور الدين ، فأصدر أمره حينئذ ببناء دار العدل. يقول ابن الأثير: «فلما سمع شيركوه ذلك أحضر نوابه جميعهم وقال لهم: اعلموا أن نور الدين ما أمر ببناء هذه الدار إلا بسببي وحدي ، وإلا فمن هو الذي يمتنع على كمال الدين ؟ والله لئن حضـرت إلى دار العدل بسبب أحدكم لأصلبنّه فامضوا إلى كل من بينكم وبينه منازعة في ملك فافصلوا الحال معه وأرضوه بأي شيء أمكن ولو أتى على جميع ما بيدي . فقالوا له : إن الناس إذا علموا هذااشتطوا في الطلب . فقال : خروج أملاكي من يدي أسهل عندي من أن يراني نور الديـن بعين أني ظالم ، أو يساوي بيني وبين آحاد العامة في الحكومة (أي القضاء) ؛ فخرج أصحابه من عنده وفعلوا ما أمرهم ، وأرضوا خصماءهم وأشهدوا عليهم . فلمـا فرغت دار العدل جلس نور الدين فيها لفصل الحكومات فلم يحضر عنده أحد يشكو من أسد الدين ، فعرفه الحال فقال : الحمد لله إذ أصحابنا ينصفون من أنفسهم قبل حضورهم عندنا » (١٠٢) .

وكان نور الدين يجلس في دار العدل مرتين في الأسبوع ، وقيل أربع مرات

---

(١٠١) الباهر ص ١٦٦ .

(١٠٢) ابن الأثير : الباهر ص ١٦٨ .

أو خمس [١٠٣] للنظر في أمور الرعية وكشف ظلاماتهم « لا يطلب بذلك درهما ولا ديناراً ولا زيادة ترجع إلى خزانته ، وإنما يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله » [١٠٤]. وكان يحضر معه قاضي القضاة كمال الدين الشهرزوري وكبار العلماء والفقهاء من سائر المذاهب ، لاعتمادهم كمجلس استشاري لاتخاذ القرارات النهائية « ويأمر بإزالة الحاجب والبواب حتى يصل إليه الضعيف والقوي والفقير والغني ، ويكلمهم بأحسن الكلام ويستفهم منهم بأبلغ النظام حتى لا يطمع الغني في دفع الفقير بالمال ولا القوي في دفع الضعيف بالقال . ويحضر في مجلسه العجوز الضعيفة التي لا تقدر على الوصول إلى خصمها ولا المكالمة معه فتغلب خصمها طمعاً في عدله ، ويعجز الخصم عن دفعها خوفاً من عدله .فيظهر الحق عنده فيجري الله على لسانه ما هو موافق للشريعة ، ويسأل العلماء والفقهاء عما يشكل عليه من الأمور الغامضة فلا يجري في مجلسه إلا محض الشريعة » [١٠٥] .

ولم يميز نور الدين في دار العدل هذه بين أبناء رعيته على أي دين كانوا ، فكان كما يقول ابن الأثير : « ينصف المظلوم ولو أنه يهودي من الظالم ولو أنه ولده أو أكبر أمير عنده »[١٠٦] وكان قبل إنشائه هذه الدار يجلس كل يوم ثلاثاء في المسجد المعلق بدمشق « ليصل إليه كل أحد من المسلمين وأهل الذمة حتى نساؤهم » [١٠٧]. الأمر الذي يفسر لنا ما أورده الرحالة اليهودي بنيامين التطيلي من تواجد العدد الكبير من اليهود في دمشق وحلب حيث بلغ في الأولى نحو ثلاثة آلاف [١٠٨] وفي

---

(١٠٣) انظر : أبا شامة : الروضتين ١/١/٣٣ .

(١٠٤) نفسه .

(١٠٥) نفسه وانظر ابن الأثير : الباهر ص ١٦٨ وابن كثير : البداية ١٢/٢٨٠ و
Elisseeff : Nur-din, pp. 843-847

(١٠٦) ابن الأثير : الكامل ١١/٤٤ .

(١٠٧) ابن قاضي شهبة : الكواكب ص ٢٥ .

(١٠٨) حوالي سنة ٥٧٧ هـ (١١٨٠م) ، اي بعد اقل من مرور عقد على وفاة نور الدين وجد فيها الرحالة اليهودي الآخر المدعو (فتاحية) عشرة آلاف يهودي : رحلة ٧٦أ عن التطيلي رحلة ، ص ١١٧ هامش ١ .

الثانية ألفاً وخمسمائة ، كما يفسر لنا اتخاذ دمشق مقراً لرأس المثيبة [١٠٩] لعلماء فلسطين [١١٠] وتواجد العدد الجم من هؤلاء فيها [١١١] •

أما النصارى المتواجدون في دولة نور الدين فإنهم لم يمسوا بأذى — رغم ظروف الصراع الإسلامي الصليبي — وعوملوا كمواطنين لهم حق الرعاية الكاملة ولم يعرف عنه « أنه هدم في حياته كنيسة ولا آذى قساً أو راهباً • وقد كان الصليبيون إذا دخلوا بلداً قتلوا جل أهله المسلمين • ولو أنه تأثر بذلك وعاملهم بالمثل لقام له في ذلك عذر ، ولكنه كان انساناً عظيماً لا يقيس نفسه بأولئك الجفاة الذين أساؤوا حتى إلى نصارى البلاد ، فظلت الكنائس في بلاده عامرة بأهلها •• بل إن الصليبيين كانوا إذا خرجوا من بلد تنفس نصاراه الصعداء وأمنوا إلى عدله وإنصافه » [١١٢] •

وما كان نور الدين ، هذا الحاكم العادل ، ليضع بينه وبين الرعية حداً أو جداراً : فيستثني نفسه من حضور مجلس القضاء والإذعان لحكمه إذا ما أدين بتهمة أو ثبتت عليه •• وما أكثر مايحكيه المؤرخون ويتناقلونه من روايات تبين لنا كيف كان الرجل يذعن للطلب ويذهب لحضور ساحة القضاء وتلقي كلمته كما يذهب أي مواطن عادي •

طلب مرة من قبل أحد المدعين فما كان من أحد كبار موظفيه إلا أن دخل عليه ضاحكاً وقال مستهزئاً : يقوم المولى إلى مجلس الحكم !! فأنكر نور الدين على

---

(١٠٩) اللفظة آرامية تعني المجلس : رحلة ص ١٧٧ هامش رقم ٢ .

(١١٠) كان بيت المقدس مقر المثيبة حتى الغزوة الصليبية الأولى وعندها لجأ علماؤها اليهود الى (حدرخ) على مقربة من دمشق ، ومنها انتقلت الى العاصمة نفسها. وفي هذه المرحلة أصبحت مثيبة دمشق في منطقة نفوذ راس مثيبة بغداد . المصدر السابق ص ١١٧ هامش ٣ .

(١١١) المصدر السابق ص ١١٧ ، ١٢٢ .

(١١٢) حسين مؤنس : نور الدين ص ٣٦٧ — ٣٦٨ .

الرجل سخريته وقال : تستهزىء بطلبي إلى مجلس الحكم ؟ وأردف : يُحضر فرسي حتى نركب إليه ، السمع والطاعة ، قال الله تعالى : (إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا)[١١٣] ثم نهض وركب حتى دخل باب المدينة واستدعى أحد أصحابه وقال له : امض إلى القاضي وسلم عليه وقل له : أني جئت هاهنا امتثالاً لأمر الشرع [١١٤] .

ويوماً كان يلعب الكرة ــ هوايته المفضلة ــ في دمشق ، فرأى رجلاً من أتباعه يحدث آخر ويومىء بيده إليه ، فأرسل إليه يسأله عن حاله ، فأعلمه أن له مع نور الدين خصومة حول بعض الأملاك ، وطلب حضوره إلى مجلس القضاء للفصل في المسألة . فتردد الغلام في عرض الموضوع على نور الدين ، ولكن هـذا ألح عليه ، فلما تبين له الأمر ألقى العصا مـن يده وخرج من الميدان وسـار إلى القاضي كمال الدين وقـال له : إنني قد جئت محاكماً فاسلك معي ما تسلكه مع غيري ، فلمـا حضر المدعي ساوى كمال الدين بينه وبين خصمه . وإذ لم يثبت ضده شيء قـال للقاضي ولكافة الحضور : هل ثبت له عندي حق ؟ قالوا : لا ، فقال : اشهدوا أنني قد وهبت له هذا المال الذي حاكمني عليه . وقد كنت أعلم أنه لاحق له عندي وإنما حضرت معه لئلا يظن أنني ظلمته ، فحيثما ظهر أن الحق لي وهبته إياه [١١٥] « تلك هي غاية العدل والانصاف بل غاية الإحسان ، وهي درجة وراء العدل » كما يعلق ابن الأثير[١١٦] .

في عام ٥٥٨ هـ ــ ١١٦٢ م ادعى رجل على نور الدين أن أباه (زنكي) أخذ من ماله شيئاً بغير حق وأنه يطالب بذلك . فقال نور الدين : أنا لا أعلم شيئاً عـن

---

(١١٣) سورة النور ، آية ٥١ .

(١١٤) أبو شامة : الروضتين ١/١/٣٦ ــ ٣٧ .

(١١٥) ابن الأثير : الباهر ص ١٦٦ ــ ١٦٧ .

(١١٦) نفسه ص ١٦٧ .

ذلك فان كان لك بينه تشهد بذلك فهاتها وأنا أرد إليك ما يخصني ، فإني ما ورثت جميع ماله فقد كان هناك ورثة غيري .. فمضى الرجل ليحضر البينة [117] .

وفي حادثة أخرى نلتقي بنور الدين وقد استدعي إلى مجلس الحكم فمضى مسرعاً إلا أنه وجد أثناء طريقه ما منعه من العبور ، فوكل وكيلا وأشهد عليه شاهدين بالتوكيل وقفل راجعاً [118] .

ولم يكن نور الدين يصدر العقوبة على الظنة والتهمة بل يطلب الشهود على المتهم فإن قامت عليه البينة الشرعية عاقبه العقوبة العادلة من غير تعد « فدفع الله بهذا الفعل عن الناس من الشر ما يوجد في غير ولايته مع شدة السياسة والمبالغة في العقوبة والأخذ بالظنة . وأمنت بلاده مع سعتها ، وقل المفسدون ببركة العدل واتباع الشرع المطهر »[119] . ويحدثنا ابن الأثير : كيف أن أحد أسباب إقالة عبد المسيح ، أحد كبار مسؤولي الموصل من وظيفته عام ٥٦٦ هـ - ١١٧٠ م كان خشونة الرجل على الرعية والمبالغة في إقامة السياسة [120] .

هذا على مستوى القضايا الخاصة ، وأما القضايا العامة التي تكون (الحكومة) فيها طرفاً في الموضوع أو تتخذ إجراءً باسم الصالح العام قد يمس بحقوق المواطنين فإن نور الدين لم يكن أقل تحرياً للحق والتزاماً بالعدل . وثمة وثيقة قيمة يثبتها لنا أبو شامة بنصها عن أحد المحاضر التي دونت بصدد عدد من قضايا الوقف والأملاك كانت قد أدخلت ضمن أوقاف الجامع الأموي بدمشق وسعى نور الدين إلى فصلها وإعادتها إلى قطاع المنافع العامة وبخاصة مسائل الدفاع والأمن . وقد تمثلت في تلك الوثيقة بوضوح الرغبة الجادة لدى نور الدين في التزام الأسلوب الشوري الحر باعتباره الطريق الذي لا طريق غيره للوصول إلى الحق . وفيما يلي بعض مقاطع هذا المحضر ونماذج من المناقشات التي دارت فيه والآراء التي طرحت خلاله :

---

(١١٧) أبو شامة : الروضتين ١/١/٣٤ .

(١١٨) نفسه ١/١/١٦ .

(١١٩) ابن الأثير : الباهر ص ١٦٧ .

(١٢٠) الباهر ص ١٥٣ - ١٥٤ .

« حضر عند نور الدين بقلعة دمشق يوم الخميس تاسع عشر صفر سنة ٥٥٤ هـ ـ ١١٥٩ م القاضي زكي الدين أبو الحسن علي بن يحيى القرشي ، والفقهاء : الشيخ شرف الدين بن أبي عصرون والخطيب عز الدين أبو البركات والإمام عز الدين أبو القاسم بن الماسح الشافعيون ، وشرف الدين أبو القاسم عبد الوهاب المالكي ، وشرف الإسلام محمد بن عبد الوهاب الحنبلي ، ورضي الدين أبو غالب بن محمد بن أسد التميمي رئيس دمشق، ونظام الدين بن أبي المضاء متولي الوزارة بدمشق، وعدد من الأعيان من شهود العدالة بدمشق . فسألهم (نور الدين) عن المضاف إلى أوقاف المسجد الجامع بدمشق من المصالح التي ليست وقفاً عليه ، وأن يظهر كل واحد منهم ما يعلمه من ذلك ليعمل به ويقع الاعتماد عليه وقال لهم : ليس يجوز لأحد منكم يعلم من ذلك شيئاً إلا ويذكره ولا ينكر شيئاً مما يقوله غيره إلا وينكره والساكت منكم مصدق للناطق ومصوب لقوله ، وليس العمل إلا على ما تتفقون عليه وتشهدون به . وعلى هذا كان الصحابة رضي الله عنهم يجتمعون ويتشاورون في مصالح المسلمين .. ثم أمر نور الدين متولي أوقاف الجامع والمساجد والبيمارستان وقني السبيل ـ وما يجري مع ذلك ـ أن يقرأ عليه بمحضر من المذكورين ضريبة الأوقاف موضعاً موضعاً ليفرد ما يعلمون أنه للمصالح (العامة) دون الوقف . فافتتح بالسوق المستجد تحت المئذنة الغربية جوار البيمارستان ، فقال بعضهم : هذا السوق بكماله لمصالح المسلمين وليس من وقف الجامع لأنه أحدث في طريق المسلمين وقد صرف في الجامع من أجوره أوفى مما عزم على عمارته من وقفه . فصدقهم الحاضرون على ما شهدوا به . ثم عين للمصالح أيضاً (بعدد الأماكن واحداً واحداً) .. فلما شهدوا بصحة جميع ماذكر وأن منافع ذلك وأجوره جارية في المصالح ، قال نور الدين : إن أهم المصالح سد ثغور المسلمين ، وبناء السور المحيط بدمشق، والخندق، لصيانة المسلمين وحريمهم وأموالهم. فصوبوا ما أشار إليه وشكروه . ثم سألهم عن فواضل الأوقاف هل يجوز صرفها في عمارة الأسوار وعمل الخندق للمصلحة المتوجهة للمسلمين ؟ فأفتى شرف الدين المالكي بجواز ذلك ومنهم من روّى في مهلة النظر ، وقال الشيخ ابن أبي عصرون الشافعي : لا يجوز أن

يصرف وقف مسجد إلى غيره ، ولا وقف معين إلى جهة غير تلك الجهة ، وإذا لم يكن بد من ذلك فليس طريقه إلا أن يقترضه من إليه الأمر من بيت مال المسلمين فيصرفه في المصالح ويكون القضاء واجباً من بيت المال . فوافقه الأئمة الحاضرون معه على ذلك . ثم سأل ابن أبي عصرون نور الدين : هل أنفق شيء قبل اليوم على سور دمشق وعلى بناء (بعض) العمارات المتعلقة بالجامع المعمور بغير إذن مولانا ؟ وهل كان إلا مبلغاً للأمر في عمل ذلك ؟ فقال نور الدين : لم ينفق ذلك ولا شيء منه إلا بإذني وأنا أمرت به ... » [١٢١] .

اعتمد نور الدين في أجهزته القضائية رجالاً ثقاة عرف كيف ينتقيهم ، بعد إذ رأى فيهم من الفقه الواسع والتقوى العميقة ما يؤهلهم لتسلم منصب القضاء الذي تربع في عهده ــ كما رأينا ــ قمة مؤسسات الدولة ، وحظي باستقلال تام وأصبح حكمه هو الحكم الملزم للجميع بما فيهم السلطان نفسه وكبار أمرائه .

ويبرز من بين حشد كبير من القضاة آل الشهرزوري وعلى رأسهم كمال الدين أبو الفضل محمد بن الشهرزوري ، أولئك الذين كانوا قد تخصصوا منذ عهد عماد الدين زنكي وما قبله في المهام القضائية وبرعوا فيها. كما يبرز اسم شرف الدين بن أبي عصرون.

وحدث في مطلع عام ٥٥٥هـ ــ ١١٦٠ م أن تقدم قاضي دمشق زكي الدين أبو الحسن علي بن القرشي برقعة إلى نور الدين يطلب فيها اعفاءه من القضاء،فأجابه إلى طلبه ، وولى قضاء دمشق القاضي الإمام كمال الدين بن الشهرزوري وهو كما يصفه ابن القلانسي المعاصر له : « المشهور بالتقدم ووفور العلم وصفاء الفهم والمعرفة بقوانين الأحكام وشروط استعمال الإنصاف والعدل والنزاهة وتجنب الهوى والظلم، وحكم بين الرعايا بأحسن أفعال في الحكم » .. وكتب له نور الدين منشوراً بذلك بين فيه أنه في حالة غيابه أو اشتغاله بمهمة ما فإن ولده محيي الدين ينوب عنه في منصبه [١٢٢] .

---

(١٢١) الروضتين ١/١/١٤ ــ ٤٤ (يجد القارىء هناك النص الكامل للوثيقة) .

(١٢٢) دمشق ص ٣٥٩ــ ٣٦٠ .

كان كمال الدين قد ولد عام ٤٩١ هـ ـ ١٠٩٧ م وتفقه ببغداد وسمع الحديث من كبار المحدثين وولي قضاء بلدة الموصل ، وكان يتردد إلى بغداد وخراسان رسولاً من عماد الدين زنكي،ثم ما لبث أن وفد على نور الدين [١٢٣]. ويبدو من رواية لابن العديم [١٢٤] أن كمال الدين أصبح بعد أقل من عامين (٥٥٧ هـ ـ ١١٦١ م) قاضياً لقضاة الدولة كلها « وأمر نور الدين القضاة ببلاده أن يكتبوا الكتب نيابة عنه » ، وأن زكي الدين قاضي دمشق لم يتقدم بالإعفاء عام ٥٥٥ هـ ـ ١١٦٠ م وانما أعفاه نور الدين بسبب امتناعه عن أن يكون أحد نواب كمال الدين . ومهما يكن من أمر فإن كمال الدين قد تمكن من منصبه وأصبح في دمشق ، كما يقول العماد « الحاكم المطلق »[١٢٥] وأصبحت دولته نافذة الأوامر منتظمة الأمور [١٢٦] . وورد عنه كذلك أنه « ارتقى إلى درجة الوزارة فكان له الحل والعقد في أحكام الشام »[١٢٧] . وكان له من صفاته الشخصية وسياسته القائمة على البر بالأبرار وحفظ الأصدقاء [١٢٨] ، ومن ثقافته الواسعة وخبرته الفقهية والقضائية والسياسية ، خير معين على مواصلة الطريق حتى النهاية . ولم يكتف كمال الدين بمهامه القضائية بل كان يملك نزعة متأصلة للبناء والإعمار ، فأشرف بنفسه على بناء أسوار دمشق ومدارسها ومارستاناتها [١٢٩] ، وقد فوضه نور الدين مهمة الإشراف على دار الضرب وأوقاف الدولة وتوجيه مصارفها لبناء الأسوار وحفظ الثغور فأنجز مهمته على خير

---

(١٢٣) ابن طولون : قضاة دمشق ص ٤٧ ـ ٤٨ .

(١٢٤) زبدة ٢/٣١٢ .

(١٢٥) البرق ص ٢٢٢ .

(١٢٦) نفسه ص ١٤٦ ـ ١٤٧ .

(١٢٧) العماد : الخريدة قسم الشام ص ٢٤٦ هامش ٤ وقد أخطأ ابن طولون في تفسير هذه العبارة فظن أن نور الدين قد استوزره (قضاة دمشق ص ٤٧ ـ ٤٨) .

(١٢٨) العماد : البرق ص ٢٢٢ ـ ٢٢٤ .

(١٢٩) نفسه .

وجه [١٣٠] ، كما أولى عناية خاصة بإعمـار الجامع الأموي بدمشق والإنفاق عليه بسخاء [١٣١] . وزاد نور الدين على ذلك كله فاعتمده مبعوثاً إلى الخليفة العباسي في بغداد [١٣٢] . كما اعتمد ابنه محيي الدين نائباً عنه في قضـاء حلب والبلـدان التابعة لهافضلاً عن النظر في أمور ديوانها . وكان محيي الدين هذا ، كما يصفه العماد « من أهل الفضل ، وله نظم ونثر وخطب ، وكانت معرفته (بالفقه) في أيام التفقه في بغداد في المدرسة النظامية منذ سنة ٥٣٥ هـ ــ ١١٤٠ م » [١٣٣] ، كما اعتمد في حماة وحمص قضاة آخرين من بني الشهرزوري أنفسهم [١٣٤] . وعندما دخـل الموصـل عام ٥٦٦ هـ ــ ١١٧٠ م أقر على قضائها حجـة الديـن بن نجم الدين الشهرزوري [١٣٥] .

أما الشيخ شرف الدين أبو سعد بن أبي عصرون الذي تولى قضاء سنجـار ونصيبين وحران وغيرها من مدن ديار بكر ، وأصبح هناك أشبه بقاضي القضاة ، ينوب عنه في سائر المدن نواب أشرف على تعيينهم بنفسه [١٣٦] ، فقد ولد بالموصل سنة ٤٩٢ هـ (أو ٤٩٣) ــ ١٠٩٩ م وتفقه على جماعة من العلماء ، وانتقل إلى حلب سنة ٥٤٥ هـ ــ ١١٥٠ م ، ثم قـدم دمشق لدى دخـول نور الدين إليهـا عـام ٥٤٩ هـ ــ ١١٥٤ م ودرس في جـامع دمشق ، وتولى أوقـاف المساجد ، ثم رجع إلى حلب وأقام بها ، وصنف كتباً كثيرة في الفقه والمذاهب ، ودرس على يديه عدد كبير من التلاميذ وانتفعوا به . وكان فقيهاً من طراز أول ، ووصف بأنه من أفقه

---

(١٣٠) العماد : البرق ص ١٤٦ ــ ١٤٧ .

(١٣١) ابن كثير : البداية ١٢/٢٧٨ .

(١٣٢) ابن الأثير : الكامل ١١/٣٩٥ .

(١٣٣) عن أبي شامة : الروضتين ١/٤٧٠ .

(١٣٤) أبو شامة : الروضتين ١/٤٧٠ ابن طولون : قضاة دمشق ص ٤٧ ــ ٤٨ .

(١٣٥) العماد : البرق ص ٩٧ .

(١٣٦) نفسه ص ١٠٠ .

أهل عصره ، وأنه إمام أصحاب الشافعي يومذاك ، وكان متوحداً في العلم والعمل • وسرعان ما تقدم عند نور الدين فكلفه بالإشراف على بناء المدارس في حلب وحمص وحماة وبعلبك وغيرها ، ثم مالبث أن ولاه قضاء ديار بكر ومنحه ـ كما سبق وأن ذكرنا ـ صلاحيات واسعة (١٣٧) • كما اعتمده عام ٥٦٦ هـ ـ ١١٧٠ م رسولاً إلى الخليفة المستضيء في بغداد (١٣٨) • وقد توفي عام ٥٨٥ هـ ـ ١١٨٩ م (١٣٩) •

ـ ٤ ـ

لم تكن الإدارة في دولة نور الدين محمود أداة لخدمة أهداف الطبقة الحاكمة ، كما هو الحال في كثير من الدول والحكومات ، ولا لتحقيق وحماية مصالح حفنة من (البيروقراطيين) ، كما أنها لم تكن مجرد ذريعة عملية (براغماتية) لتسيير الشؤون المادية المنفعية الصرفة للدولة فحسب •• إن هنالك أهدافاً أكبر بكثير ، وقيماً ومبادىء أبعد مدى ، كان على الأجهزة الإدارية أن تسعى إلى تحقيقها في واقع الحياة ، وأن تبذل ما تمتلكه من قدرات وخبرات للسير بالأمة قدماً صوب آفاقها الرحيبة الشاملة ••

إن تنفيذ شريعة الإسلام وقيمه ومبادئه في واقع الحياة ، وبعث (المجتمع الإسلامي) كان هو الهدف المركزي لإدارة نور الدين محمود • فهي إذن إدارة ملتزمة وليست جهاز منفعة وكسب واحتراف ••

وفي أكثر من مناسبة وعبر حشد من الأقوال والتأكيدات والتصريحات والمواقف أشار نور الدين إلى هذه الحقيقة • •ودعا بحماس منقطع النظير إلى تحقيقها ، وسعى

---

(١٣٧) ابن خلكان : وفيات ٥٣/٣ ـ ٥٦ ابن طولون : قضاة دمشق ٤٩ ـ ٥١ النعيمي : الدارس ٣٩٩/1 ـ ٤٠٢ •

(١٣٨) سبط : مرآة ٢٨٣/٨ •

(١٣٩) وانظر الفصل الاخير من هذا البحث للاطلاع على عدد آخر من القضاة الذين اعتمدهم نور الدين •

ـ فعلاً ـ إلى أن تنتقل هذه الدعوة ـ رغم المصاعب والعقبات ـ من ميدان الفكر إلى ميدان التطبيق .

قال : « نحن نحفظ الطرق من لص وقاطع طريق، والأذى الحاصل منهما قريب، أفلا نحفظ الدين ونمنع عنه ما يناقضه ، وهو الأصل ؟! »(١٤٠) ، وقال « نحن شحن للشريعة نمضي أوامرها »(١٤١) ، وقال مخاطباً أحد الحكام « انظر في العوادي وما يجري فيها من الدعاوى ، وميز بين المحاسن والمساوىء ، واحمل الأمور فيها على الشريعة » (١٤٢). وقال متحدثاً إلى اثنين من كبار موظفيه: « والله إني أفكر في وال وليته أمور المسلمين فلم يعدل فيهم . أو فيمن يظلم المسلمين من أصحابي وأعواني وأخاف المطالبة بذلك (أمام الله) . فبالله عليكم ، وإلا فخبزي عليكم حرام ، لا تريان قصة مظلوم لا ترفع إلي ، أو تعلمان مظلمة إلا وأعلماني بها وارفعاها إلي »(١٤٣) . وقال فيما يلخص موقفه (الملتزم) بعبارة تثير الإعجاب « إني جئت هاهنا امتثالاً لأمر الشرع »(١٤٤) !!

وثمة شهادات المؤرخين تؤكد جميعاً هذا الحرص على الالتزام ، وعلى جعل الإدارة أداة لتحقيق كلمة الله في الأرض .. يقول ابن الأثير : « كان نور الدين يعظم الشريعة المطهرة ويقف عند أحكامها » (١٤٥) ويقول في مكان آخر : « وعلى الحقيقة فهو الذي جدد للملوك اتباع سنة العدل والانصاف ، وترك المحرمات من المأكل والمشرب والملبس وغير ذلك ، فإنهم كانوا قبله كالجاهلية ، همة أحدهم بطنه وفرجه

---

(١٤٠) ابن الأثير : الباهر ص١٧٣ ـ ١٧٤ ابن قاضي شهبة: الكواكب ص٣٢ـ٣٣.
(١٤١) ابن الأثير : الباهر ص ١٦٦ .
(١٤٢) العماد : البرق ص ١٤٦ ـ ١٤٧ .
(١٤٣) ابن قاضي شهبة : الكواكب ص ٢٥ .
(١٤٤) أبو شامة : الروضتين ١/١/٦ ٣ـ ٣٧ .
(١٤٥) الباهر : ص ١٦٦ .

لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً ، حتى جاء الله بدولته فوقف مع أوامر الشرع ونواهيه وألزم بذلك أتباعه وذويه ، فاقتدى به غيره منهم ، واستحيوا أن يظهر عنهم ما كانوا يفعلونه » [١٤٦]. ويقول أبو شامة : «سمعت أبا شداد يقول : أما فكره ففي إظهار شعار الناس وتأسيس قاعدة الدين » [١٤٧]. ويقول في مكان آخر: «كان أشهى ما إليه كلمة حق يسمعها ، أو إرشاد إلى سنة يتبعها »[١٤٨] .

ويقول ابن كثير : « كان يقوم في أحكامه بالمعدلة الحسنة واتباع الشرع المطهر ... وأظهر ببلاده السنة وأمات البدعة »[١٤٩] . ويقول ابن قاضي شهبة : « كان نور الدين ــ لما صارت له الموصل ــ قد أمر كمشتكين شحنتها ألا يعمل شيئاً إلا بالشرع إذا أمره القاضي ، وألا يعمل القاضي والنواب كلهم شيئاً إلا بعد مراجعة الشيخ عمر الملاء ــ أحد شيوخ الموصل الصالحين ــ . وكان معتنياً بحفظ أصول الديانات ، ولا يمكن أحداً من إظهار ما يخالف الحق ، ومتى أقدم على ذلك أدبه بما يناسب بدعته »[١٥٠] .

وكان لايقدم على إجراء ما ، عام أو شخصي ، إلا بعد أن يستفتي الفقهاء الذين كانوا أشبه بمجلس شيوخ تشريعي أو هيئة استشارية تستلهم في قراراتها النهائية مؤشرات الشريعة الغراء بحيث لا يقدم أحد في الدولة على عمل أو إجراء إلا ويجيء ذلك العمل منسجماً مع فكر الدولة وعقيدتها وشريعتها [١٥١] . وقد سبق وأن مر بنا ذلك المجلس القضائي الذي عقده نور الدين للفصل في مصالح الأوقاف

---

(١٤٦) الباهر : ص ١٦٥ ــ ١٦٦ .

(١٤٧) الروضتين ١/١/٣٤ .

(١٤٨) نفسه ١/١/١٠ ــ ١١ .

(١٤٩) البداية ٢٧٨/١٢ .

(١٥٠) الكواكب ص ٢٥ ، ٣٢ ــ ٣٣ .

(١٥١) انظر : سبط : مرآة ٢٤٧/٨ ــ ٢٤٨ ابا شامة : الروضتين ٤٨٠/١ ابن الأثير : الباهر ص ١٦٤ .

العامة وما دار فيه من حوار مفتوح كان يستلهم روح الشريعة ويتحرك في أُطرها ودوائرها .

ولم يدع نور الدين منكراً يسود جانباً من جوانب الحياة الاجتماعية إلا عمل على إزالته وحث موظفيه على التنفيذ الفوري لأوامره بهذا الصدد .. إنه لم يشأ أن يقاتل العدو في الخارج وفي الداخل يعشش الخراب والتفكك والعفن ، فيدمر الإنسان المسلم ، ويفتت العلاقات الاجتماعية ، ويستنزف القدرات الجهادية الخلاقة للأمة المسلمة ، والتي بدونها ، كانت تنتهي دائماً إلى مواقع الفرار والذلة والهزيمة .. لقد قالها يوماً أحد كبار الشيوخ ــ برهان الدين البلخي ــ وجهاً لوجه أمام نور الدين : « أتريدون أن تنصروا وفي عسكركم الخمور والطبول والزمور ؟ فلا والله »[١٥٢].

وما كان نور الدين بحاجة إلى من يقول له هذا . ولكنها الذكرى التي تهز الفؤاد وتقود إلى مزيد من الانجاز الذي يبني الجبهة الداخلية النظيفة ، المتينة ، القديرة على مواصلة المهمة القتالية التي قادها نور الدين .. لقد أصدر أوامره إلى كافة موظفيه بالعمل على منع ارتكاب الفواحش وشرب الخمور ، أو بيعها في جميع بلاده ، أو ادخالها إلى بلد ما ، وإسقاط كل ما يدخل تحت شبه الحرام وتصفية آثار الآثام ، وإراقة الخمور ، وإزالة كل ماينِدّ عن محجة الشريعة البيضاء ، وينحرف إلى جحور الخطايا وبؤر الظلام . وكان ينزل عقابه السريع العادل بكل من خالف عن أمره « وكل الناس عنده فيه سواء »[١٥٣] .

لقد بلغ من التزام نور الدين بكتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام حداً عجيباً .. والرواية التي يقدمها لنا ابن قاضي شهبة تعطينا دليلاً من عشرات الأدلة ، بل مئاتها ، على هذا الالتزام العقيدي الذي بلغ ــ على يدي نور الدين ــ

---

(١٥٢) ابن العديم : زبدة ٣١٥/٢ .

(١٥٣) ابن الأثير : الباهر ص ١٤٣ ، ١٦١ ــ ١٦٢ ، ١٦٤ أبو شامة : الروضتين ١٠/١/١ ابن العديم : زبدة ٣١٥/٢ .

درجة العشق الذي يذكرنا بسلفه العظيم عمر بن عبد العزيز : « حكى الشيخ أبو البركات أنه حضر مع عمه الحافظ أبي القاسم مجلس نور الدين لسماع شيء من الحديث ، فمرّ أثناء الحديث أن النبي ﷺ خرج متقلداً سيفاً ، فاستفاد نور الدين أمراً لم يكن يعرفه وقال: كان رسول الله ﷺ يتقلد السيف!! يشير إلى التعجب من عادة الجند إذ هم على خلاف ذلك لأنهم يربطونه بأوساطهم . فلما كان من الغد مر ، وأنا تحت القلعة والناس مجتمعون ينتظرون ركوب السلطان ، فوقفنا ننظر إليه ، فخرج من القلعة وهو متقلد السيف وجميع عسكره كذلك »[١٥٤] .

ويعلق ابن قاضي شهبة على هذه الحادثة فيقول : « رحم الله هذا الملك الذي لم يفرط في الاقتداء بالنبي ﷺ بمثل هذه الحالة . بل لما بلغته رجع بنفسه ورد جنده عن عوائدهم اتباعاً لما بلغه عن نبيه ﷺ ، فما الظن بغير ذلك من السنن؟!»[١٥٥] .

بلى .. إذا كان هذا الالتزام قد تحقق في مجال الاجراءات الشكلية .. فما الظن في مساحات (المضمون) الأكثر ثقلا في حركة التغيير الشاملة التي سعى الرجل لتحقيقها ؟! .



(١٥٤) الكواكب ص ٤٠ ــ ٤١ .

(١٥٥) نفسه .

الفصل الثالث

في ميدان المال والمجتمع

- ١ -

أولى نور الدين محمود المسألة الاجتماعية اهتماماً بالغاً وأدرك أن أي تغيير أساسي في واقع الحياة البشرية نحو الأحسن والأمثل لن يستكمل أبعاده إلا من خلال إعادة تشكيل الأرضية الاجتماعية بالحق والعدل بحيث لايبقى هنالك ظالم أو مظلوم .. فمن خلال هذه الثغرة الخطيرة ، من خلال هذا التقابل المدمر في الحياة الاجتماعية، تضيع طاقات وقدرات كان يمكن أن تتفتح وتعطي لولا حصار الجوع والمسغبة، بينما في الجهة الأخرى يتمركز - بسبب تكدّس غير طبيعي في الثروة - العفن والتفكك والترف والفساد.

كان نور الدين محمود يشكل موقفه الفعال في المسألة الاجتماعية من خلال الرؤية الإسلامية الموضوعية العادلة التي صاغها كتاب الله وسنة رسوله ، ونفذتها سياسات الخلفاء الراشدين والقيادات الإسلامية الملتزمة عبر حركة التاريخ .. ولقد تحدثت عن الخطوط العريضة لهذه الرؤية في بحث (مقال في العدل الاجتماعي)[1]، كما حللت أحد نماذج التطبيق العملي في بحث (ملامح الانقلاب الاسلامي في خلافة عمر بن عبد العزيز)[2] بشكل موسّع،فليس ثمة داع لأن نعيد ها هنا ما قلناه هناك. ولنا ــ من ثم ــ أن نتتبع بتركيز صيغ السياسات الاجتماعية التي اعتمدها نور الدين في ميادين المال والاقتصاد والعلاقات الاجتماعية ، فأغنى الرصيد الواقعي للتجربة الإسلامية ، وقدم (نموذجاً) قيادياً آخر في ميدان التطبيق العملي .

يبدو واضحاً من خلال تتبع النصوص التي يستطيع الباحث جمعها عن هذه المسألة ، كيف أن نور الدين كان يرى في الدولة مؤسسة لحماية (حقوق) جماهير

---

(١) مؤسسة الرسالة ، بيروت ــ ١٩٧٧ .

(٢) الدار العلمية ، بيروت ــ ١٩٧٠ .

المواطنين وتقديم أوسع الخدمات لهم •• وهو التصور الذي يرفض بالكلية صيغ الأخذ والاستلاب والابتزاز والتضييع التي مارستها الكثير من الحكومات عبر التاريخ الإسلامي وغير الإسلامي •• وكان هذا الابتزاز يأخذ يوم ذاك صيغ التوسّع الضرائبي السالب ، والامتناع في المقابل عن تقديم الخدمات •

ومن أجل تجاوز هذا المنطق الخاطىء سعى نور الدين إلى التحرّك صوب الطرف المقابل تماماً ، فعمل على تقليص الضرائب إلى الحد الأدنى المتاح ، ونشط من أجل تقديم أوسع الخدمات لجماهير أمته •• وكان يحوط هذا التحرك ــ الذي أخذ يتصاعد بمرور الزمن ــ برقابة صارمة على أموال الدولة العامة ويقطع اليد التي تسعى إلى أن تمتد إليها بسوء • •كما يحوطه بانفتاح عجيب على القطاعات الفقيرة المسحوقة من أبناء الأمة ، من أجل تفهم واقعها المرير ورفعها إلى مستوى الكفاية •• يستند في ذلك كله على قدر من (الموارد) كان ــ ولا ريب ــ قديراً على تغطية متطلبات (العطاء) الواسعة التي نفذها نور الدين •

— ٢ —

وقضية (الضرائب) ، ككثير من المواقف في الحياة والمجتمع ، تحمل ــ وفقاً للظروف التاريخية ــ جانبي السلب والإيجاب ، فالسياسة الضرائبية ليست مطلقة وإنما هي نسبية بالإحالة إلى مجموع الظروف الذاتية والموضوعية التي تتحدد فيها •• فتارة يكون التوسع فيها عدلاً وحيناً يكون ظلماً وبالعكس ••

عندما يفرض في العصر الحاضر ــ على سبيل المثال ــ المزيد من الضرائب ، والضرائب التصاعدية ، على ذوي الدخول الكبيرة من أجل إحداث حالة التوازن ، لا يمكن إلاّ أن يُعد ذلك إجراءً عادلاً ، لأن الأجهزة الحكومية أصبحت ــ في عدد من الدول على الأقل ــ أدوات كفوءة ومتخصصة وموضوعية ــ إلى حدّ ما ــ في مهمة تحويل هذه الضرائب إلى جهاتها الحقيقية •• ورغم ذلك فإننا نجد في عصرنا هذا الكثير من الاستغلال والابتزاز والتوجيه اللاموضوعي لحصيلة الضرائب ••

أما في عصر آخر كعصر نور الدين ، كان الحاكم الأعلى فيه ، خليفة أم سلطاناً أم ملكاً أم أميراً ، هو الرجل الأول في الدولة ، وكان بمقدوره أن يتصرّف في أموالها كيفما يشاء . . في عصر (المصادرات) التي كانت تستهدف الإثراء الشخصي فحسب . . في عصر الضرائب المتزايدة التي لم تكن تفرض إلاّ لحلّ أزمة عابرة تتعلق بفرد أو هيئة فحسب .. في العصر الذي أخذت الضرائب تتزايد فيه مع الزمن « حتى أن الفاطميين في مصر كانوا يأخذون على البضائع مكساً يصل إلى خمسة وأربعين في المائة من قيمتها ،وابتكر ظلمة الحكام منها أشياء بعد أشياء ، ناء الناس بثقلها ، حتى استغنى الكثير من التجار عن المتاجرة ، وأخفى الناس أموالهم ، وأصبحوا مع حكامهم في بلاء شديد ، وارتفعت نسبة الخراج الذي كان يجبى على الأرض حتى لم يبق للزراع ما يتقوتون به ، وأصبح الحكام يكلون جباية الضرائب إلى نفر من الجهابذة التزاماً ، فيدفع الواحد منهم مبلغاً ثم يجبي أضعافه من الناس .. » [٣] .. في عصر كهذا كان إسقاط الضرائب يعد ـ ولا شك ـ خطوة إيجابية في طريق العدل الاجتماعي .

أخذ نور الدين في تنفيذ سياسته هذه منذ فترة مبكرة ، وكان ـ حيناً بعد حين ـ يصدر الأوامر ويعمّم الكتب والمناشير بإسقاط حشود الضرائب(اللاشرعية) التي كانت تأخذ بخناق المواطنين من جراء سياسات الابتزاز التي اعتمدها الحكام والأمراء الذين سبقوا نور الدين ، والتي كان لا يزال العديد من الحكام والأمراء الذين عاصروه يعتمدونها ، وكانت شعبيّته تزداد باطّراد عجيب في خط متواز مع مقادير الضرائب التي كان يطلقها .. وهذا يؤكد ما سبق وأن قلناه قبل قليل من أن إجراءاته الضرائبية جاءت تعزيزاً لسياسته الدائبة من أجل تحقيق العدل الاجتماعي .. وكان ينتهز الفرص المناسبة : فتح من الفتوح ، أو انتصار من الانتصارات ، أو حادث من الأحداث أو كلمة ذكرى تهز الفكر وتستجيش عواطف التجرّد والعطاء ..

---

(٣) حسين مؤنس : نور الدين محمود ص ٤٠٢ .

عندما دخل دمشق عام ٥٤٩ هـ أصدر منشوراً بإسقاط المكوس والضمانات والضرائب والغرامات المفروضة على عدد من البضائع والأسواق : دور البطيخ ، سوق الخيل ، سوق البقل ، ضمان الأنهار[٤] ، سوق الغنم ، الكيالة •• وغيرهـا . وقرىء المنشور على المنبر « فاستبشر الناس بصلاح الحال وأعلن الناس من التناء والفلاحين والحرم والمتعيشين برفع الدعاء إلى الله سبحانه بدوام أيامه »[٥] .

وفي عام ٥٥٢ هـ عندما دخل شيزر أصدر منشوره الشهير بإلغاء حشد كبير من المظالم والمكوس شمل معظم أنحاء دولته وجاوز المائة والخمسين ألف دينار •• وقد جاء فيه : « •• هذا ما تقرب به إلى الله تعالى صافحاً ، وأطلقه مسامحاً لمن علم ضعفه من الرعايا ــ رعاهم الله ــ لضعفهم عن عمارة ما أخربته أيدي الكفّار ــ أبادهم الله تعالى ــ عند استيلائهم على البلاد وظهور كلمتهم في العباد ، رأفة بالمسلمين الثاغرين ولطفاً بالضعفاء المرابطين الذين خصهم الله تعالى بفضيلة الجهاد •• وأعـاد عليهم ما اغتصبوا عليه من أملاكهم التي أفاء الله عليهم بها من الفتوح •• بعد ما طرأ عليها من الظلمة المتقدمين •• فطمس عنهم ــ بذلك ــ معالم الجور •• ثم لما أعانه الله بعونه وأيده بنصره ، وأظهر بهمته شعائر الإسلام وأظفره بالفئـة الباغية . . صفح لكافة المسافرين (أي التجار) وجميع المسلمين بالضرائب والمكوس وأسقطها من دواوينه وحرمها على كل متطاول إليها ومتهافت عليها تجنباً لإثمها واكتساباً لثوابها • فكان مبلغ ما سامح به وأطلقه وأنفذ الأمر فيه اتباعاً لكتاب الله وسنة نبيه ﷺ في كل سنة من العين[٦] مائة ألف وستة وخمسون ألف دينار »[٧] .

ثم يعرض المنشور بعد هذه المقدمة قائمة بالمواقع التي شملها الإلغاء والمبالغ التي أعفيت من دفعها وهي : « حلب : خمسون ألف دينار ، عزاز : عن مكس جددته

---

(٤) أي احتكار توزيع الماء للري والشرب : حسين مؤنس : نور الدين ص ٣٧٤ .

(٥) ابن القلانسي : دمشق ص ٣٢٨ ــ ٣٢٩ ، سبط : مرآة ٢٢٣/٨ ، ٣٠٦ ، أبو شامة : الروضتين ١٠/١/١ ، ابن كثير : البداية ٢٧٨/١٢ .

(٦) أي المواد العينية على ما يبدو .

(٧) أبو شامة : الروضتين ٣٨/١/١ ــ ٤١ .

الفرنج على المسافرين ، عشرة آلاف دينار ، تل باشر : واحد وعشرون ألف دينار ، المعرة : ثلاثة آلاف دينار ، دمشق : عشرون ألف دينار [٨] ، حمص : ستة وعشرون ألف دينار ،حران : خمسة آلاف دينار ، سنجار : ألف دينار ، الرحبة : عشرة آلاف دينار ، عداد العرب [٩] : عشرة آلاف دينار » [١٠] .

وبعد عام واحد أصدر نور الدين منشوراً آخر في دمشق قرىء عى الناس كافة بإسقاط ضمان بعض المواد الغذائية الأساسية : كالجبن واللبن وغيرهما ، من أجل وضع حدّ لشرور الضامنين وتجاوزاتهم الدائمة ، فتلقى أهالي دمشق منشوره هذا بالترحاب وواصلوا « الأدعية له والثناء عليه ونشر محاسنه » [١١] .

وشهد عام ٥٦٤ حملة أخرى لإسقاط حشد من الغرامات والمكوس والضرائب التي لم تشملها الإجراءات السابقة ، مما كان يطلق عليه بعض المؤرخين اسم (المظالم والمؤن) [١٢] .

وعندما دخل الموصل عام ٥٦٦ هـ لم يشأ إلا أن يسقط عن أهليها ما كانوا يرزحون تحته من الغرامات والضرائب والمكوس ، وشمل ذلك أيضاً عدداً من المدن الجزرية كالخابور ونصيبين وغيرهما . وأصدر بذلك منشوراً من إنشاء العماد الأصفهاني لكي يقرأ على الناس جاء فيه: « وقد قنعنا من كنز الأموال باليسير من الحلال فسحقاً للسحت،ومحقاً للحرام الحقيق بالمقت..وتقدمنا بإسقاط كل مكس وضريبة في كل ولاية لنا بعيدة أو قريبة وإزالة كل جهة مشتبهة ، ومحو كل سنة سيئة شنيعة ،

---

(٨) يبدو ان الإسقاط السابق عام ٥٤٩ خفّض مقدار الإسقاط التالي الذي يصفه المنشور بأنه رسم سنوي كان يسميه الدمشقيون القشّة ، وكانوا يرغمون على دفعه رغم سوء أحوالهم .

(٩) ربما يكون المقصود بهم المضارب العربية في منطقة الفرات .

(١٠) أبو شامة : الروضتين ١/١/٣٨ ـ ٤١ وانظر ابن العديم : زبدة ٣٠٨/٢ .

(١١) ابن القلانسي : دمشق ص ٣٥٢ ـ ٣٥٣ .

(١٢) ابن العديم : زبدة ٣٢٥/٢ .

وإحياء كل سنة حسنة، وانتهاز كل فرصة في الخير ممكنة ، وإطلاق كل ما جرت العادة بأخذه من الأموال المحظورة خوفاً من عواقبها الرديئة المحذورة ، فلا يبقى في جميع ولايتنا جور جائرجارياً .. وهذا حق الله قضيناه وواجب علينا أديناه ...»[١٣] .

ويبدو من عبارات المنشور أنه لا يقتصر على الموصل وبعض المواقع الجزرية وإنما ينسحب على كافة أرجاء الدولة لكي يسقط المزيد من الضرائب التي كانت الإجراءات السابقة قد أبقتها مؤقتاً [١٤] . يؤكد هذا ما أورده أبو شامة من أن صلاح الدين رفع في مصر، في العام نفسه ٥٦٦هـ « جميع المكوس صادرها وواردها، جليلها وحقيرها »[١٥] . ويبين ابن الأثير كيف أن المكس في مصر كان يؤخذ من كل مائة دينار خمسة وأربعون ديناراً « فأطلقها نور الدين ، وهذا لم تتسع له نفس غيره »[١٦] .

ويعود أبو شامة لكي يشير ــ في أحداث السنة التالية ٥٦٧ هـ ــ إلى أن نسخة سجل قرئت على منبر القاهرة (يوم الجمعة الثالث من صفر) بإسقاط المكوس والمظالم في مصر [١٧] ، وقد تضمّن ذلك : ما يستخرج بديوان صناعة مصر (مائة ألف دينار) ، وما يستخرج بالأعمال القبلية والبحرية (مائة ألف دينار) « وعرض عليه سياقة جرائد الدواوين في جهات المستخدمين والمعاملين لعدة سنين متقدمة ، آخرها سنة ٥٦٤ هـ فكان مبلغه ينيف عن ألف ألف دينار ، وألفي ألف أردب غلّة ، فسامح في جميع ذلك وأبطله من الدواوين وأسقطه عن المعاملين . وأنهي إليه ما يستأدى

---

(١٣) ابو شامة : الروضتين ١/٤٧٩ ــ ٤٨٠ .

(١٤) انظر ابن الأثير : الباهر ص ١٥٣ ــ ١٥٤ ، الكامل ١١/٣٦٤ ، العماد : البرق ص ٩٧ .

(١٥) الروضتين ١/٤٥٥ ــ ٤٥٦ .

(١٦) الباهر ص ١٦٦ .

(١٧) انظر نص المنشور في الروضتين ١/٥٢٢ ــ ٥٢٣ .

من الحجاج بالحجاز من المكوس فأنكره وأكبره ... وذلك بإشارة نور الدين وفي أيامه »[18] .

ويؤكد ابن العديم أن عام ٥٦٧ هـ شهد حملة شاملة أخرى من حملات نور الدين لإسقاط المظالم والمكوس ، وأن جميع ما أطلق في المرتين الأولى والثانية بلغ خمسمائة وستة وثمانين ألفاً وأربعمائة وستين ديناراً [19] ، وهو رقم يتعارض وما أورده أبو شامة في الرواية السابقة ، ولعلّ ابن العديم لم يدخِل في رقمه المبالغ المترتبة عن سنوات سابقة والبالغة مليون دينار ومليوني اردب والتي أسقطها صلاح الدين من دواوين مصر ، وأنه اكتفى بجمع الضرائب والمكوس الآنية ، وتجاوز المبالغ المترتبة عن التأثير الرجعي لبعض الالتزامات الضرائبية السابقة .

ورواية ابن العديم آنفة الذكر تجعلنا نقف بعض الوقت عند النصّ القيّم الذي انفرد به ابن واصل والذي يستعرض فيه مقادير الضرائب والمكوس التي أُسقطت في عدد من التواريخ المتقدمة ، وفي تاريخ كتابة السجل الذي نقل عنه ابن واصل : رجب عام ٥٦٧ هـ .

وقد ورد في صيغة ذلك السجل ـ بعد مقدمة طويلة نسبياً توضّح أسباب ومبررات هذا الإسقاط الشامل ـ هذه العبارات ، قبل البدء بعرض المقادير المالية الملغاة « ... وقد كان بقي من رسوم الظلم ومعالم الجور في سائر الأعمال بولايتنا ما أمرنا بإزالته الآن ، وأضفنا ذلك إلى ماكنا أسقطناه أولاً ..وسنذكر ما أزلناه من المظالم والمكوس أولاً وآخراً من سائر أعمال ولايتنا في هذا السجل من الديوان » . ثم ترد العبارة التالية : « ذكر ما أطلق من الرسوم والمؤن والمكوس والضرائب في سائر أعمال الولاية المحروسة ، شاميها وجزيرتها ، في تواريخ متقدمة وفي تاريخ هذا السجل (٥٦٧) ، ورسم إطلاق ذلك كله وتعفية آثاره .

---

(١٨) الروضتين : ٤٣٣/١ وفي عيون الروضتين ٣٤أ ـ وهو مخطوط بالمتحف البريطاني ـ تفصيل لبعض هذه المكوس الملغاة نقلاً عن ابن أبي طي : هامش ١ جزء ١ ص ٥٢٢ .

(١٩) زبدة ٣٣٤/٢ .

ومبلـغ ما يحصل من ذلـك كل سنة : خمسمائة ألف وستة وثمانون ألفاً وأربعمائة وسبعون ديناراً نقداً [٢٠] •• فمن ذلك : دمشق : خمسون ألفاً وسبعمائة وثلاثون ديناراً • تدمر : خمسمائة دينـار • صرخد : سبعمائة وخمسون ديناراً • القريتان والسخنـة (من أعمال حمص) : خمسمائـةدينار ، بانياس : ألف ومائتا دينار • بعلبك وأعمالها : ستة آلاف وتسعمائة وعشرون ديناراً•حمص وأعمالها :ستة وعشرون ألفاً وأربعمائة وعشرون ديناراً • حماة وأعمالها : ستة وعشرون ألفاً واثنان وتسعون ديناراً • حلب وأعمالها : ستة وتسعون ألفاً ومائة وستة وثمانون ديناراً • سرمين (من أعمال حلب) : ألفان وثلاثمائة وستون ديناراً • معرة النعمان : سبعة آلاف دينـار • كفر طاب (بين المعرة وحلب) : ألفا دينـار • عزاز : ستة آلاف وخمسمائة دينار • تل باشر : ألف وخمسمائة دينار• عين تاب:تسعة وثمانون ديناراً• بالس : أربعة آلاف دينـار • منبج وأعمالها : ثمانية عشر ألف دينـار وخمسمائة وستون ديناراً • بزاعة والباب ثلاثة آلاف دينار • قلعة نجم (القريبة من منبج) : ثلاثمائة دينار • قلعة جعبر : سبعة آلاف وستمائة وستة وتسعون ديناراً • الرقة : ستة وعشرون ألفـاً وسبعمائة وثلاثة وستون دينـاراً • الرهـا : ثمانيـة آلاف وخمسمائة دينار. حـران: ستة عشر ألف وستمائة واحدى وسبعـون دينـاراً • سنجار : سبعة آلاف وثمانية دنانير • الموصل وأعمالها : ثمانية وثلاثون ألفاً ومائة وستة وأربعون ديناراً • نصيبين : عشرة آلاف وأربعمائة وستة وثمانون دينـاراً • عربان (في الخابور) : خمسة آلاف وسبعمائة دينار • بطنان (في الخابور) : مائتان وخمسون ديناراً • تبنين (القريبة من بانياس) سبعمائـة وخمسـون دينـاراً • السمسمانية (في الخابور) : ألف دينار • قرقيسياء : ألفا دينار•السكير (في الخابور): مائتا دينار • ماكسين (في الخابور) : خمسة آلاف دينار • المجدل (في الخابور): ثلاثة آلاف وخمسة دنانير • الحصين (في الخابور) : ستمائة وخمسة وثلاثوندينارا

---

(٢٠) هنالك اختلاف مع رواية ابن العديم بمبلغ عشرة دنانير فقط ، ولعلها من خطأ الناسخين او المؤرخ نفسه في إحصاء المبالغ المذكورة .

الجحشية (في الخابور) مائة دينار . المحولية (في الخابور) : مائة وثلاثة وستون ديناراً . الرحبة : ستة عشر ألفاً وسبعمائة واربعون ديناراً » . وفي خاتمة المنشور ينقل ابن واصل عن معين الدين محمد ـ حفيد القيسراني الوزير ـ وهو مصدر هذا المنشور الذي حصل عليه كما يبدو من جدّه،ترد العبارة التالية: «وكل بلد من البلاد المذكورة فصّل في التوقيع جهات ما أطلق من مكوسه ، ولكنني اقتصرت على ذكر الجمل طلباً للاختصار »[٢١] . كما أن ابن واصل نفسه ينساق وراء نزعة الاختصار ، فلا يمضي في سرد قائمة معين الدين حتى النهاية ، ويختتم عرض الأرقام بقوله : «وغير ذلك ما عيّناه خوفاً من الإطالة »[٢٢] .

وفي عام ٥٦٩ هـ ، السنة التي توفي فيهـا ، قام نور الدين بحملة (تطهير) أخرى للضرائب فأسقط ما أطلق عليه (فريضة الأتبان) في بلاد الشام ،وأصدر بذلك منشوراً من إنشاء العماد الأصفهاني.وقد اطلع أبو شامة على نسخة المنشور وعلامته بخط نور الدين (الحمد لله) ، ومما جاء فيه : « وبعد : فإن من سنتنا العادلة .. وعوائد دولتنـا القاهرة : إشاعـة المعروف وإغاثـة الملهوف وإنصاف المظـلوم وإعفاء رسم ما سنه الظالمون من جائرات الرسوم . وما نزال نجدّد للرعية رسماً من الإحسان يرتعون في رياضه، ونستقرىء أعمال بلادنا المحروسة ونصفّيها من الشبـه والشوائب ، ونلحق ما يعثر عليه من بواقي رسومها الضائرة بما أسقطناه من المكوس والضرائب تقرباً إلى الله تعالى .. وقد أطلقنا جميع ما جرت العادة بأخذه من فريضة الاتبان المقسّطة على أعمال دمشق المحروسة وضياع الغوطة ومزارعها الجارية في الأملاك . وجميع ما يقسّط بعد المقاسمة من الأتبان على الضياع .. المقطعة بسائر الأعمال المذكورة...وسبيل النواب إطلاق ذلك على الدوام ، وتصفية

---

(٢١) يعلّق محقق كتاب ابن واصل على ذلك بقوله : حبذا لو كان معين الدين هذا قد اورد تفاصيل المكوس التي الغيت ، ولم يكتف بالجمـل ، فإنه كان يقـدّم للباحثين وثيقة من اندر واقيم الوثائق لدراسة هذا النوع من الضرائب في الشام قبل عصر نور الدين : بني ايوب هامش ١ ، ٢٧٩/١ .

(٢٢) بني ايوب : ٢٧١/١ ـ ٢٧٩ .

آثاره وإبطال رسمه من الدواوين ، لاستقبال سنة تسع وستين وما بعدها على تعاقب الأيام والسنين »[23] .

ويلخص العماد الأصفهاني الوضع الضرائبي في السنة التي توفي فيها نور الدين بأنه لم يبق حينذاك من الضرائب « سوى الجزية والخراج .. وما يحصل من قسمة الغلات على قوائم المنهاج »[24] ، ولعل المراد بالعبارة الأخيرة فريضة الزكاة ، ولعله يشير بتكراره المعهود هذا ، إلى الأسلوب العادل في جباية الجزية والخراج . ومهما يكن من أمر فإن رجلاً ملتزماً كنور الدين ما كان يتهادن أبداً في فريضة شرعية أساسية كالزكاة . ويؤكد كل من ابن الأثير وأبي شامة ما ذهب إليه العماد بروايتين تحملان الدلالة ذاتها . فأما أولاهما فتقول : « إن نور الدين لم يترك في بلد من بلاده ضريبة ، لا مكساً ولا عشراً ، بل أطلقها جميعاً في بلاد الشام والجزيرة والموصل وديار مصر وغيرها مما حكم عليه »[25] ، وأما ثانيتها فتقول : « استدعى نور الدين يوماً موفق الدين خالد (القيسراني) وقال : تعال .. اقعد واكتب بإطلاق المؤن والمكوس والأعشار واكتب للمسلمين : أنني قد رفعت عنكم ما رفعه الله عنكم وأثبت عليكم ما أثبته الله عليكم . فكتب موفق الدين توقيعاً »[26] .

— ٣ —

لقد بلغ الرجل في موقفه من الرسوم والضرائب حدّ الحساسية المفرطة التي كانت تقضّ مضجعه وتقلق ضميره .. فكان يتهجد في أعماق الليل ويرفع يديه إلى السماء باكياً متضرعاً ويقول : ارحم العشّار المكّاس . ويحاول أن يبرر ــ أمام الله وأمام الناس ــ أخذ الضرائب فيقسم : والله ما أخرجناها إلا في جهاد عدو ..

---

(٢٣) الروضتين ١/٥٥٠ ــ ٥٥١ وانظر : العماد : البرق ص ١٤٣ .

(٢٤) البرق ص ١٤٣ .

(٢٥) الباهر ص ١٦٦ .

(٢٦) الروضتين ١/١/٣٧ ــ ٣٨ .

ويتقدم إلى الخليفة العباسي يطلب منه أن يجعله المسلمون جميعاً في حل" مما كان قد أخـذ من أموالهـم ، فيستجيب الخليفـة « ويجعـل الوعـاظ على المنابر ينادون بذلك »[٢٧] .

والحادثة التي يقصّها علينا ابن الأثير في الباهر[٢٨] ، تحمل دلالتها العميقة في هذا الموضوع : الضمير الحساس الذي يشفق من شبهة الظلم الاجتماعي ، أياً كان حجمه ، ويرفض أن يدخل خزينته درهم واحد بغير حق خشية أن يسأل عنه يوم القيامة ويحمل وزره هناك .. هذا بينما كانت تنصب" في خزائن أخرى دماء الناس ودموعهم وعرقهم دونما رادع من عقاب أو وازع من ضمير .. « حكى لي مـن أثق به ـ يقول ابن الأثير ـ أنه دخل يوماً إلى خزانة المال فرأى فيها مالاً" أنكره . فسأل عنـه فقيل : إن القاضي كمال الدين أرسله ، وهو من جهـة كذا ، فقال : إن هـذا المال ليس لنـا ولا لبيت المال في هذه الجهـة شيء . وأمر بإعادته إلى كمال الدين ليرده إلى صاحبـه ، فأرسله متولي الخزانـة إلى كمال الدين ، فرده إلى الخزانة مرة أخرى وقال : إذا سأل الملك العادل عنـه فقولوا له عني : إنـه له . فدخل نور الدين إلى الخزانة مرة أخرى فرآه فأنكر على النواب وقال : ألم أقل لكم يعاد هذا المال على أصحابه ؟ فذكروا له قول كمال الدين فرده إليه وقال للرسول : قل لكمال الدين: أنت تقدر على حمل هذا المال . وأما أنا فرقبتي دقيقة لا أطيق حمله والمخاصمة عليه بين يدي الله تعالى . يعاد قولاً" واحداً » .

إن هذا الموقف ينقلنا بالضرورة إلى جانب من أهم جوانب سياسة نور الدين الاجتماعية والمالية ،ذلك هو حرصه العجيب على الأموال العامة .. أموال الأمـة التي هي حصيلة كدّها وكدحها ودمعها وعرقها .. سواء كان هذا المال ملكية خاصة في أيدي الناس أم عامة في أيدي الدولة .

وهذه المسألة الخطيرة تبدأ في برنامج نور الدين الاجتماعي مـن المحـور الأساسي لسياسات الحكام والقادة .. من الذات .. من القدرة الأخلاقيـة على

---

(٢٧) أبو شامة : الروضتين ١/١/٢٨،٣٨ ، ابن قاضي شهبة : الكواكب ص٤٣ .

(٢٨) ص ١٦٧ .

التجرد والنزاهة ومجابهة إغراء المال والسلطان •• ثم تسلك طريقها ، بعد نجاح عملية (التغيير والممارسة الذاتية) صوب الخارج ، لكي تطبع اليد الأخلاقية الملتزمة بصماتها على صفحة العالم ، تماماً كما فعل الرسول عليه السلام وكما فعل خلفاؤه الراشدون •• وعمر بن عبد العزيز •••وعشرات غيرهم من قادة الإسلام في تاريخه المضني الطويل •• وها هو نور الدين محمود يتسلم الإشارة الصعبة ويواصل الطريق •• ولقد تحدثنا طويلاً عن ممارسته الذاتية هذه تجاه المال والاغراء لدى تحليلنا لشخصيته •• ولنا الآن أن نتلمس بعض ملامح ومعطيات موقفه (الخارجي)، — إذا صح التعبير — تجاه المال العام ، قدر ما يتسع له الموضوع •

في عام ٥٥١ هـ كُشف أحد كبار موظفي دمشق : أبو سالم بن همام الحلبي المشرف على الديوان •• بدأت المسألة بشائعات عن تصرّفات الرجل وأنه يستغل منصبه للاثراء الشخصي ، فجرى معه التحقيق وثبتت صحة الشائعات •• فما كان من نور الدين إلاّ أن أمر بالقبض عليه حالاً واعتقاله في دمشق ريثما يصدر أمرٌ جديد بعد التحقيق الكامل عن التهمة الموجهة إليه • ثم ما لبث هذا الأمر أن صدر : أن تحلق لحية الرجل ويركب حماراً مقلوباً ، وخلفه مَن يعلوه بالدرة ، وأن يطاف به في أسواق دمشق بعد تسويد وجهه ، وينادى عليه : هذا جزاء كل خائن • وأقام الرجل في الاعتقال أياماً ثم صدر أمراً بنفيه إلى حلب « ••• فمضى على أقبح صفة من لعن الناس ونشر مخازيه وتعديد مساويه »[٢٩] •

وقد سبق وأن مرّ بنا كيف أن سعد الدين كمشتكين ، نائب نور الدين في الموصل،أخذ من رجل ألف دينار بعلّة عللها،فتقدم الرجل بظلامته إلى العماد الأصفهاني « فأمرني نور الدين — يقول العماد — بردها عليه • فأجاب كمشتكين : ما ينفعني إلا كتابه وتوقيعه، فأنهيت ذلك إليه فقال: ما معناه؟ أما يعلم كمشتكين أنك كاتبي وأميني ولا تكتب إلا بأمري ؟ فإن خالف كتابك إليه قلعت عينيه » وحينذاك أسرع كمشتكين فردّ على الرجل الألف دينار[٣٠].

---

(٢٩) ابن القلانسي : دمشق ص ٣٣٦ .

(٣٠) العماد : البرق ص ١٣٢ — ١٣٣ .

ويوماً حضر إليه جماعة من التجار وشكوا إليه أن القراطيس (أجزاء الدينار)، كان كل ستين منها بدينار، فصار سبعة وستون بدينار، وأنها تتعرض باستمرار للزيادة والنقصان مما يلحق بهم الكثير من الخسائر . وأشاروا عليه أن يضرب الدينار باسمه وتكون المعاملة بالدنانير بدلاً من القراطيس . فسكت وقتاً طويلاً ثم قال : إذا ضربت الدينار وأبطلت المعاملة بالقراطيس فكأني خربت بيوت الرعية، فإن كل واحد منهم عنده عشرة آلاف وعشرون ألف قرطاس، إيش يعمل بها ؟ فيكون ذلك سبباً لخراب بيته !! ورفض - من ثم - الاستجابة لمطلب التجار[٣١] .

وعندما دخل شيزر عام ٥٥٢ هـ - بعد أن خربتها الزلازل - لم يكن لينسى أن هنالك مالاً كثيراً خلفه أميرها السابق وأن عليه المطالبة به والبحث عنه لأنه أصبح جزءاً من أموال الأمة العامة . ويذكر ابن العديم كيف أنه سأل زوجة الأمير عن هذا المال وهددها، وكيف أنها ذكرت له أن الدار سقطت عليها وعليهم وأخرجت هي حية من دونهم وأنها لا تعلم بشيء، وإن كان ثمة شيء فهو تحت الأنقاض[٣٢] . ولا ندري إن كان المال قد عثر عليه أم لا ؟ ولكن الأهم من هذا هو دلالة الموقف نفسه !!

ويحدثناأبو طاهر الحموي الفقيه فيقول : كنت عند نور الدين في دار العدل بدمشق وقد أخرج جريدة (سجلّ) خراج الأملاك فجعل ينظر فيها، فلما انتهى إلى ذكر خراج معرة النعمان قال : إني عزمت على انتزاع أملاك هذه المعرة من أيدي أهلها، فقد رفع إليّ الخبر من الثقاة أن جميع أهل المعرة يتقارضون الشهادةفيشهد أحدهم لصاحبه في دعوى ملك ويشهد له هذا في دعوى أخرى، وإن الملك الذي بأيديهم إنما حصل لهم بهذا الطريق (وكانت معرة النعمان قد سقطت بأيدي الصليبيين حيناً من الدهر ثم استعادها المسلمون مما سبب ضياع المستندات الخاصة بالملكية)، فقلت له : أيها الملك إن الله أوجب عليك العدل في رعيتك فانظر واكشف وتوقف في الأمور إذا رفعت إليك، فإن أهل المعرة خلق كثير، كيف تستحلّ

---

(٣١) ابن قاضي شهبة : الكواكب ص ٢٤ .

(٣٢) زبدة ٣٠٧/٢ .

تواطؤهم على شهادة الزور وانتزاع الأملاك من أربابها بمجرد هذا القول ؟ لا يجوز!!
فأطرق نور الدين وقتاً طويلاً ثم قال : إني أمسكها عليهم ثم أكشف عنها بعد ذلك .
والتفت إلى كاتبه قائلاً : اكتب إلى الوالي بالمعرة ليمسك جميع الملك ريثما يستجمع البينات في ذلك (٣٣) .

وعندما قرر نور الدين بناء الجامع الكبير في الموصل عام ٥٦٦ ليكون مسجداً جامعاً للمصلين ومدرسة كبيرة للدارسين ، لم يتسرع في اختيار الرجل الذي سيتولى أمر الإشراف على بنائه ، لا سيما وأنه عائد إلى حلب ، والموصل بعيدة عن رقابته المباشرة .. وإنما بحث عن المشرف الأمين الذي يطمئن إليه فكان عمر الملاّء .. الرجل الصالح الكادح كما يصفه المؤرخون . ويحدثنا العماد الأصفهاني ، شاهد العيان ، عن الرجل فيقول : « إنما سمي بذلك لأنه كان يملأ تنانير الجص بأجرة يتقوى بها » وكان يهب كل ما يصل إليه ولا يستبقي لنفسه شيئاً .. وكان العلماء والفقهاء والأمراء يزورونه في زاويته ويتبركون بهمته . وكان نور الدين من أخص محبيه ، يستشيره في حضوره ويكاتبه في مصالح دولته (٣٤) . هذا وقد أُنفقت على الجامع الكبير أموال كثيرة ، واشترى عمر الملاء الأملاك المحيطة به من أصحابها بأوفر الأثمان . وعندما تم إنشاؤه وحضر نور الدين لافتتاحه عام ٥٦٨ تقدم إليه عمر الملاء بدفاتر الحسابات التي تضمنت تفاصيل الصرف بدقة بالغة ، رفض نور الدين تدقيقها لثقته العميقة بنزاهة الرجل ... عرف كيف ينتقيه لهذه المهمة أول مرة .. فاستراح إلى النتيجة (٣٥) .

وحكى معين الدين محمد حفيد القيسراني وزير نور الدين المعروف قال:
انكسر على ضامن دار الزكاة المعروف بابن شمام مال جمّ ، فحبس ، فباع ما كان يملكه من عقار بما قيمته ثمانية آلاف دينار وحمله إلى الخزانة ، ولكنه ظل في الحبس مطالباً بما بقي في ذمته (٣٦) .

---

(٣٣) ابن قاضي شهبة : الكواكب ص ٧ ـ ٧١ .
(٣٤) أبو شامة : الروضتين ١/٨٠ .
(٣٥) انظر ابن الأثير : الكامل ١١/ ٣ .
(٣٦) ابن واصل : بني ايوب ١/٦٩-١ .

وقد أنشأ نور الدين مؤسسته الشهيرة (دار العدل) في دمشق لكي تكون محكمة عليا ـ كما رأينا ـ توقف كبار الموظفين عن تجاوز صلاحياتهم ، وعن اعتمادها للكسب الخاص على حساب أموال الناس وممتلكاتهم . يتحدث ابن الأثير عنهم بأنهم « اقتنوا الأملاك فأكثروا ، وتعدى كل واحد منهم على من يجاوره في قرية أو غيرها ؛ فكثرت الشكوى إلى قاضي القضاة كمال الدين ، فأنصف بعضهم من بعض ولم يقدم على الإنصاف من أسد الدين شيركوه ، فأنهى الحال إلى نور الدين فأمر حينئذ ببناء دار العدل . فلما سمع شيركوه ذلك أحضر نوابه وقال لهم : امضوا إلى كل من بينكم وبينه منازعة في ملك فافصلوا الحال معه ، وارضوه بأي شيء أمكن ولو أتى ذلك على جميع ما بيدي . فقالوا له : إن الناس إذا علموا هذا اشتطوا في الطلب . فقال : خروج أملاكي من يدي أسهل عندي من أن يراني نور الدين بعين أني ظالم . . فخرج أصحابه من عنده وفعلوا ما أمرهم ... »[٣٧] . ولقد توفي أسد الدين شيركوه هذا ، رجل نور الدين الأوّل، وفاتح مصر ، ولم يترك بعد موته سوى دنانير قليلة .

وقد مرّ بنا ـ كذلك ـ كيف أن نورالدين كان يجلس بنفسه في هذه الدار يومين أو ثلاثة للحكم في القضايا المختلفة وحماية حقوق المواطنين كافة، مسلمين كانوا أم نصارى أم يهوداً .. ورجالاً كانوا أم نساءً ، وأفراداً عاديين أم أمراء وموظفين كباراً !! كما مرّ بنا قوله المألوف الذي كان يردده على أصحابه : « حرام على كل من صحبني ألاّ يرفع إليّ قصة مظلوم لا يستطيع الوصول إليّ »[٣٨] .

وهنا بالذات ترتبط مسألة العدل الاجتماعي وحماية الأموال العامة ، بالعدل في مفهومه الشامل وآفاقه الرحيبة .. وقد تحدثنا عنه هناك في الفصل الثاني ورأينا كيف كان موقف نور الدين محمود منه .

---

(٣٧)ابن الأثير : الباهر ص ١٦٨ .

(٣٨) سبط : مرآة ٣٢٣/٨ .

- ٤ -

كان نور الدين ــ بحق ــ صديق الفقراء !! كان يحبهم ، ويصادقهم ، ويزورهم في مساكنهم ، ويحترمهم ، ويمنحهم ، ويحميهم .. فكانوا ــ في المقابل ــ قاعدته الشعبية الحقيقية التي تحفظه وتقاتل من ورائه في ميادين السلم والحرب على السواء .

ليس هذا فحسب بل إنه كان ــ كما سبق وأن مر بنا ــ يعيش تجربتهم ، بل يتجاوزها إلى مواقع أكثر مسغبة وشظفاً .. ونحن لا زلنا نذكر رواية ابن كثير : « كان نور الدين عفيف البطن والفرج مقتصداً في الإنفاق على أهله وعياله في المطعم والملبس ، حتى قيل : إنه كان أدنى الفقراء في زمانه أعلى نفقة منه ، من غير اكتناز ولا استئثار بالدنيا »(٣٩) .

يجمع المؤرخون على أن أحداً من الأمراء لم يكن يجلس في مجلس نور الدين بلا إذن ، سوى نجم الدين أيوب ، لتقدمه في العمر كما يبدو ، وأما الأمراء الآخرون: شيركوه وابن الداية نائب حلب وغيرهما ، فكانوا يقفون بين يديه !! ومع هذا فكان إذا دخل أحد من الفقهاء أو الفقراء قام له ومشى خطوات وأجلسه معه على سجادته في وقار وسكون ، وأقبل عليه بحديثه كأنه أقرب الناس إليه ، وإذا أعطى أحداً منهم شيئاً كثيراً يقول : هؤلاء جند الله وبدعائهم ننصر على الأعداء ، ولهم في بيت المال حق أضعاف ما أعطيهم !! فإذا رضوا منا ببعض حقهم فلهم المنة علينا (٤٠) .. فهي ليست المنة إذن من الحاكم على المحكوم ، وهو ليس عطاء التفضّل من الذين يقدرون للذين لا يقدرون .. ولكنه الحق .. وليس الحق كله ، إنما هو جزء مما يستحقه الفقراء في المال العام ، فهو يعيده إليهم فإذا قنعوا ببعضه فلهم المنة عليه .. وإنها لالتفاتة نفسية ليست غريبة على ذكاء الرجل وتصوره للمسألة الاجتماعية .. إنه هنا يذكرنا برسول الله ﷺ وخلفائه الراشدين رضي الله عنهم .

---

(٣٩) البداية ٢٧٨/١٢ .

(٤٠) ابن كثير : البداية ٢٨١/١٢ ، ابن الأثير : الباهر ص ١٧٢ ــ ١٧٣ .

فليس بمستغرب إذن أن يغدو هؤلاء جيشه المعنوي المعبّأ الذي يضرب بسهام لا تخطىء .. قال له أصحابه يوماً وقد رأوا ما تستنزفه مصارف الجهاد من أموال الدولة : إن لك في البلاد إدرارات كثيرة وصلات عظيمة للفقهاء والفقراء والصوفية والقراء ، فلو استعنت بها الآن لكان أمثل . فأجابهم غاضباً : والله إني لا أرجو النصر إلاّ بأولئك فإنما ترزقون وتنصرون بضعفائكم . كيف أقطع صلات قوم يقاتلون عني وأنا نائم في فراشي بسهام لا تخطىء ، وأصرفها إلى من لا يقاتل عني إلاّ إذا رآني بسهام قد تخطىء وقد تصيب ؟ ثم إن هؤلاء القوم لهم نصيب في بيت المال أصرفه إليهم فكيف أعطيه لغيرهم[٤١] . وهو في أعقاب هزيمة منيت بها قواته عام ٥٥٨ هـ يكتب إلى زهاد بلاده وعبادها يذكر لهم ما نال المسلمين من القتل والأسر ويستمد منهم الدعاء وأن يسعوا للقيام بحملة واسعة لحث المسلمين على الجهاد[٤٢] .

ويبدو هذا التعاطف بين نور الدين وفقراء أمته وكادحيها ، أكثر ما يبدو لدى هجماته المتكررة على دمشق ، كما سبق وأن مرّ بنا ، فكثيراً ما كان يخرج إليه فقراء دمشق وضعفاؤها يلتمسون عطاءه فلم يكن يخيب أحداً منهم [٤٣] ، وكثيراً ما كفّ أيدي أصحابه عن العبث والإفساد في ضياع المنطقة وبساتينها خوفاً على كدح الفلاحين من أن يداس ويتفتت تحت أقدام المقاتلين [٤٤] . وكثيراً ما أعلن أنه إنما جاء لحماية فلاحي المنطقة « الذين أخذت أموالهم وتشتت نساؤهم وأطفالهم بيد الفرنج .. وعدم وجود الناصر لهم » فلا يسعني ــ يقول نور الدين في رسالة بعث بها إلى زعماء دمشق ــ « مع ما أعطاني الله وله الحمد ، من الاقتدار على نصرة المسلمين وجهاد المشركين وكثرة المال والرجال ، ولا يحلّ لي القعود عنهم والانتصار لهم مع معرفتي بعجزكم عن حفظ أعمالكم والذبّ عنها والتقصير الذي دعاكم

---

(٤١) الباهر ص ١١٨ ، الكامل ٢٩٦/١١ ، ابن العديم : زبدة ٣١٤/٢ ، ابن خلكان : وفيات ١٨٧/٥ ــ ١٨٨ ، سبط : مرآة ٢٤٤/٨ ــ ٢٤٥ .

(٤٢) ابن العديم : زبدة ٣١٥/٢ .

(٤٣) ابن القلانسي : دمشق ص ٣١٠ .

(٤٤) نفسه ص ٣٠٨ ــ ٣٠٩ .

إلى الاستصراخ بالافرنج على محاربتي وبذلكم لهم أموال الضعفاء والمساكين من الرعية ظلماً لهم ، وهـذا مالايرضي الله تعالى ولا أحداً من المسلمين .. »(٤٥) . وكانت المكاتبات جارية بينه وبين أهالي دمشق الذين كانوا يرون فيه رجل العدل والديانة والإحسان . وتم الاتفاق على أن ينقلبوا على زعامتهم الطاغية وأن يفتحوا الطريق لنور الدين (٤٦) . ويحدثنا ابن القلانسي كيف أن بعض قطاعي الخشب بادر بفأسه إلى الباب الشرقي فكسر أغلاقه وفتحه فدخلت قوات نور الدين ، حيث قرىء منشوره بإزالة كثير من المظالم والمكوس ، فضجّ الناس « من التنّاء والفلاحين والمتعيّشين » بالدعاء إلى الله سبحانه بدوام أيامه (٤٧) .

وفي مؤسساته القضائية كان نور الدين يأمر بإزالة الحجاب « حتى يصل إليه الضعيف والقوي والفقير والغني ، فيكلمهم بأحسن الكلام ويستفهم منهم بأبلغ النظام حتى لا يطمع الغني في دفع الفقير بالمال ، ولا القوي في دفع الضعيف بالقال . ويحضر في مجلسه العجوز الضعيفة التي لا تقدر على الوصول إلى خصمها ولا المكالمة معه فيأمر بمساواتها به ، فتغلب خصمها طمعاً في عدله ويعجز الخصم عن دفعها خوفاً من عدله ، فيظهر الحق عنده ويجري الله على لسانه ما هو موافق للشريعة »(٤٨) .

والقوائم الإدارية في دولة نور الدين تشير إلى كثير من الأسماء التي لمعت في عصره ولم يكن أصحابها سوى خدم ومماليك وفقراء ... كان نائبه في قلعة الموصل : سعد الدين كمشتكين أحد خدمه (٤٩) ، وكان قايماز الحراني والي حران مملوكاً له(٥٠) ، وتربع على دست الحكم في الرها خادم أسود لنور الدين(٥١) ، وكان

---

(٤٥) ابن القلانسي ص ٣٠٩ .
(٤٦) سبط : مرآة ٢٢٣/٨ ، ابن العديم : زبدة ٣٠٤/٢ ـ ٣٠٥ .
(٤٧) ابن القلانسي : دمشق ص ٣٢٧ ـ ٣٢٩ .
(٤٨) أبو شامة : الروضتين ٣٣/١/١ .
(٤٩) ابن الأثير : الباهر ص ١٧٥ ـ ١٧٦ .
(٥٠) ابن الأثير : الكامل ٤٠٧/١١ .
(٥١) نفسه .

يتولى قلعة حلب في السنة التي توفي فيها نور الدين : جمال الدين شاذبخت الخادم الهندي عتيق نور الدين [٥٢] •• وقد رأينا كيف أن نور الدين اختار للاشراف على بناء الجامع الكبير في الموصل شيخ زهادها (عمر الملاّء) الذي كان يتقوت من ملء تنانير الجص •• ليس هذا فحسب بل إن نور الدين يذهب إلى الحدّ الأقصى في مشاركته فقراء دولته وتعاطفه معهم فيستقرض من عمر الملاء في كل رمضان مايفطر عليه ، وكان الرجل الزاهد يبعث إليه بفتيت ورقاق فيفطر عليه جميع رمضان[٥٣] •

— ٥ —

إلا أن نورالدين لم يقف عند هذا الحد في تعامله مع أبناء أمته ، بل سعى إلى تقديم أوسع الخدمات لهم ، وإلى جعل مؤسسات الدولة أدوات صالحة لتنفيذ هذه الخدمات ومدّها إلى أبعد الآفاق ، فيما يعدّ ــ بحق ــ قمة اجراءات نور الدين الاجتماعية •

لقد امتدت هذه الخدمات إلى مساحات النشاط الاجتماعي كافة ، وسعت إلى تغطية شتى الحاجات : ابتداء من قضايا المسكن والملبس والمأكل والجنس ، وانتهاءً بقضايا الروح ، مروراً بالحاجات الفكرية والصحية والعمرانية والانتاجية •• وقد أخذت هذه الخدمات أساليب وأشكالاً مختلفة ، فهي حيناً تأتي عن طريق التوزيع المباشر للمال وحيناً عن طريق (الإعانة) على تلبية حاجة معينة أو الفكاك من الأسر وحيناً ثالثاً عن طريق انشاء مؤسسات ومرافق : كالمارستانات والملاجىء ودور الأيتام والمدارس ودور الحديث والخانات والربط والجسور والقناطر والقنوات والأسواق والحمامات والطرق العامة والمخافر والخنادق والأسوار •• وحيناً رابعاً تجيء عن طريق نظم (الوقف) التي شهدت في عصر نور الدين قمة نضجها وتنظيمها وازدهارها •• وحيناً خامساً عن طريق عدد من الاجراءات التنظيمية التي استهدفت تحقيق الضمان الاجتماعي لقطاع ما من قطاعات الأمة •

---

(٥٢) ابن العديم : زبدة ٣/٩ .

(٥٣) ابن كثير : البداية ١٢/٢٨٢ .

ولنا الآن أن نتتبع بعض نماذج هذه الخدمات بصيغها المختلفة لنرى إلى أي حدّ كان نور الدين يرى في (الدولة) جهاز خدمة وانجاز ، لا أداة قسر واستنزاف .. فزمانه كما يقول أبو شامة « مصروف إلى مصالح الناس والنظر في أمور الرعية والشفقة عليهم »[٥٤] .

بنى نور الدين المدارس ، وأنشأ الخانقاهات وأكثر منها في كل بلد ، وأوقف عليها الوقوف الكثيرة ، وأمر ببناء الربط والخانات في الطرقات [٥٥] ، وأوقف أوقافاً على المرضى والمجانين وبنى المكاتب لليتامى ، وأوقف على سكان الحرمين ، وأقطع أمراء العرب القطائع لئلا يتعرضوا للحجاج ، وأمر بإكمال سور المدينة ، وأجرى إليها العين التي تأخذ من جبل (أحد) ، وأقام الجسور والقناطر وجدد كثيراً من قنيّ السبيل ، وأوقف كتباً كثيرة[٥٦] . وعندما دخل دمشق عام ٥٤٩ هـ أحسن إلى أهلها وبنى لهم المدارس والمساجد والربط ، ووسع لهم الطرق على المارة كما وسع الأسواق ، وأحاط السور على حارة اليهود وكان خراباً ، وأغلق عدداً من الأبواب وفتح أخرى .. وبنى في دمشق مارستاناً لم يبن بالشام قبله ولا بعده مثله ، وأوقف وقفاً على من يعلّم الأيتام الخط والقراءة ، وجعل لهم نفقة وللمجاورين بالحرمين نفقة لطعامهم وكسائهم . وله أوقاف دائرة على جميع أبواب الخير ، وعلى الأرامل والمحتاجين . وكان الجامع داثراً فولى إدارته القاضي كمال الدين الشهرزوري ، فأصلح أموره وأضاف إلى أوقافه المعلومة تلك التي لا يعرف واقفوها .. وسمى مال المصالح ، ورتّب عليه لذوي الحاجات والفقراء والمساكين والأرامل والأيتام وغيرهم[٥٧] .. وبنى الخانات في الطرق فأمن الناس وحفظت أموالهم وباتوا في

---

(٥٤) الروضتين ٣٤/١/١ .

(٥٥) العماد : البرق ص ٥٦ .

(٥٦) سبط : مرآة ٣٠٦/٨ ، ابو شامة : الروضتين ١٠/١/١ .

(٥٧) ابن كثير : البداية ٢٧٨/١٢ ، ابن قاضي شهبة : الكواكب ص ١٧ ، ابن شداد : الاعلاق (قسم حلب) ص ٨٥ .

الشتاء في وقاية من البرد والمطر . .وأقام الأبراج على الطرق العامة بين بلادالمسلمين وخصومهم الصليبيين وجعل فيها من يحفظها ، ومعهم الحمام الزاجل ، فإذا رأوا أحداً من الأعداء أرسلوا الطيور فأخذ الناس حذرهم واحتاطوا لأنفسهم فلا يبلغ العدو منهم غرضاً [٥٨] .. كما بنى وجدّد أسوار معظم مدن الشام وقلاعها : كدمشق وحلب وحماة وحمص وبعرين وشيزر ومنبج وغيرها ، وحصّنها وأحكم بناءها ، وأخرج عليها من الأموال ما لا تسمح به النفوس»[٥٩].

ويحدثنا ابن جبير كيف أنه شاهد في دمشق لدى زيارته إياها عام ٥٨٠ نحو عشرين مدرسة ، ويقف طويلاً لكي يصف لنا ما شاهده في البيمارستان الكبير الذي أنشأه نور الدين : القومة وبأيديهم السجلات المحتوية على أسماء المرضى والنفقات التي يحتاجون إليها من الأدوية والأغذية وغير ذلك .. والأطباء يبكرون إليه كل يوم ويتفقدون المرضى ويأمرون بإعداد ما يصلحهم من الأدوية والأغذية حسبما يليق بكل إنسان منهم . وللمجانين أيضاً ضرب من العلاج وهم في السلاسل موثقون[٦٠]. ويصفه ابن كثير بأنه ليس له في البلاد نظير ، ومن شروطه أنه مقصور على الفقراء والمساكين ، وإذا لم تتوفر بعض الأدوية التي يعزّ وجودها إلاّ فيه فلا يمنع منه الأغنياء[٦١] ... وقد زاره ابن الأثير كذلك وقال : إن نور الدين قد أكثر من بناء البيمارستانات في البلاد إلاّ أن أعظمها وأكثرها خرجاً ذلك الذي بناه في دمشق[٦٢].

ويصف لنا ابن أبي أصيبعة[٦٣]، كيف كان مدير الأمور الطبية في البيمارستان : أفضل الدولة ابن المظفر الباهلي ، يدور على المرضى فيه ويقوم بفحصهم بنفسه، وبين

---

(٥٨) ابن الاثير : الباهر ص ١٧١ .

(٥٩)نفسه ١٧٠.

(٦٠) رحلة ص ٢٥٥ ـ ٢٥٦ .

(٦١) البداية ٢٨١/١٢ ، وانظر ابا شامة : الروضتين ٢١/١/١ .

(٦٢) الباهر ص ١٧٠ ـ ١٧١ .

(٦٣) طبقات الأطباء ص ٦٢٨ .

يديه الأطباء الصغار والمضمدين والخدام ، وكان إذا ما كتب دواءً لمريض ما لا يؤخر عنه .. وكان يخصص ـ بعد ذلك ـ ثلاث ساعات في اليوم يجلس خلالها في مكتبة البيمارستان الطبية التي أوقف نور الدين كتبها، والتي كانت تتضمّن جملة كبيرة من الكتب المتخصصة ، ويجتمع إليه هناك الأطباء والمشتغلون بالعلم فيجلسون بين يديه ثم تجري مباحث وقراءات طبية يقوم بها التلاميذ . ولا يزال معهم في مباحث واشتغال ونظر في الكتب حتى تمضي الساعات الثلاث إلى نهايتها فيغادر البيمارستان إلى بيته لكي ما يلبث أن يستأنف نشاطه المعتاد في اليوم التالي . وقد لعبت هذه المؤسسة دوراً مهماً في تنشيط الحركة الطبية في دمشق ، فخرجت عدداً من مشاهير الأطباء ، كما جذبت إلى بلاد الشام عدداً آخر منهم من مشارق الأرض ومغاربها[٦٤] .

ويلي هذا البيمارستان (المركزي) في الأهمية بيمارستان حلب الذي يصفه ابن واصل بأنه كان هو الآخر في غاية الحسن[٦٥] . وتذكر إحدى الروايات أن نورالدين تقدم إلى أطبائه أن يختاروا من حلب أصحّ بقعة في هوائها ، لإقامة البيمارستان عليها فذبحوا خروفاً وقطعوه أربعة أقسام وعلقوها بأرباع المدينة ليلاً ، فلماأصبحوا وجدوا أحسنها رائحة الربع الذي يقع فيه باب أنطاكية فبنوا البيمارستان فيه، وأوقف نور الدين عليه قرية وعدداً من المزارع والطواحين والدكاكين[٦٦] .

ويصف ابن جبير المدرسة التي بناها نور الدين في دمشق .. ثم يقول : « أما الرباطات التي يسمونها الخوانق فكثيرة ، وهي برسم الصوفية ، وهي قصورمزخرفة يطّرد في جميعها الماء على أحسن منظر يبصر »[٦٧] . ويحدثنا كيف أنه ما من خان عبر الطريق إلى دمشق ، إلاّ وفيه ماء جارٍ يتسرب إلى سقاية وسط الخان كأنها

---

(٦٤) انظر الفصل الرابع من هذا البحث .

(٦٥) بني أيوب ١/٢٨٣ .

(٦٦) ابن الشحنة : حلب ص ٢٣٠ ـ ٢٣١ وعن المارستانات النورية انظر كذلك :
Elisseeff : Nur Ad-din, pp. 838 - 842 .

(٦٧) رحلة ص ٢٥٦ .

صهريج (٦٨) ، وإن الحمامات تنتشر في معظم قرى دمشق (٦٩) ، وأن في دمشق وحدها وما يحيط بها من أرباض ما يقرب من مائة حمام وأربعين داراً للوضوء يجري الماء فيها كلها « فليس في هذه البلاد كلها بلدة أحسن منها للغريب لأن المرافق بها كثيرة » (٧٠) .وثمة مشهد في أطراف دمشق يدعى الربوة ، حوّل إلى ما يشبه الفندق المجاني ، وأوقفت له الأوقاف الكثيرة فمنها ما خصص لاطعام البائتين فيه من الزوّار، ومنها ما خصّص للأغطية ، ومنها ما خصص للمشرف وسائر العمال والخدم كرواتب تدفع لهم في آخر كل شهر . وما من خدمة من الخدمات إلاّ وقد خصص لها قدر معلوم من المال « وهي خطة ــ يقول ابن جبير ــ من أعظم الخطط..والغريب المحتاج هنا ــ إذا كان على طريقة الخير ــ مصون محفوظ غير مريق ماء الوجه »(٧١) .

وقد شهدت ــ حلب ــ كذلك نشاطاً واسعاً في بناء الحمامات العامة(٧٢)،وحفر القنوات المتشعبة ، وإقامة أحواض الماء لتغطية حاجة المحلات المختلفة هناك(٧٣) .

وعندما دخل نور الدين الموصل عام ٥٦٦ هـ وجدها بأمسّ الحاجة إلى جامع كبير يكون بمثابة مؤسسة مركزية للعبادة والتعليم ، فبحث بنفسه عن موضع مناسب في وسط المدينة ، وأمر أن يضاف إلى الأرض التي اختارها ما يجاورها من الدور والحوانيت « على أن لا يؤخذ منها شيء بغير اختيار أصحابه » وأن يعوضوا عنها تعويضاً عادلاً .. وولى الشيخ عمر الملاء أمر الإشراف على البناء ، فأنفقت عليه أموال كثيرة قيل أنها بلغت ستين ألف دينار ، وقيل ثلاثمائة ألف دينار .. ومهما يكن من أمر فإن الجامع تم بناؤه عام ٥٦٨ هـ وقدم نور الدين فصلى فيه ، وأوقف عليه

---

(٦٨) رحلة ص ٢٣٣ .

(٦٩) نفسه ص ٢٤٩ .

(٧٠) نفسه ص ٢٦١ وانظر ابن شداد : الاعلاق (قسم دمشق) ص ٣٨ .

(٧١) ابن جبير : رحلة ص ٢٥٠ .

(٧٢) انظر ابن شداد : الاعلاق (قسم حلب) ص ٢٩٢ ــ ٢٩٩ .

(٧٣) انظر المصدر السابق ص ١٤٤ .

بعض قرى وضياع قريبة من الموصل ، ورتب مدرّسه وخطيبه ومؤذنيه ، وأمر باستكمال أثاثه [٧٤] . ومنذ ذلك الوقت والجامع النوري الكبير في الموصل يؤدي خدماته الواسعة في ميادين العبادة والتعليم على السواء .

ويروي العماد الأصفهاني أن نور الدين أمر بإحصاء ما في محلات دمشق من مساجد هجرت أو خربت فأناف على مائة مسجد ، فأمر بعمارة ذلك كله وعيّن له أوقافاً « ولو اشتغلت بإحصاء وقوفه وصدقاته في كل بلد لطال الكتاب ولم أبلغ إلى أمد . ومشاهدة أبنيته الدالة على خلوص نيته يغني عن خبرها بالعيان »[٧٥] . ويذكر ابن الأثير نقلاً عن أحد العارفين بأعمال الشام أن وقوف نور الدين في وقتنا هذا (٦٠٨ هـ) يبلغ تسعة آلاف دينار شهرياً «ليس فيه ملك غير صحيح، شرعاً، ظاهراً وباطناً »[٧٦] . هذا عن الأوقاف التي رصدها من ماله الخاص ، فكيف إذاً عن الأوقاف التي كانت تستمد من المال العام [٧٧] ؟!

وقد شهد عام ٥٥٢ هـ ، وهو نفس العام الذي أسقط فيه نور الدين حشداً كبيراً من الضرائب بموجب المنشور الشهير الذي سبق وأن أشرنا إليه ، شهد جملة خدمات اجتماعية واسعة النطاق كلفت مالية الدولة مقداراً ضخماً بلغ مائتي ألف دينار !! وقدر ريْع الوقوف التي رصدت تلك السنة بثلاثين ألف دينار . ويشير أبو شامة إلى بعض الجهات التي شملتها الخدمات والوقوف المذكورة : المدارس بأئمتها ومدرسيها وفقهائها ، الغزاة والمجاهدين ، دور الصوفية ، الربط ، الجسور ، البيمارستانات ، الجوامع والمساجد ، الأسوار ، خدمات الحجاج على طريق الحجاز ،

---

(٧٤) ابن الأثير : الكامل ٣٦٤/١١ ، الباهر ص ١٧٠ ، سبط : مرآة ٢٨٢/٨ ، ٢٩٣ ، ٣١٠ ـ ٣١١ ، ابن الجوزي : المنتظم ٢٤٩/١٠ ،أبو شامة : الروضتين ٤٨٠/١ ، العماد : البرق ص ٩٨ .

(٧٥) البرق ص ١٤٤ .

(٧٦) الباهر ص ١٧٢ .

(٧٧) انظر عن مسألة الأوقاف ، وعن المجالس الشورية التي كانت تعقد لتنظيمها وتثبيتها، أبا شامة: الروضتين ٤١/١/١ ـ ٤٢ .

فكاك الأسرى ، تعليم الأيتام ، الضمان الاجتماعي للغرباء والفقراء « .. هذا جميعه سوى ما أنعم به على أهل الثغور .. فإنه يضاهي هذا المبلغ وزيادة عليه »[78] . ومعنى هذا ـ إذا صحّت تخمينات أبي شامة ـ أن المبلغ الذي تضمنته تلك الحملة بلغ ما يقرب من نصف مليون دينار !!

وفي عام ٥٦٩ هـ ، السنة التي توفي فيها نور الدين ، شهدت دولته جملة خدمات اجتماعية أخرى ، شملت الكثير من القطاعات وتطلبت الكثير من النفقات : فزيدت الأوقاف ووسّعت الصدقات ، ووفرت النفقات . ويجمع عدد من المؤرخين على أن تلك السنة شهدت نماذج من الخدمات الاجتماعية تدعو للإعجاب وتوضّح لنا إلى أي مدى كان نور الدين يسعى جاداً إلى تغطية حاجات أمته بفئاتها الفقيرة المحتاجة ، ملبساً ونفقة وإشباعاً : إكساء الأيتام والنسوة الأيامى ، تزويج الأرامل ، إغناء الفقراء ، ختان الأطفال [79] . ويعلق العماد الأصفهاني على حملة تلك السنة بقوله : « .. حسبنا ماتصدّق به على الفقراء في تلك الأشهر ، فقد زاد على ثلاثين ألف دينار ذهباً . وكان إذا أمر بصدقة غلّة أو ذهب تقدم إلى خادمه بإحضار جماعة من أماثل البلد وعدوله من أهل كل محلة فيقول لكل واحد : كم تعرف في جوارك من صاحب فاقة ومستحق ومعيل . .وغيرهم ؟ فيقول : أعرف كذا وكذا . فيسلم إليه صدقات أولئك الأعداد ، حتى يستقرىء بالسؤال جميع الحاضرين . ثم يأتيه كل منهم بثبت ما فرّقه »[80] .

وثمة مساحات أخرى امتدت إليها خدمات الدولة وضمانها الاجتماعي في عصر نور الدين، لقد فرّق الرجل اثني عشر ألف دينار في فداء أسرى المغاربة، وإذ اختلط بهؤلاء نفر من أهل حماة الشاميين ليسوا بمغاربة ، أمر بصرفهم وإخراج عوض عنهم

---

(٧٨) الروضتين ١/١/٣٨ ـ ٤١ .

(٧٩) سبط : مرآة ٨/٢٩٩ ، أبو شامة : الروضتين ١/٥٥٦ ، ابن قاضي شهبة : الكواكب ص ٢٢٣ ، ابن العديم : زبدة ٢/٣٤٠ ، العماد : البرق ص ١٤٣ .

(٨٠) البرق ص ١٤٣ .

من المغاربة ، وقـــال : هؤلاء يفتكّهم أهلوهم وجيرانهم ، والمغاربة غرباء لا أهل لهم »[81] . وأمر بتغطية أجرة مسكن رجل اضطرته الشيخوخة إلى القعود [82] ، وخصص جرايات دائمة لما يزيد على الثلاثمائة والخمسين من اليتامى الصبيـــان في دمشق[83] ، وضمن مستقبل أبناء المقاتلين وأحفادهم بذلك الإجراء الشهير الذي اتخذه بهذا الصدد ، فكان إذا توفي أحد أجناده وخلف ولداً أقرّ إقطاعه عليه ، فإن كان الولد كبيراً استقلّ بنفسه ، وإن كان صغيراً رتب معه رجلاً عاقلاً يوثق به ، فيتولى أمره إلى أن يكبر . فكان الأجناد يقولون [84] : « هذه أملاكنا يرثها الولد عن الوالد فنحن نقاتل عنها »[85] .

* * *

وتكون نتيجة هذا كله ظهور مجتمع العدل والتضامن والتكافل والمواساة في الحاجات الأساسية .. إن المسألة ليست مسألة دولة تعطي وتضمن وتخـدم فحسب .. ولكنه (المجتمع) الذي تسعى هذه الدولة إلى تشكيله ، المجتمع الذي يمّحي فيه الاستغلال، وتضيق الفوارق، ويشترك الجميع بالحق والعدل، فيما يسكنهم من إشباع حاجاتهم الأساسية ، لكي يقدر الجميع على التحرك إلى ما وراء ذلك .. الآفاق الواسعة الرحيبة التي جاء الإسلام لكي يقود الناس إليها ...

كلنا نذكر تجربة (المؤاخاة) التي أشركت المهاجرين والأنصار في تحقيق هـذا الاشباع ، وكلنا نذكر كيف أن هذه التجربة مكنت المجتمع الاسلامي الأول مـن التحرك بقـدرة وحيوية صوب أهدافه الأوسع والأبعد .. على هدى كلمـات

(٨١) ابن جبير : رحلة ص ٢٨٠ .

(٨٢) ابو شامة : الروضتين ١/١/٣٦.

(٨٣) النعيمي : الدارس ١/٤٥١ .

(٨٤) لاحظ ان الذين اقطعوا هنا هم الأجناد وليس القادة او الأمراء او الكبار !!

(٨٥) ابن الأثير : الباهر ص ١٦٩ وعن خدمات الدولة في حقـل التعليم انظر الفصل الرابع .

الله وخطوات رسوله العظيم عليه السلام •• وها نحن نلتقي بالمجتمع نفسه يبعث من جديد في عصر نور الدين محمود ، بعد إذ تحقق التقابل الفعّال بين القيادة والقواعد ••

وهذه صورة من بين عشرات الصور ، التي وصف بها هذا (المجتمع) يحدثنا عنها شاهد عيان بعد حوالي العقد فحسب من وفاة نور الدين : « •• إن الحاج الدمشقي مع من انضاف إليهم من المغاربة ، عند صدورهم إلى دمشق في هذا العام (٥٨٠ هـ) ، خرج الناس لتلقيهم ، الجمّ الغفير رجالاً ونساءً ، يصافحونهم •• وأخرجوا الدراهم لفقرائهم يتلقونهم بها وأخرجوا إليهم الأطعمة •• وكل من وفقه الله بهذه الجهات من الغرباء للانفراد ، يلتزم — إن أحبّ — ضيعة من الضياع فيكون فيها طيب العيش ، ناعم البال ، وينثال الخبز عليه من أهل الضيعة ويلتزم الإمامة أو التعليم أو ما شاء • ومتى سئم المقام خرج إلى ضيعة أخرى •• »[٨٦] •وفي مكان آخر يقول شاهد العيان هذا — مثمناً أخلاقية المجتمع الإسلامي هناك — : «•• ولو لم يكن بهذه الجهات المشرقية كلها إلاّ مبادرة أهلها لاكرام الغرباء وإيثار الفقراء•• ولا سيما أهل باديتها ••• » لكفى بها فضلاً[٨٧] •

— ٦ —

وثمة سؤال يفرض نفسه قبل المضي في هذا البحث إلى نهايته : إن نور الدين محموداً أنفق مقادير كبيرة من المال في تغطية الخدمات الاجتماعية المتشعبةالواسعة•• وأسقط في الوقت نفسه مبالغ نقدية أكبر منها حجماً كانت تنصبّ في خزائن الدولة ضرائب ومؤناً ورسوماً ومكوساً •• فمن أين كانت دولة نور الدين تحظى بموردها الدائم الذي يحميها من العجز ؟ وكيف مضت حتى النهاية تصدر المناشير بإسقاط الضرائب والمكوس ، وتنفق عن سعة في ميادين الخدمات الاجتماعية دون أن يصيبها

(٨٦) ابن جبير : رحلة ص ٢٥٩ •

(٨٧) نفسه ص ٢٥٨ •

الخلل فتتوقف ـ على الأقل ـ عن العطاء إن لم نقل ترجع ثانية فتفرض على المواطنين ما يمكنها من سدّ الفتق واستعادة التوازن والقدرة على العمل ؟!

هنالك إجابة تجيء بمثابة بديهية من البديهيات التي لا تحتاج ـ أساساً ـ إلى قول: إن دولة نور الدين لو لم تحظ بالقدر الكافي من المال ، وبشكل دائم، لماواصلت سياساتها تلك حتى آخر لحظة ، ولما وصفها العماد بأنها كانت « نافذة الأوامر منتظمة الأمور »(٨٨) .

ولكن السؤال يظل معلقاً : كيف كانت خزائن الدولة تحظى دوماً بالقدر الكافي من المال ؟

---

(٨٨) البرق ص ١٤٧ وإضافة للارقام التي ثبتناها لدى الحديث عن الخدمات الاجتماعية لدولة نور الدين فإننا نضيف هنا حشداً آخر من الأرقام والبيانات يتعلق بالمسائل الحربية بالدرجة الأولى ويشير إلى مدى تمكن ميزانية الدولة . فالعماد يشير إلى ان نور الدين امر خازن بيت المال عام ٥٦٤ هـ بصرف مائتي الف دينار معجلة لأسد الدين شيركوه لدى توجهه إلى مصر ، وأطلق لكل فارس عشرين ديناراً . ولما كان عدد هؤلاء الفي فارس ، فمعنى هذا انه صرف لهم أربعين الف دينار (البرق ص ٧٥ـ ٧٦) وكان هذا المبلغ ـ كما يقول ابن الأثير ـ معونة لكل فارس على الطريق ، غير محسوبةمن المخصصات الثابتة له ، هذا فضلاً عما وزع على المقاتلين يوم ذاك « من الثياب والدواب والآلات والأسلحة وغير ذلك » (الباهر ص ١٣٩ ، الكامل ١١/٣٣٨ ، أبو شامة : الروضتين ١/٣٩٢ ـ ٣٩٣) . وكان قد امر رجال الديوان بإحضار كل جندي فقد منه شيء في الحرب وتعويضه عما فقد (ابن الأثير:الباهر ص ١١٧ ـ ١١٨، سبط : مرآة٨/٢٤٤ ـ ٢٤٥) . وكان يثبت اسم كل أمير في ديوانه وما منحه من سلاح ودواب خوفاً من قيام بعض الأمراء بتجميد بعض ما هو مقرّر عليه من العدد . وكان يقول : « نحن كل وقت بصدد النفير ، فإذا لم يكن أجناد كافة الأمراء كاملي العدد والعدد دخل الوهن على الإسلام » (الباهر ص ١٦٩).وكان من عادته أنه إذا أقطع أميراً اقطاعاً ما قرر عليه عدداً من المقاتلين لا ينقصون في خيل وسلاح وعدد، فإذا نقص وارد الاقطاع عن تغطية نفقات الجند عوضه نقداً من خزانته (البرق ص ١٢٢) . وفي عام ٥٦٣ هـ عرض على صاحب قلعة جعبر مبلغ عشرين الف دينار ، فضلاً عن عدد من المواقع ، لقاء تنازله عن القلعة (الباهر ص ١٣٦ ـ ١٣٧ ، الكامل ١٣/٣٣٤ ـ ٣٣٥ ،
←

إن مراجعة سريعة للجانب الآخر من سياسة نور الدين المالية تمنحنا الجواب المقنع على هذا السؤال :

فهنالك ــ أولاً ــ الضرائب (الشرعية) وهي الضرائب الأساسية الأكبر حجماً والأكثر عطـاء ودواماً وإلزاماً وقبولاً لدى أبنـاء الأمة ومسؤوليها على السواء .. خراج الأراضي وجزية الرؤوس وزكاة الأموال .. إن نور الدين لـم يتهاون مطلقاً في أي من هـذه الضرائب[89] لأنها تمثل حقاً شرعياً ثابتاً ، وليس بمقدور حاكم أو محكوم تجاوزه على الإطلاق .. ونور الدين يحكم أرضاً اشتهرت بكثافة نشاطها الزراعي وبكثرة ذمييها ، ويسوس مجتمعاً بلغ من النضج والالتزام ما يجعل الواجدين فيه يهرعون لتقديم زكاة أموالهم قبل أن ترغمهم الدولة على الدفع . ولنا أن نتصور ــ من ثم ــ كيف ستشكل هذه الموارد الثلاث ضماناً دائماً لموازنة مالية الدولة وحماية خزائنها من العجز والإفلاس[90] .

→

الروضتين ٣٨٦/١ ــ ٣٨٧ زبدة ٣٢٥/٢) . ومن ثم فإن الرواية التي يوردها سبط (مرآة ٢٤٤/٨ ــ ٢٤٥) من ان بعض موظفي نور الدين عرضوا عليه سنة ٥٥٨ إيقاف نفقاته على الفقهاء والفقراء . . . او الاقتراض من ارباب الأموال للاستعداد لجهاد العدو بسبب من نفاد الخزائن، لا يمثل سوى حالة عابرة لم تدم أكثر من أشهر معدودات، عانت فيها خزانة الدولة ــ على ما يبدو ــ العجز الذي الجأ الموظفين إلى التماس الحلول لتغطيته ، وربما تكون الانتصارات التالية والغنائم التي ترتبت عليها ، وبخاصة انتصار (حارم) في العام التالي (٥٥٩ هـ) قد أعاد لمالية الدولة موازنتها وقدرتها على العطاء كما يتبين من خلال الروايات السالفة . وربما تكون الرواية أساساً مبالغاً فيها لتصوير حالة التحرّز التي كانت تنتاب نور الدين كلما عرض عليه أن يقلّص نفقاته على الفقراء او يلزم الأغنياء بما يخرج عما هو مفروض عليهم . ومهما يكن من أمر فإن نور الدين ــ كما يرد في الرواية نفسها ــ رفض الأخذ باقتراحات رجاله، ولهذا دلالته في مجال كهذا .

(٨٩) انظر العماد : البرق ص ١٤٣ .

(٩٠) عن هذه الضرائب الثلاث : الخراج ، الجزية ، الزكاة انظر بالتفصيل :
Elisseeff : Nur Ad-din, pp. 794-805.

وفي مقابل هذا عمد نور الدين إلى اعتماد سياسة زراعية سليمة كانت بمثابة المفتاح الذي أغفله كثير من الساسة لتنمية الدخل القومي تنمية طبيعية في عصر كان النشاط الزراعي فيه يمثّل الفاعلية المحورية في عالم الاقتصاد .. فهو من جهة سعى إلى حماية المزارعين والفلاحين من كافة صنوف الأذى والتخريب والعدوان التي كان يمكن أن تلحق كدهم من جراء حالة الحرب المستمرة ، وتحرك الجيوش الدائم، وتحوّل الأرض الشامية إلى ساحة قتال لاتعرف طعم السلم إلاّ قليلاً .. وقد مرّ بنا كيف أن نور الدين خلال هجماته المستمرة على دمشق طيلة الأربعينات كان يشدد على أصحابه وجنده ألاّ يفسدوا المزارع والضياع والقرى وألاّ يأخذوا شيئاً من مزارع ما بغير حق .. كما أنه أعلن نفسه حامياً للفلاحين .. وتتذكر رواية ابن القلانسي : سمع نور الدين نبأ تحالف دمشق مع الصليبيين فقال : « لا أنحرف عن جهادهم . وهو مع ذلك كاف أيدي أصحابه عن العبث والإفساد في الضياع ، وإحسان الرأي في الفلاحين والتخفيف عنهم .. » وكتب إلى زعماء دمشق : « إنني ما قصدت بنزولي هذا المنزل طالباً لمحاربتكم ، وإنما دعاني إلى هذا الأمر كثرة شكاية المسلمين من أهل حوران والعربان بأن الفلاحين الذين أخذت أموالهم وشتت نساؤهم وأطفالهم بيد الفرنج ، وعدم الناصر لهم ، لا يسعني مع ما أعطاني الله من الاقتدار على نصرة المسلمين وجهاد المشركين وكثرة المال والرجال ، ولا يحلُ لي القعود عنهم والانتصار لهم .. »[(٩١)] . وغير هذه الرواية كثير يمكن الرجوع إليه في أماكن أخرى من هذا البحث .

ونور الدين ــ من جهة أخرى ــ سعى ــ كما رأينا ــ إلى تخفيف الضرائب عن الفلاحين وإسقاط حشد كبير مما كان يفرض عليهم ويثقل كاهلهم ويضطرهم ــ أحياناً ــ إلى التخلي عن نشاطهم الزراعي الذي ما كان يعود عليهم إلا بمزيد من الفقر والشقاء .. والآن وقد خففت عنهم الرسوم والضرائب إلى الحدّ الذي رأيناه،

---

(٩١) دمشق ص ٣٠٨ ــ ٣٠٩ .

فإن حافزاً قوياً سيدفعهم إلى مزيد من العمل والانتاج وهم مطمئنون إلى أن حصيلة كدحهم وكدهم سوف لن ترجع في نهاية الأمر إلاّ إليهم .

وقد رافق ذلك ــ ولاريب ــ وقف لكافة الأساليب الجائرة في جباية الضرائب واعتماد أساليب جديدة أكثر تحرياً للعدل وإنصافاً للفلاحين في دولة كانت ترى في الظلم جريمة كبرى ينزل بمرتكبها أشد العقاب .. وفضلاً عن هذا وذاك فإن الخدمات التي تكفلت دولة نور الدين بتقديمها للمواطنين انصبّت في مساحات واسعة منها على إعانة المزارع لتقديم أقصى ما يستطيع من جهد في استثمار أرضه .. فقد شقّت الترع وبنيت القناطر والجسور وعبّدت الطرق وأُقيمت الخانات عبر مسافاتها الطويلة ، مما لعب دوره في تنشيط الانتاج الزراعي ، حتى أن ابن العديم، المؤرخ الحلبي ، يقول : « انعمر بلد حلب في زمان نور الدين لعدله وحسن سيرته، حتى لم تبق مزرعة في جبل ولا وادٍ إلاّ وفيها سكان ولها مغلّ . وصار على ظاهر حلب من العمـارة والمساكن أكثر من المدينة » [٩٢] . وقد أدى تنشيط الانتـاج الزراعي بهذه السياسات الحصيفة ــ ولا ريب ــ إلى تنمية الحصيلة الخراجيـة المترتبة عليه .

وهنالك ــ ثانياً ــ الغنائم التي كانت تمثل ــ بحق ــ مورداً من أوسع موارد الدولة التي كانت دوماً في (حالة حرب) مع الأعداء ، وكانت نتائج الحرب المادية والمعنوية تأتي لصالحها في أغلب الأحيان. يقول سبط ابن الجوزي على سبيل المثال: « عاد نور الدين بعد فتح حارم (عام ٥٥٩ هـ) إلى حلب بالأسـارى والغنائـم وامتلأت حلب منهم فبيع الأسير بدينار وفرقهم نور الدين على العساكر .. ثم فاداهم، وكان قد استفتى الفقهاء فاختلفوا فقال قوم: يقتل الجميع، وقال آخرون: يفادى بهم، فمال نور الدين إلى الفدية فأخذ منهم ستمائة ألف دينار ، معجلاً ، وخيلاً وسلاحاً وغير ذلك ، فكان نور الدين يحلف بالله أن جميع ما بنـاه مـن المدارس والربط

---

(٩٢) زبدة ٢/٣٤١ .

والمارستانات وغيرها من هذه المفاداة ، وجميع ما وقفه منها ، وليس فيها من بيت المال درهم واحد»[٩٣].

ستمائة ألف دينار حصيلة معركة واحدة .. فكيف بسائر المعارك التي انتصر فيها نور الدين والتي تغطي فترة حكمه من أقصاها إلى أقصاها ؟ ثمة رواية أخرى فيها إشارة محددة إلى مبالغ بالذات كسبتها الدولة عن طريق المفاداة : وقع صاحب طرابلس أسيراً بيد نور الدين فأطلق سراحه لقاء ثلاثمائة ألف دينار ومائة وخمسين حصاناً وألفين من الدروع والزرود ، ومقادير كبيرة من الأسلحة وخمسمائة أسير من المسلمين . هذا ما يقوله ابن الجوزي [٩٤] . أمـا أبو شامة فإنه يطرح أرقاماً أخرى : مائة وخمسين ألف دينار ، وفكاك ألف أسير من المسلمين [٩٥] . وأياً كان الأمر فإن المبالغ النقدية والعينية المترتبة على فداء الأمير الصليبي كانت كبيرة حقاً فإذا ما أضفنا إلى ذلك ما كان يأتيه من الأقاليم الكبيرة التي فتحها كمصر واليمن وغيرهما[٩٦]، على شكل ضرائب وغنائم ومعطيات عينية، أدركنا كم كان واسعاً كبيراً هذا المورد الذي كان يجيء عن طريق النشاط الحربي .

وهنالك ـ ثالثاً ـ الأموال العظيمة التي خلفها أبوه عمادالدين زنكي والتي آلت خزائنها العظيمة إلى نور الدين ـ لحسن الحظ ـ بدلاً من أخيه الأكبر سيف الدين غازي ، حيث كان زنكي قد احتفظ بهـا في قلعة سنجار على الطريق بين الموصل وحلب ، فلما آلت هذه المدينة إلى نور الدين عام ٥٤٤ هـ وضع يده عليها ونقلها معه إلى حلب ، فكانت كما يصفها كل من ابن الأثير وابن العديم « كثيرة جداً » [٩٧] ،

---

(٩٣) مرآة ٢٤٧/٨ ـ ٢٤٨ ، ابن كثير : البداية ٢٨١/١٢ وانظر أبا شامـة : الروضتين ٥٥٥/١ ـ ٥٥٦ .

(٩٤) المنتظم ٢٤٩/١٠ .

(٩٥) الروضتين ٦١١/١ .

(٩٦) انظر المصدر السابق ٥٢٥/١ والعماد : البرق ص ١٢٣ ـ ١٢٤ .

(٩٧) الكامل : ١٤١/١١ ، زبدة : ٢٩٨/٢ .

وأنها نقلت على ستمائة جمل ما خلا البغال وكان من بين الأخيرة ستة وستون حملت عملة من الذهب [٩٨] .

وهنالك ــ رابعاً ــ تلك الأمانة العظيمة التي تميز بها نور الدين تجاه أموال الأمة والتي سعى إلى إلزام موظفيه بها ، وفرض عليهم رقابته اليقظة الدائمة كيلا يجنحوا باتجاه استغلال مناصبهم لحسابهم الخاص .. وإن لنا أن نقدّر حجم الخسائر التي كانت ستمنى بها مالية الدولة لو ابتليت بحاكم جشع وموظفين لا يعرفون غير تنمية جيوبهم ، أسوة بما كان يفعله الكثيرون من الحكام والموظفين .. وإن لنا أن نقدر ــ بالمقابل ــ ما كسبته خزانة الدولة من جراء الحماية الصارمة التي فرضتها تقوى نور الدين وإيمانه والتزامه واختياره الدقيق لكبار موظفيه وحسابه الشديد معهم .. إننا نتذكر هنا عبارة فلهاوزن وهو يتحدث عن سياسة عمر بن عبد العزيز المالية : « لقد عني عمر بالحيلولة بين الولاة وبين أن يكون همهم الأول من مناصبهم جمع الأموال لأنفسهم ، والأغلب أن ذلك عوّض النفقات التي اقتضتها إصلاحاته ضعفين » [٩٩] .. وما قيل عن عمر ينسحب ــ بالضرورة ــ على نور الدين محمود .

وهنالك ــ خامساً ــ وقف نور الدين للنزاع الداخلي والحرب الأهلية ، وتكوين دولة قوية موحدة يسودها الأمن والاستقرار ، رغم حالة الحرب الدائمة بينها وبين العدو الصليبي ، الأمر الذي وفّر على الدولة مبالغ كبيرة كانت ستضيع في غمرة الصراع الداخلي ذاك « ففي ظل الأمان الذي نشره نور الدين ، ثم صلاح الدين ، ثم الملك الكامل أخوه ، ازدهرت مدائن الشام والجزيرة الفراتية ومصر جميعاً ، وتيسّرت أحوال الناس ، وثبتت أسس المجتمع في هذه البلاد بعد طول تقلقل واضطراب . وقد اجتهد نور الدين في كل ما يمكن أن يشعر الناس بالأمان ويخفف عنهم متاعب الحياة ... » [١٠٠] .

---

(٩٨) ابن الأثير : الباهر ص ٩٨ .

(٩٩) الدولة العربية وسقوطها ص ٢٩٦ (ترجمة عبد الهادي ابي ريدة) .

(١٠٠) حسين مؤنس : نور الدين ص ٣٧٤ .

وثمة ــ أخيراً ــ تلك الأرضية الصالحة التي أوجدها نور الدين ، والمناخ الملائم الذي سهر على حمايته ، بجعله الدولة مؤسسة لتقديم أوسع الخدمات لأبناء الأمة .. وإيجاد مجتمع التكافل والتضامن ، حيث كان المواطن يجد ــ أياً كان انتماؤه الديني أو القومي ــ ضمان حياته ومستقبله في ظلال دولة تحميه وتخدمه ، ومجتمع يعينه ويكفله .. وتجيء نتيجة ذلك كله مزيداً من الجهد والعمل والإنجاز ، فمزيداً من النماء للدخل القومي ولموارد الدولة على السواء .

* * *

ومن ثم نعرف ــ بعد هذا كله ــ لماذا « انعمر » بلد حلب في زمن نور الدين كما يقول ابن العديم ، ولماذا « لم تبق مزرعة في جبل ولا واد إلا وفيها سكان ولها مغل » .. ولماذا « صار على ظاهر حلب من العمارة والمساكن أكثر من المدينة » [١٠١] ، ولماذا أخذت حلب تعاني من « كثرة العالم » مما دفع إلى ارتفاع الأسعار فيها رغم كثرة وارداتها [١٠٢] ..

ونعرف ــ كذلك ــ لماذا وصف الرحالة الأندلسي اليهودي (بنيامين التطيلي) دمشق بأنها « البلدة العامرة » وأنها « مدينة واسعة الأرجاء ، جميلة المنظر .. تمتد رياضها وبساتينها إلى ما مسافته خمسة عشر ميلاً من كل جانب » وأنه لم يجد « مثل فاكهتها وأشجارها في أي مكان آخر في العالم » [١٠٣] .

كما أننا نعرف لماذا أصبح البناء في دمشق ــ لأول مرة ــ من ثلاث طبقات ــ كما شاهد ابن جبير ــ وأصبح « يحتوي من الخلق على ما تحتوي ثلاث مدن لأنه أكثر بلاد الدنيا خلقاً » ولماذا غدت « أسواق دمشق من أحفل أسواق البلاد ، وأحسنها نظاماً وأبدعها وضعاً ... » [١٠٤] .

---

(١٠١) زبدة ٢/٤١ ٣ .

(١٠٢) نفسه ، الطباخ : تاريخ حلب ٢/٧٠ .

(١٠٣) رحلة بنيامين ص ١١٥ .

(١٠٤) رحلة ص ٢٦١ .

الفصل الرّابع

في ميدان التربية والثقافة

- ١ -

شهدت دولة نور الدين محمود نشاطاً علمياً واسع النطاق حيث بنيت المدارس ومؤسسات التعليم في كل مكان وتدفق العلماء والأدباء على بلاد الشام من المشرق والمغرب ، ومنحت الضمانات المالية والاجتماعية لشيوخ العلم والطلبة الدارسين ، وعقدت المجالس والندوات لمناقشة شتى المسائل والقضايا المتعلقة بفروع العلم والبحث المختلفة .. وقرّب العلماء ، واستقدموا من أقطـار المشرق والمغرب ، وفتحت أمامهم السبل ، فغدوا الطبقة الأولى واحتلوا أعلى مصاف .

إن نور الدين يعرف جيداً طبيعة العصر الذي قدّر له أن يتولى إحدى قياداته الخطيرة ويقف على ثغر من ثغوره المتقدمة ، بمواجهة خصم مذهبي كان قد تغلغل في الأرض التي يقف عليها نور الدين ، وضرب جذوره هناك فيما يزيد على نصف القرن .. إنه يعرف أن تحرير الأرض وتوحيدهـا ليس عملاً سياساً أو عسكرياً فحسب .. بل إنه أوسع من ذلك بكثير .. إنه مواجهة مذهبية وصراع حضاري بين أمة وأمة ، وإنـه بدون تأصيل (الذات العقائدية) للأمة المسلمة فلن تكون انتصاراتهم على الخصم سوى أعمالاً جزئية موقوتة معرضة دوماً للمد والجزر وللتغيّر والتبدّل ، كما كان يحدث دائماً .

وما يقتضيه (الموقف) ليس هذا ، ليس مجرد انتصار خارجي في معركة أو استرداد حصن .. وإنما بناء أمة مقاتلة تعرف كيف تحمي وجودهـا العقائدي وتحفظ حدود شخصيتها الحضارية من أن تنفتت وتضيع..وحينذاك سوف يتحول كل نصرٍ عسكري أو كسب سياسي إلى انجاز بنائي يزيد المجتمع المقاتـل قـوة وأصالة وتماسكاً ، لامجرد تكديس شيئي لايشده رباط .. تكديس كمي يثبت للضربة والضربتين ولكنه في الثالثة أو الرابعة ينهار ، فتذهب مع انهياره هدراً جهود السنين الطوال وعرقها ودماؤها ..

فالنشاط العلمي في عصر نور الدين لم يكن أبداً ترفاً فكرياً ، ولا إفرازاً تقليدياً لأجهزة الدولة .. لكنه (تصميم) هادف يسعى إلى عملية (التأصيل العقائدي) من خلال نشاط ثقافي وتربوي واسع النطاق يرتبط به الفكر بالسلوك ، والعلم بالعمل ، وتزول حواجز الفصل والازدواج ، وتنمحي الثنائيات ، ويبرز إلى حيّز التاريخ (الانسان) المتوازن الذي أراده الإسلام ، (والجماعة) المؤمنة التي دعا إليها كتاب الله وسنة رسوله .

إن مفهوم التربية في الإسلام مفهوم متكامل ، يسعى إلى تنمية وإغناء مقومات الشخصية كافة : فكرية وروحية وجسدية ، ومحاولة استجاشتها ودفعها إلى حدود التوتّر الأقصى القدير على تقديم أكبر قدر من العطاء ، مع الحفاظ الدائم على حالة التوازن الصعب بين التيارات الثلاثة في تكوين الشخصية .

وإننا نلمح في تجربةنور الدين الذاتية وتعاليمه وسياساته التربوية سعياًمؤكداً من أجل تحقيق هذا الهدف : تكوين (المسلم) المتوازن الذي تنمو فيه إلى حدّ التوتر الفعال ، وعلى خط متواز ، قدراته الثلاث : الروحية والعقلية والجسدية ، والذي كان كتاب الله وسنة رسوله قد سعيا من أجل إعداده بطرائقهما (المؤثرة) (المتكاملة) ليكون حجر الزاوية المتين في بعث المجتمع المسلم الذي أُنيطت به الأمانة الكبرى ، وحمّل مسؤولية تغيير خرائط العالم ، و (الشهادة) على مسيره ومصيره على السواء .

لقد حمل نور الدين في عقله وضميره هذه الرؤية الإنسانية الذكية للهدف التربوي ، وسعى من خلال تعاليمه وأوامره ومؤسساته ، والقدوة (النموذج) التي صاغها بنفسه ، إلى مدّها إلى مواطنيه كافة .. ومارس جهداً شاقاً من أجل أن يتحقق بالتوازن والفاعلية ، فبلغ بالتعبّد الدائم والتقوى العميقة قمة التجربة الروحية وغدا — إذا صحّ التعبير — علماً من أعلام التصوّف (الملتزم) في عصره .. وبلغ بالرياضة الجادة والممارسات الفروسية المستمرة قمة التمكن (الجسدي) في عصر لم يكن يسمح للحياة فيه إلاّ للفارس الذي يعرف كيف يركب فرسه قبل أن يرتد الطرف إلى العين، وكيف يناور خصمه ، وكيف ينطلق إلى هدفه كما ينطلق

ضوء الشهب في الليالي المظلمة •• وكما شهدناه في ساحات التعبد ، والتقـوى ، يتحرق شوقاً حتى يكاد يذوب ، ويغسل بدموع العين ماقد يعلق بالفؤاد من ريْـن نراه هنا : فارساً يمتطي جواده فلا يكاد أحد يحس ّ أن هنالك فاصلاً ً بينه وبـين الجواد •• إن ابن الأثير يشير إلى أن الناظر إليه يتوهم أن الرجل وجواده قد قُدّا من مادة واحدة ، وكأنه قد خلق على ظهر الجواد !! رياضياً يلعب الكرة حيثما أتيح له ذلك ، ويتجاوز تحديات الظلام فيوقد الشموع لكي يواصل لعبته المفضلة •• حتى إذا ما اعترض عليه أحد الشيوخ ، في أن ممارسته هذه قد تبعده عن ساحات الجد ، أجابه على ضوء الرؤية الإسلامية للمسألة : بأن رياضة كهذه تزيـد مـن قدرات المقاتل وتمنحه المزيد من مهارات الفروسية في عصر الصراع الدائم والقتال المحتوم •• مقاتلاً ً •• يتقدم جنده في المعارك ، ويتوغل في صفوف الخصم ببطولة فذة كانت ترفعه دوماً إلى مستوى الفدائية وتتجاوزها صوب طلب الموت !!

هذا عن تربية الروح بالعبادة ، والجسد بالرياضة ، وإن كنا كما علمنا الإسلام بتجربته الفذة لا نرى ثمة فاصلاً ً بين هذه الممارسات جميعاً في صميم الشخصيـة البشرية ، وإن ما يحدث هو العكس تماماً : تأثير وتأثر دائمان بين مكونات الإنسان وبين أي من هذه الممارسات • وليس التعبّد ــ على سبيل المثال ــ بفاعلية روحية فحسب ، ولكنها تعامل شمولي متكامل مع العقل بجعله أكثر صفاء ونفاذاً ، ومع الجسد بجعله أكثر ضبطاً وتوافقاً •• وما يقال عن (التعبّد) يمكن أن يقال عن (التفكير) و (التريّض) سواء بسواء ••

هذا عن تربية الروح بالعبادة ، والجسد بالرياضة ، فماذا عن تربية العقـل بالتفقّه والتفكير ؟ وهل اقتصر نشاط نور الدين في هذه الدائرة على حدود تجربته الذاتيـة ، أم سعى إلى مـدّه ــ كما هو الحـال في الدوائـر الأخـرى ــ إلى الرعيـة كافة ؟!

لقد كان نور الدين نفسه عالماً قبل أن يكون حاكماً !! وكان هذا نقطة البدء وحجر الزاوية • إن أمة يسوسها العلماء والمتخصصون يمكن أن تينع وتزهو فيهـا شجرة المعرفة •• ويوم نرى هذه الشجرة تذبل وتذوى وتنفض عنها أوراقها الصفراء، فلنا أن نحكم بأن هنالك في القمة حفنة من الجهلاء !!

كان نور الدين عارفاً بمذهب أبي حنيفة ، ملتزماً به ، من غير تعصّب منه ولا تحيز ، فالمذاهب عنده ـ كما أجمع المؤرخون ـ كلها سواء « والإنصاف سجيته في كل شيء »[1] ... سمع الحديث حتى حصل على الإجازة العلمية التي تتيح له أن يسمعه للآخرين .. ولقد مارس مهمة التحديث هذه رغم زحمة مهام عمله السياسي والعسكري ، محاولة منه في تعزيز مكانة (السّنة) ونشرها بالحفظ والأداء والتحديث [2] ، الأمر الذي يذكرنا بجهود الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز في هذا المضمار الخطير . كما ألّف كتاباً في الجهاد [3] ، وأوقف كتباً كثيرة في مدارسه، وكان حسن الخط كثير المطالعة للكتب الفقهية ، متميزاً بعقله المتين ورأيه الثاقب الرزين [4] .

وكان الرجل لتعشقه العلم يسعى وهو في قمة السلطة « إلى التشبه بالعلماء والصالحين والاقتداء بسيرة من سلف منهم في حسن سمتهم والاتباع لهم في حفظ حالهم » [5] . وكان العلماء عنده في المنزلة الأولى والمحل العظيم [6] ، يحضرهم إلى مجلسه « فيدنيهم.. ويتواضع لهم،وإذا أقبل أحدهم إليه يقوم له مذ تقع عينه عليه ويعتنقه ويجلسه معه على سجادته ويقبل عليه بجديته ، كأنه أقرب الناس إليه ، تعظيماً وتوقيراً واحتراماً »[7] .

---

(١) ابن الأثير : الباهر ص ١٦٥ ، النعيمي : الدارس ٦٠٩/١ .

(٢) أبو شامة : الروضتين ٥٨٢/١ ـ٥٨٣، ابن قاضي شهبة : الكواكب ص ٥٦ـ ٥٧ سبط : مرآة ٣٠٦/٨ ـ ٣٠٧ ابن الأثير : الباهر ص ١٦٥ ـ ١٦٦ .

(٣) سبط : مرآة ٣١٣/٨ .

(٤) نفسه ٣٠٦/٨ ـ ٣٠٧ أبو شامة : الروضتين ١٠/١/١ ـ ١١ ابن كثير : البداية ٢٧٨/١٢ .

(٥) أبو شامة : الروضتين ٥٨٢/١ ـ ٥٨٣ .

(٦) ابن واصل : بني أيوب ٢٨٣/١ .

(٧) ابن الأثير : الباهر ص ١٧١ ـ ١٧٣ وانظر ابن الجوزي : المنتظم ٢٤٩/١٠ ، وابن كثير : البداية ٢٨١/١٢ .

وكان مجلسه ندوة كبيرة يجتمع إليها العلماء والفقهاء للبحث والنظر [٨] ، ولم تكن المناظرات التي شهدتها مجالسه تزجية للوقت ، وتخريجاً نظرياً للفروع على الأصول ، وترفاً فكرياً .. إنما كانت نشاطاً جادّاً من أجل مجابهة المشاكل والتجارب المتجددة المتغيرة ، بالحلول المستمدة من شريعة الإسلام وفقهها الواسع الكبير .. ما دام الرجل يسعى إلى إعادة صياغة الحياة في ميادينها كافة وعلى مدى مساحاتها ، بما ينسجم وعقيدة الإسلام ورؤياه لموقع الانسان في العالم .. ومن ثم فإن ندوات كهذه هي أشبه بمجالس أو (لجان برلمانية) متخصصة تجتمع بين الحين والحين لحلّ مشكلة ما أو استصدار تشريع أو إقرار قانون . ونحن نذكر هنا ذلك الاجتماع الموسّع الذي عقده نور الدين مع حشد من العلماء الذين اختيروا لكي يمثلوا المذاهب الفقهية كافة من أجل النظر في عدد من قضايا الوقف والمصالح العامة [٩] . ويمكن أن نشير هنا ــ كذلك ــ إلى رواية ابن الأثير التي يشبّه فيها مجلسه بمجلس رسول الله ﷺ : « مجلس حلم وحياء ، لا تؤبن فيه الحرم .. ولا يذكر فيه إلاّ العلم والدين وأحوال الصالحين ، والمشورة في أمر الجهاد وقصد بلاد العدو ، ولا يتعدى هذا .. » [١٠] ، وإلى روايته الأخرى التي يتحدث فيها عن قيام نور الدين باستحضار عدد من الفقهاء واستفتائهم في أخذ ما يحلّ له من « الغنيمة ومن الأموال المرصدة لمصالح المسلمين » «فأخذ ما أفتوه بحلّه،ولم يتعدّه إلى غيره البتّة»[١١]. فما يصدر عن ممثلي الشريعة الغراء يتوجب أن يكون ملزماً لكل إنسان سواء كان في القمة أم في القاعدة ، وقولهم هو القول الفصل لأن نور الدين ــ وقد عرفنا مدى صدقه مع ربّه ومع نفسه ومع رعيته ــ ما كان يريد أن يمارس لعبة

---

(٨) انظر : ابن واصل : بني ايوب ٢٨٣/١ وابن الأثير : الباهر ص ١٧١ ــ ١٧٣.

(٩) انظر الفصل الثاني من هذا البحث .

(١٠) الباهر ص ١٧٣ .

(١١) نفسه ص ١٦٤ .

الاستشارات القانونية المزدوجة : يبرز للناس أنه لا يقـدم على عمـل إلاّ بعـد الاطلاع على رأي قادة فكرهم ومشرعي قوانينهم ، ويسعى في الخفاء إلى تنفيذ ما كان قد اعتزمه مسبقاً مهما كانت درجة تناقضه مع أطروحات اللجان الاستشارية والتشريعية والبرلمانية ، التي ستكون بمثابة الرداء الخارجي الذي يحمي في داخله مضامين وممارسات لا تمتّ إلى لون الرداء ونسيجه في شيء!!

لقد بلغ العلماء والمشرعون في دولة نور الدين حداً جعل الأمراء ، الذين أنزلوا عن القمة ليحل هؤلاء محلهم ، يحسدونهم على مكانتهم « وكانوا يقعون فيهم عنده فينهاهم ، وإذا نقلوا عن انسان عيباً يقول : ومن المعصوم ؟ إنما الكامل من تُعدّ ذنوبه »[١٢]. بغلني ــ يقول ابن الأثير ــ « أن بعض الأكابر من الأمراء حسد قطب الدين النيسابوري ، الفقيه الشافعي ــ وكان قد استقدمه من خراسان وبالـغ في إكرامه والإحسان إليه ــ فنال أحدهم منه يوماً عند نور الدين،فقال له : ياهذا ، إن صحّ ما تقول فله حسنة تغفر كل زلة تذكرها ، وهي العلم والدين ، وأمـا أنت وأصحابك ففيكم أضعاف ما ذكرت وليست لكم حسنة تغفرها ، ولو عقلت لشغلك عيبك عن غيرك ! وأنا أحتمل سيئاتكم مع عدم حسناتكم ، أفلا أحتمل سيئة هذا ــ إن صحت ــ مع وجود حسنته ؟ على أنني والله لا أصدقك فيما تقول ، وإن عدت ذكرته أو غيره بسوء لأوذينّك ، فكف عنه !! »[١٣] .

ولم يكن الرجل يتعامل مع العلماء (بحساب الجملة) كما يقولون ، حيث يختلط الفقيه بالجاهل تحت ستار العلم ، ويضيع الجيد بالرديء .. وحيث يبرز أحياناً من بين العلماء رجل أو اثنان أو أكثر ، فيمتطوا المكانة التي بلغوها،ويختبئوا خلف الرداء الذي لبسوه لكي يزّيفوا حقيقة ، أو يلبسوا باطلاً بحق ، أو يشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً .. إن الرجل يرفض الكذب ، الكذب على الله وعلى النـاس

---

(١٢) ابن الأثير : الباهر ص ١٧١ ــ ١٧٢ .

(١٣) نفسه .

وعلى الحقيقة ، وبالتالي فهو يرفض الغش والتزوير والتضليل والخداع .
وهو ـ من الجهة الأخرى ـ يملك من الذكاء وعمق النظر وسرعة البديهة ما يجعله يزن الناس الذين يتعامل معهم بدقة عجيبة كدقة الموازين ، فهو كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه متحدثاً عن نفسه: (لست بالخبّ[14] ولا الخبّ يخدعني) ..

ومن ثم يبدو أن ليس بمقدور أي رجل أن (يَعْبُر) على بداهة نور الدين وتفحصه الذكي للرجال ، حتى لو تدثّر بألف رداء علمي واختبأ خلف ألف ستار ..
إن الحادثة التي يرويها لنا شاهد عصره العماد الأصفهاني تحمل دلالتها على علميّة الرجل ورفضه للخرافة ، وفهمه العميق للرجال : « في رجب ـ يقول العماد ـ فوض إليّ نور الدين (إحدى مدارسه) وعوّل علي في التدريس والنظر في أوقافها، وكان الفقيه فيها أبا البركات خضر بن شبل الدمشقي ، فلما توفي (سنة ٥٦٢ هـ) خلّف ولدين، واستمرا فيها على رسم الوالد، ثم خدعهما رجل مغربي استهواهما بعمل الكيميا[15]، ونهج بهما سبيل الإغواء فصاهراه وظاهراه، فغاظ نور الدين هذا المعنى وأحضرهما واستوفى عليهما أنواع التوبيخ، فلم يجد من أحدهما لأمره سمع المصيخ فقال لي: تسلّم الموضوع، ورتبني فيه مدرساً وناظراً»[16].

ـ ٢ ـ

في مقابل هذا الانفتاح على العلماء الجادّين ، وهذا التقريب لهم والتقرب إليهم ، وفي مقابل ذلك الترحيب بمعطيات العلم وثمار العقل ، كان نور الدين ـ كما يصفه كثير من المؤرخين ـ : « قليل الابتهاج بالشعر » [17] ، لا عن نفور من الشعر

---

(١٤) اي المخادع .

(١٥) يوم كانت (الكيميا) دجلاً وشعوذة وسحراً ومحاولة لاستخراج الذهب من التراب بمعونة الجن والشياطين !!

(١٦)البرق ص ١١٩ ـ ١٢٠ .

(١٧) ابو شامة : الروضتين ١/١/٥٨ ، ١/٥٨٢ ـ ٥٨٣ .

ذاته وعدم توافق مع معطياته الوجدانية التي تهز العقول والقلوب ؛ وإنما عن نفور من الشعراء أنفسهم ومن مزايداتهم المعروفة على حساب الحق ، وتملقهم الزائف للسلطة على حساب العدل .. إن الشعراء الذين وصفهم كتاب الله بأنهم في كل وادٍ يهيمون ، وأنهم يقولون مالا يفعلون ـ واستثنى منهم بطبيعة الحال أولئك الملتزمين الذين يحملون أمانة الكلمة للدفاع عن مواقع الإيمان والانتصار على الظلم ـ سرعان ما يتهافتون على أولئك الذين يدفعون أكثر ، والسلطة دائماً هي التي تدفع أكثر ، ومن ثم فإنهم من أجل أن يحظوا بهذا (الأكثر) يكونون على استعداد دائم لتسخير قدراتهم الإبداعية في تبرير كل ما يصدر عن السلطة حتى لو كان ظلماً وفسوقاً وطغياناً ؛ ويغدو شعرهم ـ في كثير من الأحيان ـ كذباً مستوراً بأردية الفن وألوانه وتزويقاته ، على حساب الحقيقة التي يتوجب على العقل البشري الذي يحترم نفسه أن يكشف النقاب عنها ، وعلى حساب العدل الذي سيضيع في غمار معادلة قاسية مستهجنة : حشدٌ كبير من الناس يتضوّرون جوعاً في القاعدة ، وقلة قليلة تهتز في القمة ، لقصيدة مدح تقال فتجعل الأسود أبيض والأحمر أخضر ، وتنتهي بدفع صرّة من الذهب إلى (البوق) الذي أطلقها دون أن يكون لهذه الآلة المعدنية أية علاقة حقيقية بوجدان الشاعر وفكره واهتماماته .

ونور الدين ـ كما عرفناه ـ يكره الكذب والتزوير ويرفض الظلم والتبذير .. إنه موقع الإيمان الجادّ الذي لا إيمان بدونه : كراهية الكذب ، ورفض الظلم ، والسعي الدائم ـ بالمقابل ـ من أجل استشراف قمم الحق والعدل .. إن نور الدين هنا يذكرنا بعمر بن عبد العزيز ، لا في كراهيته للتجربة الشعرية ، ولكن بتوجّسه من ملق الشعراء وضعفهم ومزايداتهم . إن ابن عساكر ـ الشاهد المعاصر الآخر ـ يبيّن لنا بكلمات حاسمة لماذا قلّ ابتهاج نور الدين بالشعر ، وهو لا يسميه شعراً ولكنه يسميه مدحاً ، ولهذا دلالته الساخرة في هذا المجال .. إنه قليل الابتهاج « لما علم من تزايد الشعراء !! وهي طريقة عمر بن عبد العزيز »[١٨] .

---

(١٨) الروضتين : ١/٥٨٤ .

ومن ثم فإن نور الدين ــ كسلفه ــ لم يكن يشرع الأبواب في وجوههم ، بل لم يكن يعطيهم !! وقد سئل يحيى بن محمد الوهراني في بغداد عن نور الدين، فأجاب في إحدى مقاماته : « هو سَهم للدولة سديد٠وركن للخلافة شديد ٠ وأمير زاهد ٠ وملك مجاهد ٠٠٠ غير أنه عرف بالمرعى الوبيل لابن السبيل ، وبالمحل الجديب للشاعر الأديب ٠٠ (فليس) لشاعر عنده من نعمة تجزى »[19] ٠ وعبارة (غير أنه ٠٠٠) التي ترد بعد عبارات المديح تلك توحي بأن موقفه هذا لم يكن مرضياً عنه من الجميع ٠٠ فهناك دائماً من يريد أن (يأخذ) على حساب أي شيء في عصر كانت آذان هؤلاء قد اعتادت عبارة (أعطوه ألف دينار ٠٠٠) أو عبارة (سل ما شئت) !!

ومن بين هؤلاء الشاعر أسامة بن منقذ الذي يمدحه ببيتين من الشعر يتضمنان غمزاً مستوراً لموقف نور الدين من عطاء الشعراء :

سلطاننا زاهد والناس قد زهدت ... له فكل على الخيرات منكمش
أيامه مثل شهر الصوم طاهرة ... من المعاصي وفيها الجوع والعطش

لكن أبا شامة ، المؤرخ الدمشقي ، يتصدى بنفسه للردّ على الرجلين :صاحب المقامة وصاحب القصيدة ، ولفضح الازدواجية التي يعانيها كثير من الشعراء ، ولبيان حقيقة الموقف العظيم فيقول : « ما كان ــ نور الدين ــ يبذل أموال المسلمين إلاّ في الجهاد وما يعود نفعه على العباد ٠ وكان كما قيل في حق عبد الله بن محيريز ــ وهو من سادات التابعين في الشام ــ انه كان جواداً حيث يحب الله ، وبخيلاً حيث تحبّون !! وأما شعر ابن منقذ فلا اعتبار به (!!) فهو القائل في ليلة الميلاد يمدح نور الدين :

في كل عام للبرية ليلةٌ ... فيها تشب النار بالإيقاد
لكن لنور الدين من دون الورى ... ناران : نار قرى ونار جهاد !!٠٠٠الخ

---

(19) أبو شامة : الروضتين ٥٨٤/١ ٠

وقد تقدّم من شعر ابن منير وابن القيسراني والعماد وغيرهم من مدح نور الدين بالكرم والجود ، ما قليل منه يردّ قول الوهراني وابن منقذ ... وإنما الشعراء — وأكثر الناس — كما قال الله تعالى في وصف قوم : (فإن أعطوا منها رضوا وإن لم يُعطوا منها إذا هم يسخطون) [٢٠] وما كل وقت ينفق العطاء » [٢١] .

ولم يكن أي من الرجلين ، عمر أو نور الدين ، يكره الشعر لذاته ، كأسلوب فني في التعبير .. لقد كانت تجربة عمر بن عبد العزيز قد بلغت من الرقة والشفافية ما جعلها تبلغ وجدانية الشعر بل تتجاوزها إلى أمداء أبعد بكثير .. بل كان في صباه يقول الشعر ويلحنه !! ورجل كهذا لا يمكن بشكل من الأشكال أن يكون في حالة خصام مع الشعر .. أما نور الدين فإن معاصريه أنفسهم يحكون لنا كيف كان يتعشق الشعر .. الشعر الملتزم .. وكيف كان يطلب من بعضهم أحياناً أن يسمعوه ، في المواقف والمناسبات ، شعراً !!

يقول العماد : سألني نور الدين أن أعمل (مثنويات) شعرية في معنى الجهاد على لسانه فقلت :

للغـزو نشاطي ، وإليـه طـربي ... مالي في العيش غـيره مـن أرب
بالجدِ وبالجهاد نجح الطلب ... والراحـة مستودعـة في التعبِ

* * *

لا راحة في العيش سوى أن أغزو ... سيفي طربـاً إلى العـلى يهتز
في ذل ذوي الكفـر يكون العزّ ... والقدرة في غـير جهـاد عجـزُ

* * *

أقسمت سوى الجهـاد ما لي أرب ... والراحة في سـواه عنـدي تعب
إلا بالجـد لا ينـال الطلب ... والعيش بلا جـدّ جهـاد لعب [٢٢]

---

(٢٠) سورة التوبة ، آية ٥٨ .

(٢١) أبو شامة : الروضتين ١/٥٨٤ — ٥٨٥ .

(٢٢) أبو شامة : الروضتين ١/٥٢٨ .

ويقول في موضع آخر : كنت راكباً مع نور الدين في أعقاب إحدى جولاته الظافرة ضد الصليبيين عند طبرية ، فسألني : كيف تصف ما جرى ؟ فمدحته بقصيدة مطلعها :

عقدت بنصرك راية الإيمان وبدت لعصرك آية الإحسان ..الخ[٢٣]

ولكن ما هو أكثر دلالة من هذا كله أن يشهد عصر نور الدين تألق عدد من كبار الشعراء ، كان يقف في قمتهم ابن القيسراني [٢٤] والعماد الأصفهاني [٢٥] وابن منير [٢٦] وابن الدهان الموصلي[٢٧] .. أولئك الذين وجدوا في دولة

---

(٢٣) الروضتين ٥٢٨/١ ــ ٥٢٩ وانظر ٥٤٣/١ .

(٢٤) محمد بن نصر الله العكاوي ويقال له ابن الصغير . ولد بعكا سنة ٤٧٨ هـ ، ونشأ بقيسارية الساحل فلذلك نسب إليها . ولما استولى الصليبيون على الساحل انتقل إلى حلب ومنها إلى دمشق فأخذ الأدب عن توفيق بن محمد (ت ٥١٦ هـ) . وكان القيسراني أديباً فاضلاً ، شاعراً مترسلا ، بليغ النظر ، مليح المعاني ، وله اطلاع واسع في علم النجوم والأحكام والتاريخ ، توفي سنة ٥٤٧ هـ (سبط : مرآة ٢١٣/٨ ــ ٢١٤ ، وانظر الطباخ : تاريخ حلب ٢٣٧/٤ ــ ٢٣٩) .

(٢٥) انظر الفصل الثاني من هذا البحث .

(٢٦) أحمد بن منير الشاعر الطرابلسي ، ولد سنة ٤٧٣ هـ بناحية طرابلس وكان ابوه منير ينشد الأشعار ويتغنى بها في أسواق طرابلس ، ونشأ ابنه فحفظ القرآن وقرأ الأدب والعربية واللغة وقدم إلى دمشق فأقام بها . وكان حينئذ خبيث اللسان كثير الفخر بشعره ويستعمل الألفاظ العامية فيه ، فلما كثر منه ذلك حبسه بوري ابن طغتكين حاكم دمشق ، ثم هرب إلى حلب ، وجاء مع نور الدين عندما حاصر دمشق ، ثم قفل عائداً إلى حلب ومات فيها سنة٥٤٨هـ . وكان شاعراً مجيداً هجاءً ، معارضاً لمحمد بن القيسراني الشاعر (سبط : مرآة ٢١٧/٨ ــ ٢١٨ وانظر الطباخ : تاريخ حلب ٢٣١/٤ ــ ٢٣٧) .

(٢٧) عبيد الله بن اسعد المعروف بابن الدهان الموصلي ، فقيه فاضل وشاعر مبدع ، كان مدرساً بحمص . ذكره العماد في خريدته فأكثر الثناء عليه وعلى شعره (أبو شامة : الروضتين ٣٢٢/١/١) .

نور الدين الأرضية الصالحة لازدهار الشعر الذي طرق أبواباً واسعة ، وخطا إلى آفاق بعيدة المدى ما كان لهم أن يرحلوا إليها بقصائدهم المبدعة لولا أن لقوا من الرجل إعجاباً وتوافقاً وانسجاماً ..وليس لنا هنا أن نتحدث عن هؤلاء الشعراء وعن معطياتهم لئلا يخرج بنا ذلك عن الموضوع ، ولنا أن نحيل القارىء إلى دواوينهم نفسها وإلى كتابَي : الخريدة للأصفهاني [٢٨] والدولتين لأبي شامة ، ليرى بأم عينه كيف يكون الإبداع [٢٩] .

— ٣ —

في الجهة الأخرى ، لم يقف نور الدين في تعامله مع العلماء عند حدود التشجيع الأدبي ، والعلاقة الودية ، والكلمة الطيبة ، ولكنه تجاوز هذا — على أهميته — إلى البذل والعطاء ، فكان يمنحهم بسخاء مقدراً أن هذه الفئة الممتازة يجب أن تظل عزيزة الجانب ، وألاّ تلجئها الضرورات القاسية إلى أن تنزل درجات إلى أسفل فتحني رأسها وتلوي فكرها ، أو تتملق وتداهن وتغش وتكذب طلباً للأجر وسداً للحاجة ، ويدرك في الوقت نفسه كم هي عظيمة الجهود التي يبذلها هؤلاء الرجال، وطيّبة حلوة الثمار التي تنضجها شجرتهم الخضراء ..

إن أمة تريد من علمائها أن يعطوها ثمار قرائحهم صافية خالصة ، عليها ألاّ تبخل عليهم بما يسدّ حاجاتهم الضرورية ويفيض عليها لكي لا تشدّهم إلى أسفل ، ولكي تظل رؤوسهم مرفوعة إلى فوق ، فلا يشغلهم شيء في بحثهم عن الحقيقة ، ولا تتدلى بهم حاجة عن المواقع التي بلغوها بعلمهم .. هناك حيث وازن الرسول ﷺ مدادهم بدم الشهداء وحيث قدرهم الله حق قدرهم عندما أشار إلى خشيتهم — بالعلم — إياه .. سبحانه .

---

(٢٨) قسم شعراء الشام ، جزء ١ — تحقيق شكري فيصل .

(٢٩) وانظر كذلك : بدوي : الحياة العقلية.

كان نور الدين إذا أعطى أحداً منهم الشيء الكثير يقول : « هؤلاء جند الله وبدعائهم ننصر على الأعداء ، ولهم في بيت المال حق أضعاف ما أعطيهم ، فإذا رضوا منا ببعض حقهم فلهم المنّة علينا »(٣٠).. وقال له أصحابه يوماً : « إن لك في البلاد إدرارات كثيرة ، وصلات عظيمة للفقهاء والفقراء والصوفية والقراء ، فلو استعنت بها الآن لكان أمثل !! فغضب من هذا وقال : والله إني لا أرجو النصر إلا بأولئك.. كيف أقطع صلات قوم يقاتلون عني وأنا نائم في فراشي بسهام لا تخطىء ؛ وأصرفها إلى من لا يقاتل عني إلا إذا رآني بسهام قد تخطىء وتصيب ؟ ثم إن لهؤلاء القوم نصيباً في بيت المال أصرفه إليهم ، فكيف أعطيه غيرهم ؟ »(٣١) .

وقد وسّع نور الدين نطاق (الخدمات العلمية) للدولة ومنح الضمانات الكافية للمدرسين والدارسين على السواء ، ومكّن العلماء ، بماخصصه لهم من أعطيات ، من أن (يتفرغوا) لمهامهم العلمية ، وسار في هذا الميدان على الطريق الذي كان سلفه عمر بن عبد العزيز قد قطع فيه خطوات مديدة .

بنى في كثير من بلاده مكاتب للأيتام لتعليمهم الخط والقراءة ، وأجرى عليهم وعلى معلميهم الجرايات الوافرة ، وبنى ــ أيضاً ــ مساجد كثيرة ووقف عليها وعلى من يقرىء بها القرآن ؛ وهذا فعل" ــ يقول ابن الأثير ــ لم يسبق إليه(٣٢). ووقف وقوفاً أخرى على معلمي الخط والقرآن وساكني الحرمين(٣٣) .

ويحدثنا ابن جبير ، الذي زار دمشق بعد سنوات قلائل من وفاة نور الدين ، عن جوانب عديدة من نشاطات الدولة في سبيل توسيع خدماتها في حقل التعليم . ولا ريب أن مشاهداته هذه تنسحب على عصر نور الدين ، واضع الأسس الأولى

---

(٣٠) ابن كثير : البداية ٢٨١/١٢ ابن الأثير : الباهر ص ١٧٣ .

(٣١) ابن الأثير : الباهر ص ١١٨ ، الكامل ٢٩٦/١١ ، ابن العديم : زبدة٢/٣١٤ ابن خلكان : وفيات ١٨٧/٥ ــ ١٨٨ .

(٣٢) الباهر ص ١٧٢ ابن كثير : البداية ٢٧٨/١٢ .

(٣٣) أبو شامة : الروضتين ١٠/١/١ ابن كثير : البداية ٢٧٨/١٢ .

للسياسة التعليمية التي اعتمدها خلفه الناصر صلاح الدين .. ففي الجامع الأموي شاهد ابن جبير حلقات عديدة لتدريس الطلبة ، وكان مدرسوهم يتقاضون على مهمتهم أعطيات ومخصصات كبيرة . وفي الجانب الغربي من الجامع أقام نور الدين للمالكية زاوية للتدريس يجتمع إليها طلبة المغرب (المغاربة)ولهم إجراء معلوم من أوقاف كثيرة أوقفها نور الدين على تلك الزاوية بلغت الخمسمائة دينار في العام الواحد . وقد خصص لكل سارية من سواري الجامع وقف معلوم يأخذ منه المدرس الذي يستند إليها وهو يجتمع بحلقته للمذاكرة والتدريس .. وثمة وقف كبير للأيتام من الصبيان يتسلّم منه معلمهم ما يسدّ حاجته وينفق منه على الصبيان ما يقوم بهم وبكسوتهم « وهذا من أغرب ما يحدث به من مفاخر هذه البلاد »(٣٤).

وما من مشهد من مشاهد دمشق إلاّ وله أوقاف معينة من بساتين أو أراضٍ أو عمارات « حتى كادت الأوقاف تستغرق جميع ما فيه » ، وما أن يتم بناء مدرسة أو مسجد أو رباط حتى يعيّن لها السلطان أوقافاً تقوم بها وبساكنيها والمقيمين فيها « وهذه أيضاً من المفاخر المخلّدة »(٣٥) .

وفي المدرسة الحلاّوية بحلب ، التي يصفها ابن شداد بأنها « من أعظم المدارس صيتاً وأكثرها طلبة وأغزرها جامكية»(٣٦)،كان نور الدين يقدم في السابع والعشرين من كل رمضان طعاماً يجمع عليه المدرسين . وورد في شرط الواقف أن يحمل في كل شهر رمضان ثلاثة آلاف درهم لكبير المدرسين يصنع بها للفقهاء طعاماً ، وكان المدرسون يتسلمون مخصصات أخرى تمكنهم من شراء الملابس والدواء والفاكهة ، هذا فضلاً عما كان يقدم لهم في المناسبات من طعام ونقود (٣٧) .

---

(٣٤) رحلة ابن جبير ص ٢٤٥ ، ٢٥٧ .

(٣٥) نفسه ص ٢٤٨ .

(٣٦) اي مخصصات .

(٣٧) الاعلاق الخطيرة ، قسم حلب ١١٠ ــ ١١١ .

وتأسّت المرأة بالرجل فراحت تنفق هي الأخرى الأموال الواسعة في بناء المدارس والربط والمساجد وتعين لها من أموالها الأوقاف . بينما راح الأمراء يتسابقون في هذا الطريق ، كل يبني ويعمر ويقف الأوقاف [٣٨] . وليس ثمة غرابة في هذا إذا كانت أوقاف نور الدين الشخصية وحده تدرّ في الشهر الواحد ما يقارب العشرة آلاف دينار [٣٩] « ليس فيه ملك غير صحيح شرعاً ، ظاهراً وباطناً ، فإنه وقف ما انتقل إليه وورث ثمنه ، أو ماغلب عليه من بلاد الفرنج وصار سهمه »[٤٠]. أما ما أوقفه من أموال الدولة في المنشور الذي أصدره عام ٥٥٢هـ فحسب فقد قدر ثمنه بمائتي ألف دينار وريعه السنوي بثلاثين ألف دينار ، كان قد خصص قسم كبير منه على مدارس المذاهب الأربعة وأئمتها ومدرسيها وفقهائها ، وعلى تعليم الأيتام وسكنى الغرباء من طلبة العلم [٤١] « ولو اشتغلت ـ يقول العماد ـ بإحصاء وقوفه وصدقاته في كل بلد لطال الكتاب ولم أبلغ إلى أمد » [٤٢] .

ويختتم ابن جبير حديثه عن هذا الجانب المهم في دمشق فيقول : « ومرافق الغرباء بهذه البلدة أكثر من أن يأخذها الاحصاء ، ولا سيما لحفّاظ كتاب الله والمنتمين لطلب (العلم) فالشأن بهذه لهم عجيب جداً . وهذه البلاد المشرقية كلها على هذا الرسم ، لكن الاحتفال بهذه البلدة أكثر والاتساع أوجد . فمن شاء الفلاح من نَشَأة مغربنا فليرحل إلى هذه البلاد ويتغرّب في طلب العلم فيجد الأمور

---

(٣٨) ابن جبير : رحلة ص ٢٤٨ .

(٣٩) اعتماداً على رواية ابن الأثير التي يقول فيها نقلاً عن احد العارفين بأعمال الشام « إن وقوف نور الدين في وقتنا هذا ـ سنة ٦٠٨ هـ ـ كل شهر تسعة آلاف دينار » الباهر ص ١٧٢ .

(٤٠) ابن الأثير : الباهر ص ١٧٢ .

(٤١) أبو شامة : الروضتين ٣٨/١/١ ـ ٤١ وانظر ابن كثير : البداية ٢٦٣/١٢ والعماد : البرق ص ٩٨ .

(٤٢) البرق ص ١٤٤ .

المعينات كثيرة . فأولها فراغ البال من أمر المعيشة [٤٣] ، وهو أكبر الأعوان وأهمها »[٤٤] .

- ٤ -

من أجل ذلك شهدت بلاد الشام في عصر نور الدين نشاطاً لم تشهد له مثيلاً من قبل إلا لماماً ، وتدفق العلماء على حواضر الدولة وبخاصة حلب ودمشق من أطراف الأرض ، وقصدوا الرجل « من البلاد الشاسعة » [٤٥] ، حتى أن بلاد الشام كانت ، كما يصفها أبو شامة : « خالية من العلم وأهله ، وفي زمانه صارت مقراً للعلماء والفقهاء والصوفية »[٤٦].

وكانت وجهة (الهجرة العلمية) لصالح دولة نور الدين ، حيث غدت حلب أولاً ودمشق فيما بعد ، هدف الشيوخ والعلماء والدارسين . فالدولة التي تهيىء الأرضية الأكثر صلاحية للعطاء العلمي،وتمنح المال الأكثر للبحث والدراسة والتفرغ، وتنشىء المؤسسات اللازمة لإبداع العلماء والباحثين ، هي التي تستقطب العقول الكبيرة في كل زمان ومكان . ولقد أدرك نور الدين أهمية هذه الهجرة العلمية فعمل بنفسه على توسيع نطاقها وراح يكاتب العلماء من شتى البلاد البعيدة والقريبة ، ويستقدمهم إليه ويبالغ في إكرامهم والإحسان إليهم [٤٧] .

استقدم ـ على سبيل المثال ـ الفقيه الإمام برهان الدين أبا الحسن علي بن الحسن البلخي الحنفي من دمشق ، حال استكمال بناء المدرسة الحلاّوية في حلب ،

---

(٤٣) وهو ما يسمى اليوم بالتفرغ العلمي وانظر : ملامح الانقلاب في خلافة عمر ابن عبد العزيز ، فصل (التربية والتثقيف) للمؤلف.

(٤٤) رحلة ابن جبير ص ٢٥٨ .

(٤٥) ابن الأثير : الباهر ص ١٧١ ـ ١٧٢ .

(٤٦) الروضتين ١/١/٣٤ .

(٤٧) ابن العديم : زبدة ٢/٢٩٣ ـ ٢٩٤ ، ابن واصل : بني ايوب ١/٢٨٣ .

لغرض التدريس فيها . وكان قد تفقه فيما وراء النهر ، وبغداد ، والحجاز ، ثم قدم دمشق عام ٥١٩ هـ وجلس للوعظ ، وكان يتميز بصدق كلماته فلقيت قبولاً حسناً في قلوب الناس ، وكان حسن الاعتقاد زاهداً في الدنيا ، وقفت عليه الأوقاف الكثيرة ، وكثرت الأعطيات فلم يلتفت إليها (٤٨) . وقد قام البلخي إثر توليه الحلاوية ، باستدعاء الفقيه برهان أبا العباس أحمد السلفي — من دمشق أيضاً — ليكون نائباً عنه فيها ، فاعتذر عن القدوم فسيّر إليه برهان الدين كتاباً ثانياً يستدعيه فيه ويشدد عليه في الطلب ، فقدم الرجل ولم يزل نائباً عن برهان الدين في المدرسة المذكورة حتى وفاته ، حيث حزن عليه برهان الدين حزناً شديداً ، ولم يزل — الأخير — مدرساً هناك إلى أن غادر حلب إلى دمشق ، بسبب خلاف وقع بينه وبين ابن الداية نائب حلب ، وما لبث أن توفي عام ٥٤٨ هـ . وحلّ محله في التدريس عبد الرحمن ابن محمود بن محمد الغزنوي حتى وفاته سنة ٥٦٤ هـ . ثم تعاقب عليها المدرسون القادمون من جهات شتى ، وكان من بينهم الإمام رضي الدين محمد بن محمد السرخسي صاحب كتاب (المحيط) ، وكان في نسانه لكنة غير عربية ، فكتب نور الدين إلى عالي بن إبراهيم الحنفي الغزنوي البلقي ، وكان في الموصل ، يطلب منه الوصول إلى حلب ليوليه التدريس في المدرسة المذكورة . واتفق أن أبا بكر بن مسعود الكاساني — الملقب علاء الدين — أحد أمراء كاسان في اقليم فرغانة من بلاد المشرق ، سيّر رسولاً من سلاجقة الأناضول إلى نور الدين فعرض عليه المقام بحلب والتدريس في المدرسة الحلاّوية فأجابه الأمير إلى ذلك ووعده بالعودة إلى حلب بعد تسليم جواب رسالته ، وقفل عائداً بعد أداء مهمته تلك ، فاتفق قدومه مع قدوم عالي الغزنوي من الموصل ، فما كان من نور الدين — من أجل الإفادة من كفاءة الرجلين — إلاّ أن أمر بنقل الفقيه الحسين بن محمد بن أسعد المنعوت بالمنجم من مدرسة الحدادين بحلب إلى دمشق وعين عالي الغزنوي مكانه حيث ظل هناك

---

(٤٨) سبط : مرآة ٢١٩/٨ — ٢٢٠ .

حتى وفاته عام ٥٨١ هـ أو ٥٨٢ هـ ، بينما أقرّ علاء الدين على التدريس في الحلاوية وظل هناك يمارس مهمته التدريسية حتى وفاته عام ٥٨٧ هـ ، أي بعد ثمانية عشر عاماً من وفاة نور الدين . وقد وصفه ابن شداد بأنه « كان من ذوي التحصيل والتصانيف البديعة في أحكام الشريعة والكتب التي سار في الآفاق ذكرها »(٤٩) . تفقه في بلاد المشرق على محمد بن أحمد السمرقندي وقرأ عليه معظم تصانيفه فزوجه شيخه هذا بابنته فاطمة ، الفقيهة العالمة ، وقد برع علاء الدين في علمي الأصول والفروع وصنف كتاب (البدائع) في شرح (التحفة) التي ألفها شيخه (٥٠) .وكانت زوجته فاطمة على قدر كبير من العلم والتقوى ، تفقهت على أبيها وحفظت مصنفه (التحفة) وكانت تنقل المذهب نقلاً جيداً . وكان زوجها ربما يهمّ بالفتوى فترده إلى الصواب وتعرفه وجهة الخطأ فيرجع إلى قولها . وكانت تمارس الافتاء وكان زوجها يحترمها ويكرمها ، وكانت الفتوى تخرج بخطها وخط أبيها وزوجها !! وهي التي سنّت تقديم طعام الافطار في رمضان لفقهاء المدرسة الحلاوية في حلب .. واستمر ذلك إلى اليوم(٥١) .

وعندما تم استكمال المدرسة العصرونية في حلب عام ٥٥٠ هـ استدعى لها نور الدين من إحدى نواحي سنجار ــ غربي الموصل ــ الشيخ الإمام شرف الدين ابن أبي عصرون الذي كان ــ بحق ــ من أعيان فقهاء عصره . وأراد نور الدين الإفادة من كفاءة الرجل إلى المدى الأقصى فبنى له مدارس عدة في منبج وحماة وحمص وبعلبك ودمشق ، وفوّضه أن يولي التدريس فيها من يشاء . ولم يزل ابن

---

(٤٩) الاعلاق الخطيرة ، قسم حلب ص ١١٠ ــ ١١٢ ، ١١٤ ــ ١١٥ ، ابن العديم: زبدة ٢/٢٩٣ ــ ٢٩٥ .

(٥٠) الطباخ : تاريخ حلب ٤/٣٠٥ ــ ٣٠٨ .

(٥١) نفسه ٤/٢٧٣ ــ ٢٧٤ .

أبي عصرون يتولى أمر مدرسته في حلب إدارة وتدريساً إلى أن غـادر حلب إلى دمشق سنة ٥٧٠ هـ[٥٢] .

وفي عام ٥٤٤ تم بناء المدرسة النفرية في حلب لتدريس المذهب الشافعي ، واستدعي للتدريس فيها الفقيه المشهور قطب الدين مسعود النيسابوري مصنف كتاب (الهادي) في الفقه [٥٣] . وكان النيسابوري قد بدأ ممارسة نشاطه العلمي في نيسابور ومرو ، وسمع الحديث على عدد من الشيوخ ، وقرأ القرآن والأدب على والده ، والتقى بأبي نصر القشيري ودرّس بالمدرسة النظامية في نيسابور نيابة عن ابن الجويني ، ثم سافر إلى بغداد حيث مارس الوعظ والكلام في المسائـل ، فلقي هناك قبولاً حسناً ، وغادرها إلى دمشق عام ٥٤٠ فدرّس في مدارسها ووعظ في مساجدها فأقبل الناس عليه ، ومن هناك استدعي إلى حلب للتدريس في المدرسة المذكورة ، وكان من العلم والدين والصلاح والورع بمكان كبير[٥٤] . ووصفه العماد الأصفهاني بأنه « فقيه عصره ونسيج وحده »[٥٥] . وقد أرسله نور الدين ثانية إلى دمشق سنة ٥٦٨ هـ لاستئناف نشاطه التدريسي هناك ، فدّرس في زاوية الشافعية بمدرسة الجاروخ شمالي الجامع الأموي ، واجتمعت طلبة العلم عليه . ومن أجل الإفادة من فقهه قرر نور الدين بناء مدرسة كبيرة للشافعية يتولى الرجل التدريس فيها ، وقد شرع بالبناء فعلاً ، لكن الأجـل أدركـه قبـل استكمـال عمارتها [٥٦] ، وتوفي النيسابوري بعده بحوالي عشر سنين ٥٧٨ هـ .

---

(٥٢) ابن شداد : الاعلاق ، قسم حلب ص ٩٨ ـ ٩٩ ابن العديم : زبدة ٢٩٣/٢ ـ ٢٩٤ .

(٥٣) ابن العديم : زبدة ٢٩٣/٢ ـ ٢٩٤ وانظر مخطوطة كنوز الذهب ، ورقة ٦٥ ظ ، عن المصدر السابق ، هامش ٤ ، ٢٩٤/٢ .

(٥٤) ابن شداد : الاعلاق ، قسم حلب ص ١٠٠ ـ ١٠١ .

(٥٥) البرق ص ١٣٤ ـ ١٣٥ .

(٥٦) نفسه ، أبو شامة : الروضتين ٥٤٤/١ ـ ٥٤٥ ، سبط : مرآة ٢٩٤/٨ .

وعندما أكمل الأمير جمال الدين شاذبخت ــ الخادم الهندي ، نائب نور الدين في حلب ــ بناء المدرسة المعروفة باسمه (الشاذبختية) استدعى من سنجار نجم الدين مسلم بن سلامة ليوليه تدريسها [٥٧] .

وهناك سعيد بن سهل أبو المظفر المعروف بالفلكي النيسابوري المتوفى سنة ٥٦٠ هـ ، والذي درس الحديث وأقام في خوارزم وزيراً لأميرها ، ورحل إلى بغداد مراراً وحدّث بها عند جماعة من الشيوخ . ثم سافر إلى دمشق في طريقه لزيارة القدس فقدم في أيام نور الدين الذي أكرم وفادته ولما طلب النيسابوري العودة إلى بلاده لم يسمح له نور الدين وأمسك به وأنزله الخانقاه السميساطية وجعله شيخها فأقام بها حتى وفاته . وقد روى عنه المحدث الشهير أبو القاسم بن عساكر [٥٨] .

ويذكر المؤرخ البغدادي ابن الجوزي كيف أن نور الدين «كاتبه مراراً» [٥٩] . ويبدو أن الرجل لم يتح له السفر إلى الشام تلبية لرغبة نور الدين بينما أتيح لكثيرين غيره من العلماء . ونحن نستطيع بمجرد إلقاء نظرة على أسمائهم أن نتعرّف على الأقاليم التي جاؤوا منها أو البلدان التي غادروها إلى دولة نور الدين .

وغير أولئك الذين استقدمتهم الدولة كثيرون ممن جذبتهم الظروف المشجعة في دولة نور الدين والذين تدفقوا على حواضرها ، وملأوا بنشاطهم العلمي والأدبي مؤسساتها التعليمية ، وإداراتها كذلك ، حتى صارت بلاد الشام في عصره ــ كما يقول أبو شامة ــ « مقراً للعلماء والفقهاء والصوفية » [٦٠] .

وفي قمة هؤلاء يقف ، ولا ريب ، الأديب المؤرخ الشاعر العماد الأصفهاني الذي سبق وأن عرفنا كيف قدم إلى دمشق عام ٥٦٢ هـ وكيف عرّفه كمال الدين

---

(٥٧) ابن شداد : الاعلاق ، قسم حلب ص ١١٣ .

(٥٨) النعيمي : الدارس ١٥٣/٢ .

(٥٩) المنتظم ٢٤٩/١٠ .

(٦٠) الروضتين ٣٤/١/١ .

الشهرزوري قاضي القضاة بنور الدين محمود فاعتمده الأخير في عديد من المهام الإدارية والسياسية والإنشائية ، فضلاً عن الإفادة من قدراته العلمية والتدريسية حيث ولي المدرسة النورية التي سميت ــ بعدئذ ــ بالمدرسة العمادية نسبة إليه . وليس ثمة من لا يعرف معطيات العماد المتنوعة الخصبة في حقول التاريخ والأدب والشعر والتي تم انجاز الكثير منها في عصر نور الدين نفسه : الخريدة ، البرق الشامي ، تاريخ دولة آل سلجوق ، زبدة النصرة ، الفيح القسي .. ثم معطياته الشعرية التي لا تقل جمالاً وإبداعاً عن شعر أيّ من معاصريه الكبار كابن القيسراني وابن منير [٦١] .

وغير العماد تتردد أمامنا أسماء كثيرة أخرى ، في حقول المعرفة كافة :

الحسن بن أبي الحسن صافي مولى الأرموي البغدادي ، ملك النحاة كما يسميه سبط ابن الجوزي .. ولد ببغداد سنة ٤٨٩ هـ وقرأ النحو وأصول الفقه على عدد من الأساتذة ثم دخل الشام واستوطن دمشق ، وله ديوان شعر جيد ومدائح في وصف النبي ﷺ . كان يضم من الذهب يده على المائة والمائتين ويسمى وهو صفر اليدين . وقد عاش في ظل نور الدين إلى أن مات ، وكان يكتب إليه[٦٢] .

وأبو الفتح بنجه بن أبي الحسن الأشتري الفقيه .. كان معيداً بالنظامية .. سافر إلى دمشق وجمع لنور الدين سيرة مختصرة ، أفاد منها عدد من المؤرخين وبخاصة أبي شامة في كتابه (الروضتين)[٦٣] .

وأبو عثمان المنتجب بن أبي محمد البحتري الواسطي الواعظ .. ورد اربل

---

(٦١) لمزيد من التفاصيل عن حياة العماد وانتاجه انظر مقدمة كتاب (سنا البرق الشامي) الذي حققه وقدم له رمضان ششن ، وانظر كذلك : النعيمي الدارس ٤٠٨/١ ـ ٤١١ .

(٦٢) سبط : مرآة ٢٩٥/٨ ـ ٢٩٧ .

(٦٣) أبو شامة : الروضتين ٣٣/١/١ .

ووعظ بها ، وكان له قبول عظيم لدى الناس .. سافر إلى نور الدين في الشام طلباً للجهاد ، وأنفذ له الأخير جملة من المال ، لم يقبلها وردّها عليه [٦٤] .

ومحمد بن أبي القاسم البلخي .. أمير من أئمة فقهاء بلخ فيما وراء النهر ، قدم دمشق عام ٥٥٢ هـ ووعظ في جامعها عدة أيام والناس يستحسنون وعظه ويستظرفون فنه وسلاطة لسانه ، وسرعة جوابه وحدّة خاطره وصفاء حسّه [٦٥] .

وعماد الدين أبو بكر النوقاني الشافعي الفقيه .. كان من أكابر علماء الإسلام، من أصحاب محمد بن يحيى النيسابوري الشافعي رئيس الشافعية في أصفهان في عصره . وفد النوقاني إلى الشام في السنة التي افتتح فيها المسجد الجامع في الموصل، فسأله نور الدين أن يكون مدرساً فيه وكتب له منشوراً بذلك [٦٦] .

والشريف السيد بهاء الدين أبو الحسن الهادي بن المهدي بن محمد الحسيني الموسوي .. كان فصيح اللسان بالعربية والفارسية ، مكين المحل عند نور الدين ناله من الحزن لفقده والتأسف عليه ما تقتضيه مكانته عنده [٦٧] .

وشيخ الشيوخ عماد الدين أبو الفتح محمد بن علي بن حمويه .. وفد إلى الشام عام ٥٦٣ هـ .. كان كبير الشأن في ميدان التصوّف ، لم يكن له فيه يومذاك مساوٍ فأقبل عليه نور الدين ورغّبه في المقام بالشام ، وأحسن إليه ، وأمر بإصدار منشور يعيّن الرجل بموجبه في مشيخة صوفية الشام [٦٨] .

وابن عساكر ثقة الدين أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله الدمشقي الشافعي الحافظ .. من أصحاب الحديث .. لقيه العماد بدمشق وسمع عليه من (تاريخ دمشق) الذي صنّفه . وذكر السمعاني أنه رفيقه . وكان كثير العلم

---

(٦٤) الروضتين ١/١/٢٨ .

(٦٥) ابن القلانسي : دمشق ص ٣٤٧ ــ ٣٤٨ .

(٦٦) العماد : البرق ص ٩٨ ، أبو شامة : الروضتين ١/ ٤٨٠ .

(٦٧) ابن القلانسي : دمشق ص ٣٣٣ ــ ٣٣٤ .

(٦٨) العماد : البرق ص ١٣٥ ، أبو شامة : الروضتين ١/٥٤٥ ــ ٥٤٦ .

غزير الفضل حافظاً متقناً ثقة ديّناً خيّراً ، جمع بين معرفة المتون والأسانيد ، ورحل في طلب الحديث إلى بغداد وخراسان ثم عاد إلى دمشق •• وتوفي بها (سنة ٥٧١ هـ). وكان أول من تولّى مشيخة دار الحديث التي أنشأها نور الدين (٦٩) .

وعلي بن سليمان الأندلسي القرطبي •• الذي غادر الأندلس سنة ٥٢٠ هـ ورحل إلى بغداد وخراسان وتفقه على الإمام محمد بن يحيى صاحب الغزالي، وجماعة آخرين ، كما روى عنه عدد من العلماء المشهورين • قدم إلى دمشق والتقى بابن عساكر وزامله هناك ، وحدّث بالصحيحين • ندب للتدريس في حماة ثم انتقل إلى حلب ودرّس بها المذهب بمدرسة ابن العجمي ، وكان ثبتاً صُلباً في السنة •• توفي في حلب في آواخر سنة ٥٤٤ هـ (٧٠) .

ومحمد بن علي العظيمي الحلبي المؤرخ •• كانت له عناية بالتاريخ وتأليفه ، وكتب عدة مؤلفات وصفها ياقوت بأنها مختلّة كثيرة الخطأ •• وكان يعلم الصبيان في حلب •• مارس كتابة الشعر وسافر إلى دمشق مراراً (٧١) • وقد أفاد ابن العديم في كتابه (زبدة الحلب) ـ كما هو معروف ـ من تاريخ العظيمي إلى حد كبير •

ومجد الدين طاهر بن نصر الله بن جهبل •• كان عالماً زاهداً ، فاضلاً في الفقه والحساب والفرائض، سمع الحديث على أكثر من رجل، حدّث وصنّف لنور الدين كتاباً في فضل الجهاد •• درّس في حلب بالمدرسة النورية وكان من كبار الفقهاء الشافعية •• توفي سنة ٥٩٦ هـ (٧٢) .

والوجيه أسعد بن المنجا بن بركات بن المؤمل ، القاضي التنوخي ، المصري الأصل ، الفقيه الحنبلي •• ولد سنة ٥١٩ هـ ورحل إلى بغداد وتفقّه بها ، وبرع في

---

(٦٩) انظر : العماد : الخريدة ، قسم الشام ١/٢٧٤ـ٢٧٦ والنعيمي : الدارس ١/١٠٠ ـ ١٠١ .

(٧٠) الطباخ : تاريخ حلب ٤/٢٣٠ .

(٧١) الطباخ : تاريخ حلب ٤/٢٤٨ .

(٧٢) نفسه ٤/٣١٣ ـ ٣١٦ .

المذهب ، وسمع جماعة من الشيوخ .. وفي دمشق سمع على جماعة أخرى .. ولي قضاء حران في آخر دولة نور الدين ، وكان من أبرز الشيوخ الذين تفقه عليهم الشيخ عبد القادر دوست الحسني مؤسس الطريقة القادرية (٤٩١ ـ ٥٦١ هـ) ، وعبد الوهاب بن الشيخ أبي الفرج الشيرازي .. كما روى عنه عدد من الشيوخ أبرزهم ابن قدامة المقدسي المعروف بالشيخ الموفق . وقد كان لابن المنجا في ذريته عدد من العلماء . وقد توفي سنة ٦٠٦ هـ . ومن تصانيفه : (الكفاية في شرح الهداية) في بضع عشر مجلداً و (الخلاصة في الفقه) و (العمدة في الفقه) (٧٣) .

وفخر الدين رضوان بن محمد بن علي بن رستم الخراساني الساعاتي .. ولد ونشأ في دمشق ، وكان أبوه من خراسان ، انتقل إلى الشام وأقام بدمشق إلى أن توفي ، وهو الذي عمل الساعات بباب الجامع الأموي ووضعها أيام نور الدين ، وكان له منه المنح الكثيرة والراتب الدائم لملازمته الإشراف على تشغيل الساعات وصياناتها . ولما توفي خلّف ولدين : أحدهما بهاء الدين أبو الحسن علي ، أحد المشاهير في ميدان الشعر ، وثانيهما فخر الدين رضوان ، هذا ، الذي برع في الطب والأدب (٧٤) .

وهذا ينقلنا إلى ميدان الطب والمشتغلين فيه ، حيث نلتقي بحشد كبير نبغ في الشام أو قدم إليها من أقطار المشرق والمغرب .. الأمر الذي يدلنا على أن نور الدين لم يجنح في تبنّيه للحركة الثقافية باتجاه العلوم الشرعية وحدها ، وحتى الإنسانية بفروعها المختلفة ، بل حاول أن يوجد الأرضية الصالحة لنموّ كافة النشاطات العلمية بشقّيها الإنساني والعلمي ، النظريّ والتطبيقي ، على السواء .. وإنه في موقفه هذا إنما يصدر عن رؤيته الإسلامية التي ترى (العلم) بأبعاده المختلفة وسيلة لخدمة الحياة وترقيتها ، وأداة للكشف عن السنن والنواميس التي

---

(٧٣) النعيمي : الدارس ٢/١١٤ ـ ١١٥ .

(٧٤) ابن أبي اصيبعة : طبقات الأطباء ص ٦٦١ ـ ٦٦٢ .

تدخل في تركيب الكون والطبيعة والإنسان ، وصولاً إلى إيمان أشد عمقاً وإدراكاً بخالق السنن والنواميس .. وأحرى بالعلوم المحضة والتطبيقية ـ والطب من بينها ـ أن تجد أرضيتها الصالحة في دولة نور الدين مؤسس (البيمارستان) الشهير .. ومن ثم نلتقي بهذا الحشد الكبير من الأطباء ، هذه بعض نماذجه :

المهذب أبو الحسن علي بن عيسى النقاش .. من أهل بغداد .. سافر إلى الشام وشاع صيته هناك ولاسيما في علم الطب .. أنفق عليه نور الدين وأقطعه ضيعة وملّكه أخرى تقديراً لفضله وتثميناً لعلمه ، واعتمده طبيباً في البيمارستان الكبير .. وما من طبيب في بلاد الشام إلاّ يدعي أنه تلميذه .. وقد بلغ من التقدم عند نور الدين أن اعتمده ـ كذلك ـ للسفارة إلى الخليفة العباسي في بغداد ، ولكتابة الرسائل في ديوان الإنشاء . وقد كان لابن النقاش مجلس عام للمشتغلين في الطب (٧٥) .

أبو الفضل اسماعيل بن وقار الطبيب .. غادر دمشق إلى بغداد ودرس هناك على علمائها ، وقفل عائداً إلى دمشق ليعمل في خدمة نور الدين ، وأصبح لا يفارقه سفراً أو حضراً .. وكان يسلك من الخبرة والذكاء ما جعله يتقدم في صنعته ويحقق نجاحاً مشهوداً (٧٦) .

محمد بن عبيد الله بن المظفر الباهلي أفضل الدولة أبو المجد .. الذي عدّ من الحكماء المشهورين .. كان طبيباً حاذقاً ، له يد طولى في الهندسة والنجوم والموسيقى .. وله في سائر الآلات المطربة يد حاذقة ، وعمل (أرغناً) وبالغ في إتقانه . قرأ الطب على والده وغيره من الأطباء ولمع نجمه في دولة نور الدين ، وما لبث أن أوكل إليه أمر الإدارة الطبية في البيمارستان المشهور الذي أنشأه في دمشق، فأشرف هناك على علاج المرضى وأفاد من مجموعة الكتب الطبية التي أوقفها نور الدين في البيمارستان المذكور، وكان يجلس إليه هناك جماعة من الأطباء يستمعون إليه

---

(٧٥) ابن أبي أصيبعة : طبقات الأطباء ص٦٣٥ـ٦٣٧، العماد : البرق ص ١٤٢ .

(٧٦) ابن أبي أصيبعة : طبقات الأطباء ص٦٣٥ ، ابن القلانسي : دمشق ص٣٥٧ الطباخ : تاريخ حلب ٢٤٧/٤ .

حيناً وينصتون إلى قراءة التلاميذ في الكتب الطبية حيناً آخر ، ثم تبدأ بعدها المناقشات والمباحث في مختلف المسائل الطبية ، فلا يزال الرجل معهم بين مناقشة ودراسة وقراءة مدة ثلاث ساعات كل يوم ، يغادر بعدها إلى داره .. وقد توفي الباهلي بعد نور الدين بسنة واحدة (٧٧) .

رضي الدين الرحبي ، أبو الحجاج يوسف بن حيدرة .. من الأكابر في صناعة الطب ، والمشهورين من أهلها لدى الجميع .. كان كبير النفس عالي الهمة ، كثير التحقيق ، حسن السيرة ، محباً للخير وأهله ، شديد الاجتهاد في مداواة المرضى .. كان والده من بلدة الرحبة ومن المشتغلين أيضاً بصناعة الطب .. وكان مولد ابنه هذا في جزيرة ابن عمر حيث نشأ ، ثم انتقل إلى نصيبين والرحبة من مدن الجزيرة الفراتية فأقام هناك عدة سنين ، ثم سافر إلى بغداد ومصر وغيرهما ،واشتغل في ميدان الطب وبرع فيه . وكان وصوله مع أبيه إلى دمشق سنة ٥٥٥ حيث أقاما سنين عديدة وتوفي والده هناك فبقي رضي الدين ملازماً للدكان لمعالجة المرضى ونسخ بها كتباً كثيرة ودرس على مهذب الدين بن النقاش ولازمه ، فقدّمه الأخير ونوّه بذكره . وعندما دخل الناصر صلاح الدين دمشق ، بعد وفاة نور الدين ، اعتمده في القلعة والبيمارستان طيلة حكمه ... وقد اشتغل عليه بصناعة الطب خلق كثير ونبغ منهم غير قليل سرعان ما غدوا من المشايخ المذكورين في ميدان الطب وتتلمذ عليهم عدد من الدارسين ... وليس بين جمهور أطباء الشام إلاّ من قرأ على الرحبي أو على أحد تلاميذه . وكان من جملة من قرأ عليه ، أول أمره ، الشيخ مهذب الدين عبد الرحيم بن علي .. وقد توفي رضي الدين سنة ٦٣١ هـ بعد أن عاش نحو المائة سنة وخلف ولدين أكبرهما شرف الدين أبوالحسن علي والآخر جمال الدين عثمان .. وقد سلكا طريق أبيهما فدرسا الطب وبرعا به ، وعملا في البيمارستان الذي أنشأه نور الدين في دمشق (٧٨) .

---

(٧٧) ابن ابي اصيبعة : طبقات الأطباء ص ٦٢٨ وانظر الفصل الثالث من هذا البحث .

(٧٨) ابن أبي أصيبعة : طبقات الأطباء ص ٦٧٢ ـ ٦٧٦ ، ٦٨٢ .

أبو الفضل مؤيد الدين محمد بن عبد الكريم المهندس ... ولد ونشأ في دمشق ، وكان يعرف بالمهندس لجودة معرفته بالهندسة وشهرته بها قبل أن يتحلى بمعرفة صناعة الطب . وكان في أوّل أمره نجاراً ونحّاتاً ، يتكسب من النجارة وله يد طولى فيها ، والناس كثيراً ما يرغبون إلى أعماله . وأكثر أبواب البيمارستان الكبير الذي أنشأه نور الدين من صنع يديه .. وسعى إلى تعلّم إقليدس ليزداد في صناعة النجارة جودة ويطلع على دقائقها ويتصرّف في أعمالها .. فكان لا يمضي يوم إلاّ وقد حفظ منه شيئاً وحلّ بعض مسائله ، بعد فراغه من العمل ، وما لبث أن حلّ الكتاب بأسره وفهمه فهماً جيداً وتمكن منه . ثم نظر أيضاً في كتاب (المجسطي) وشرع في قراءته وحلّه وانصرف بكليته إلى صناعة الهندسة وعرف بها ، فضلاً عن اشتغاله بصناعة النجوم وعمل الزيجات . وكان قد قدم إلى دمشق يومذاك الشرف الطوسي، وكان فاضلاً في الهندسة والعلوم الرياضية، ليس في زمانه مثله ، فاجتمع به وقرأ عليه وأخذ عنه شيئاً كثيراً من معارفه . وقرأ أيضاً صناعة الطب على أبي المجد محمد بن أبي الحكم ، ولازمه حق الملازمة ، ونسخ بخطه كتباً كثيرة في حقل الطب . وأبو الفضل هذا هو الذي أصلح ساعات الجامع بدمشق وكانت له على مراعاتها وصيانتها أجرة دائمة، فضلاً عن أجرته التي كان يتقاضاها عن عمله الطبي في البيمارستان . وقد بقي سنين كثيرة يمارس الطب هناك حتى وفاته.. وكان قد اشتغل أيضاً بالحديث والأدب والنحو ، ونظم قطعاً جيدة من الشعر . وتوفي سنة ٥٩٩ هـ وله من الكتب : (رسالة في معرفة رمز التقويم) (مقالة في رؤية الهلال) (اختصار كتاب الأغاني الكبير للأصفهاني) (كتاب في الحروب والسياسة) (كتاب في الأدوية المفردة على ترتيب حروف الأبجد) (٧٩) .

موفق الدين عبد العزيز بن أبي محمد السلمي .. عرف بشدة شفقته على المرضى وخصوصاً على من كان منهم ضعيف الحال، يفتقدهم ويعالجهم ويوصل إليهم

---

(٧٩) ابن ابي اصيبعة : ص ٦٦٩ ــ ٦٧١ .

النفقة ومايحتاجونه من الأدوية والأغذية . وكان كثير الدين ، طلق الوجه ، محبوباً من الجميع . وكان في أول أمره فقيهاً في المدرسة الأمينية بدمشق واشتغل بعد ذلك على الياس بن المطران في صناعة الطب وأتقن معرفتها ، وصار من المتميزين من أربابها ، والمشايخ الذين يقتدى بهم فيها . وكان له مجلس عام للمشتغلين عليه بالطب ، وقد خدم بصناعة الطب في البيمارستان الكبير ، ثم خدم بعد ذلك الملك العادل الأيوبي ، وكانت له عنده منزلة كبيرة ، ولم يزل على ذلك حتى وفاته بدمشق عام ٦٠٤ هـ (٨٠) .

مهذب الدين بن الحاجب : كان طبيباً مشهوراً متقناً للطب والعلوم الرياضية ، وبخاصة الهندسة ، معتنياً بالأدب والنحو .. ولد في دمشق ونشأ بها واشتغل في صناعة الطب على مهذب الدين بن النقاش ولازمه فترة من الزمن . رحل في طلب العلم إلى الموصل وإربل وعاد إلى دمشق . وكان قبل اشتهاره في ميدان الطب أحد المشرفين على صيانة وتشغيل ساعات الجامع الأموي في دمشق ، ثم ما لبث أن لمع نجمه في ميدان الطب وصار من جملة رجالاته ، وعمل في بيمارستان نور الدين الكبير (٨١) .

* * *

(٨٠) ابن ابي اصيبعة : ص ٦٧١ .

(٨١) نفسه ص ٦٥٩ . وانظر بالتفصيل عن الأطباء الذين تواجدوا في دمشق أو تقاطروا إليها في عصر نور الدين، أو قريب منه، مدفوعين بنشاطها الواسع في ميدان الطب ، وبوجود عدد كبير من الأطباء البارزين فيها ، وبإغراء مؤسستها الشهيرة : البيمارستان النوري الكبير ، انظر الأسماء التالية التي يوردها ابن ابي اصيبعة في أماكن متفرقة من كتابه والتي يدلنا بعضها على الجهات النائية التي قدم منها هؤلاء الأطباء : ابو جعفر عمر بن علي بن البندخ المغربي (ص ٦٢٨ ــ ٦٣٠) ، حكيم الزمان عبد المنعم الجلياني الأندلسي (ص ٦٣٠ ــ ٦٣٥) ، أبو زكريا يحيى البياسي الأندلسي (ص ٦٣٧) ، سكرة اليهودي الحلبي (ص ٦٣٧ ــ ٦٣٨) ، عفيف بن سكرة اليهودي (ص ٦٣٨) ، موفق الدين بن المطران (ص ٦٥١ ــ ٦٥٩) ، برهان الدين الشريف
←

وليس ثمة مجال هنا لاستعراض كافة العلماء الذين تألقوا في دولة نور الدين والتعريف بهم ، لئلا يخرج بنا هذا عن وحدة الموضوع .. إنما هي إشارات وشواهد فحسب على تقدم الحركة العلمية ، وعلى نجاح سياسة نور الدين في انضاج ثمار الفكر واستقطاب زرّاعها بالبذل والاحترام والتقدير [83] .

→

الكحال (ص ٦٦٠) ، ابو منصور النصراني (ص ٦٦١) ، ابو النجم بن ابي غالب النصراني (ص ٦٦١) ، ابو الفرج النصراني (ص ٦٦١) ، كمال الدين الحمصي (ص ٦٨٢ – ٦٨٣) ، موفق الدين عبد اللطيف البغدادي صاحب كتاب (الافادة والاعتبار) (ص ٦٨٣ – ٦٩٦) ، ابو الحجاج يوسف الاسرائيلي (ص ٦٩٦ – ٦٩٧) ، اوحد الدين عمران الاسرائيلي (ص ٦٩٧) ، مهذب الدين يوسف بن ابي سعيد (ص ٧٢١– ٧٢٣) ، مهذب الدين عبد الرحيم بن علي (ص ٧٢٨ – ٧٣٦) ، شمس الدين محمد الكلي المغربي (ص ٧٥٥) .

(٨٢) يمكن أن نشير هنا – مجرد إشارة – إلى عدد آخر من الأسماء يستطيع القارىء أن يتعرف عليها بالرجوع إلى كتب التراجم التي تعنى بهذه الفترة ، وإلى قائمة المصادر التي اعتمدت في هذا البحث : ابو البيان الزاهد المعروف بابن الحوراني ت ٥٥١ هـ (انظر سبط : مرآة ٨/٢٢٧ – ٢٢٨) ، عبد الكريم بن عبد الله بن الفضل التنوخي المصري ت ٥٥٦ هـ (سبط ٨/٢٣٩) ، يوسف بن مكي أبو الحجاج الحارثي الشافعي ت ٥٥٦ هـ (سبط ٨/٢٤٠) ، حسان بن تميم بن نصر الدمشقي المعروف بالصوفي ت ٥٦٠ هـ (سبط ٨/٢٥٣) ، عبد الواحد بن ابراهيم المعروف بابن قرة الحلبي ت ٥٦٠ هـ (سبط ٨/٢٥٣) ، ابراهيم بن أحمد بن ابراهيم ت ٥٦١ هـ (سبط ٨/٢٦٣) ، عبد الله بن الحسين الأنصاري المعروف بابن رواحة ت ٥٦١ هـ (سبط ٨/٢٦٣) ، عبد الرحمن بن الحسين ابو طالب الحلبي المعروف بابن العجمي ت ٥٦١ هـ (سبط ٨/٢٦٣ – ٢٦٤) ، عبد الكريم بن محمد ابو الفضائل الانصاري ت ٥٦١ هـ (سبط ٨/٢٦٦ – ٢٦٧) ، الخضر بن شبل ابو البركات المعروف بابن عبد ت ٥٦٢ هـ (سبط ٨/٢٧٠ – ٢٧١) ، هبة الله الحسن الدمشقي اخو الحافظ ابن عساكر، ت٥٦٣ هـ (سبط ٨/٢٧٣–٢٧٤)، هبة الله بن محفوظ بن صصري ت٥٦٣ هـ (سبط ٨/٢٧٤) ، يوسف بن عبد الله بن البندار الدمشقي ت ٥٣٦ هـ(سبط ٨/٢٧٤) علي بن عبد الله بن ابي جرادة العقيلي ت ٥٤٦ هـ (الطباخ تاريخ حلب ٤/٢٣٠ – ٢٣١)،

←

ومن خلال (المدرسة) كمؤسسة تعليمية ، انطلق نور الدين في تحقيق برامجه الواسعة ومطامحه التي لم يوقفها إلاّ الموت .. لقد أراد أن تنتشر المدارس في كل مكان من أنحاء دولته الشاسعة ، مترامية الأطراف .. إنها المراكز التي تنقل حشود الناس من ظلام الأمية والجهل إلى نور المعرفة واليقين .. وإن الرجل ليعرف جيداً أنه بالجهل والأمية لن تتحقق أمته بالإيمان ، ولن تتمكن من تحقيق ما أسميناه بتأصيل الذات العقائدية بمواجهة الغزو الخارجي المتشعّب والتحريف الداخلي المدمّر . والعلماء الذين استقدمهم أو جاؤوه من كل مكان ، ما كان لهم أن يعملوا ارتجالاً أو ينشطوا في الفراغ .. ونحن نعرف مدى الروح التنظيمية التي يملكها رجل كنور الدين .. فلا بدّ من تواجد قدر كاف من المؤسسات التعليمية للافادة من كفاءة هؤلاء الرجال،ولنشر نور العلم والمعرفة وفق نظام دقيق وبرنامج مرسوم.

وهكذا ، فمن خلال الرغبة الجادة في تنظيم عملية التعلّم لتحقيق الأصالة العقائدية في مجابهة الإسلام للغزو الخارجي والتحريف الداخلي ؛ نستطيع أن

←

محمد بن عبد الصمد الطرسوسي ت ٥٤٩ هـ (الطباخ ٢٣٩/٤) ، محمد بن علي بن حميدة ت ٥٥٠ هـ (الطباخ ٢٤٣/٤) ، الحسن بن علي بن العديم ت ٥٥١ هـ (الطباخ ٢٤٤/٤) ، فتيان أبو السخاء الحائك النحوي ت ٥٦٠ هـ (الطباخ ٢٤٩/٤) ،الحسين ابن محمد المعروف بالنجم توفي في العقد السابع ظناً (الطباخ ٢٦٤/٤-٢٦٥) ، محمد ابن أحمد السمرقندي توفي في العقد الثامن ظناً (الطباخ ٢٦٥/٤) ، هاشم بن احمد الأسدي ت ٥٧٧ هـ (الطباخ ٢٦٧/٤-٢٦٨) ، أسامة بن منقذ الكناني، المؤرخ الأديب المعروف ت ٥٨٤ هـ (الطباخ ٢٧٦/٤ - ٢٧٨) ، الشريف حمزة بن زهرة الاسحاقي الحسيني ت ٥٨٥ هـ (الطباخ ٢٨٥/٤ - ٢٨٦) ، الأمير الفقيه عيسى الهكاري ت ٥٨٥ هـ (الطباخ ٢٨٩/٤ - ٢٩٠) ، محمد بن علي المازندراني الشيعي ت ٥٨٨ هـ (الطباخ ٣٠٨/٤ - ٣٠٩) ، الشيخ شعيب الأندلسي ت ٥٩٦ هـ (الطباخ ٣١٦/٤).. وغير هؤلاء ممن وردت أسماء بعضهم في صفحات هذا البحث ، ومن الشعراء والأدباء الذين يمكن ان يتعرف القارىء عليهم في كتاب العماد الأصفهاني الشهير (الخريدة) ..

نعثر على مفتاح ذلك النشاط المدرسي الذي تبناه السلاجقة من قبل وأعقبهم نور الدين وكل الذين ساروا على خطاه ، وبخاصة خلفه الناصر صلاح الدين ، فأصبح هذا النشاط (سمة) من أبرز سمات العصر : عصر التوحيد والمقاومة والجهاد الذي أريد له ، منذ أول لحظة ، أن يكون حركة مسلّحة مبطنة بنور البرهان وقوة الكلمة ..

ومن ثم نجد الرجل ينشط ، منذ لحظة تسلّمه الحكم وحتى وفاته ، لإقامة أكبر قدر (ممكن) من معاهد العلم : مدارس ومكاتب ودور حديث وربطاً [٨٣] ، وإنفاق المبالغ الطائلة في هذا السبيل ، ووقف الوقوف السخية لضمان استمرار هذه المؤسسات على أداء مهمتها . وشهدت مدن دولته وحواضرها ، وبخاصة حلب ودمشق ، جهداً مستمراً لبناء المدارس ابتداء ، أو توسيع وإصلاح ما كان قد بني قبلاً .. ولم يقف الرجل وحده في هذا المضمار بل وقف من ورائه جل رجالات دولته وكثير من نسائها أيضاً .. وأصبح تقليداً شائعاً أن يسعى هذا الرجل أو تلك المرأة إلى التقرب إلى الله وتخليد الذكرى بهذه المأثرة : بناء مدرسة ؛ كان يعدّ ولا ريب عملاً من أخلص أعمال الإيمان . « وقد كان سبيل الناس إلى العلم قبل ذلك هو التفرغ له وملازمة الشيوخ ، فكان لا يستطيع ذلك إلا من كانت له مواهب حقيقية ظاهرة يشعر معها أن هذه الدراسة ستجعل منه شيئاً ، أو من كانت لديه موارد مالية كافية تغنيه عن طلب العيش وتمكنه من التفرغ للدرس ، فكان طلب العلم ــ على هذا ــ لوناً من الأرستقراطية الذهنية أو المالية ، ولهذا فقد كان الناس إما أن يكونوا علماء أو جهلاء ، أما من نسميهم نحن بالمتعلمين فلم يكن لهم وجود تقريباً ، فلما انتشرت المدارس كثروا حتى أصبحوا يكوّنون جزءاً هاماً من الطبقة

---

(٨٣) انظر : العماد : البرق ص ٥٦ ، ١٤٤ ، أبو شامة : الروضتين ١/١/٣٤ ، ابن الأثير : الباهر ص ١٧٠ ، ١٧٢ ، ابن خلكان : وفيات ٥/١٨٥ ، ابن العديم : زبدة ٢/٢٩٣ ــ ٢٩٥ ، ابن واصل : بني أيوب ١/٢٨٢ ، ٢٨٤ ، وانظر بالتفصيل إليسيف: نور الدين ص ٧٥١ ــ ٧٥٤ .

الوسطى، بل الجزء الأقوى منها، وكان لهذا كله أثره في رفع المستوى الاجتماعي العام»[٨٤].

في حلب ــ على سبيل المثال ــ جدّد نور الدين إحدى الكنائس التي كان المسلمون قد استولوا عليها بسبب تحديات الصليبيين المعروفة عام ٥١٨، وصيّرها مسجداً ومدرسة للحنفية عرفت بالحلاّوية، وجدّد فيها مساكن يأوي إليها الفقهاء، وايواناً. وكان بدء العمارة سنة ٥٤٤ هـ، وقد جلب لها من (أفامية) القريبة من حلب مذبحاً من الرخام الشفاف الذي إذا وضع تحته ضوء شفّ عما وراءه، ووضعه فيها[٨٥]. كما حوّل داراً كانت لأبي الحسن علي ــ وزير بني مرداس ــ فصيّرها ــ بعد انتقالها إليه بالوجه الشرعي ــ مدرسة للشافعية، وجعل فيها مساكن للمرتبين بها من الفقهاء، وذلك في سنة ٥٥٠ هـ[٨٦]. وبنى مدرسة أخرى عام ٥٤٤ هـ هي المدرسة النفرية النورية الشافعية[٨٧]. كما جدّد مسجد الغضائري وجعله مدرسة وعيّن له مدرساً على المذهب الشافعي ووقف عليه وقفاً[٨٨]. ووقف في جامع حلب الكبير، المسمى بالجامع الأعظم، زاويتين لتدريس مذهبي مالك وأحمد، وزاوية ثالثة لتدريس الحديث، وإنما اغفل المذهبين الآخرين، الحنفي والشافعي لأنهما كانا يدرسان في الجامع المذكور قبل نور الدين[٨٩].

---

(٨٤) حسين مؤنس: نور الدين ص ٣٧٢ ــ ٣٧٣.

(٨٥) ابن شداد: الاعلاق (قسم حلب) ص ١١٠ ــ ١١١، ابن العديم: زبدة ٢٩٣/٢، وهو يشير إلى ان عملية البناء بدات عام ٥٤٣ وليس الذي يليه.

(٨٦) ابن شداد: الاعلاق (قسم حلب) ص ٩٨ ــ ٩٩، ابن العديم: زبدة ٢٩٣/٢ ــ ٢٩٤، ابن واصل: بني أيوب ٢٨٢/١.

(٨٧) ابن شداد: حلب ص ١٠٠، ابن العديم: زبدة هامش ٤، ٢٩٤/٢ عن مخطوطة باسم (كنز الذهب) ورقة ٦٥ ظ.

(٨٨) ابن شداد: حلب ص ٤٤، ابن العديم: زبدة ٢٩٤/٢.

(٨٩) ابن شداد: حلب ص ١٢١ ــ ١٢٢، الطباخ: تاريخ حلب ٨٢/٢.

وقام بعض رجالاته في حلب ببناء عدد من المدارس أشهرها ولا ريب المدرسة الشاذبختية التي أنشأها جمال الدين شاذبخت ، الخادم الهندي عتيق نور الدين ، وخصصها لتدريس المذهب الحنفي (٩٠) . كما أنشأ الرجل ذاته مدرسة أخرى بنفس الاسم شمالي حلب (٩١) . وأنشأ أسد الدين شيركوه مدرسة باسمه خصصت لتدريس المذهب الشافعي (٩٢) . وقام مجد الدين بن الداية ببناء دار الحديث ومدرستين حملتا اسمه (المجدية) إحداهما داخل حلب والأخرى ظاهرها (٩٣) . وبنى طومان بن ملاعب بن عبد الله الأنصاري ــ صاحب الرقة، وأحد أمراء نور الدين الكبار ــ مدرسة للحنفية عرفت باسمه (٩٤) . وثمة أمير آخر من العائلة الأيوبية هو حسام الدين محمد بن عمر بن لاجين، ابن أخت صلاح الدين ، أنشأ مدرسة باسم (الحدادية) (٩٥) . وقامت زوجة نور الدين ، عصمت خاتون ، ببناء دار للحديث ألحقتها بالخانقاه التي بنتها في حلب (٩٦) .

وفي دمشق أنشأ نور الدين عدداً من المدارس أشهرها المدرسة النورية (الصغرى) للشافعية عام ٥٦٣ هـ (٩٧) ، ومدرسة جامع القلعة (٩٨) ، والمدرسة

---

(٩٠) ابن شداد : حلب ص ١١٣ ، ابن العديم : زبدة ٣/ ٩ .

(٩١) الطباخ : تاريخ حلب ٤/ ٣١٩ .

(٩٢) نفسه ٤/ ٢٥٩ .

(٩٣) ابن الشحنة : الدر المنتخب ص ١٢٠ ، ١٢٣ .

(٩٤) النعيمي : الدارس ١/ ٥٤٢ ــ ٥٤٣ .

(٩٥) ابن شداد : حلب ١١٤ ــ ١١٥ .

(٩٦) نفسه ص ١٢٢ ، وعن مدارس حلب عموماً في عصر نور الدين انظر : إليسيف : نور الدين ص ٩١٥ ــ ٩١٨ . (الملحق الثالث) .

(٩٧) ابن شداد : الاعلاق (قسم دمشق) ص ٢٠٣ ، النعيمي: الدارس ١/ ٦٤٨.

(٩٨) ابن شداد : دمشق ص ٢١٨ .

العمادية التي اشتهرت باسم مدرسها العماد الأصفهاني [٩٩] ، والمدرسة الصلاحية بالقرب من البيمارستان النوري ، وقد نسبت خطأ إلى صلاح الدين [١٠٠] ، ومدرسة الكلاسة شمالي الجامع الأموي[١٠١] . كما بنى داراً للحديث هي الأولى من نوعها في دمشق ، أوقف عليها وقوفاً كثيرة [١٠٢] . وفي عام ٥٦٨ هـ شرع نور الدين بانشاء مدرسة كبيرة (مركزية) للشافعية ، لكنه توفي قبل إتمامها ، فأتمها بعده الملك العادل شقيق الناصر صلاح الدين فسميت بالمدرسة العادلية أو (النورية الكبرى)[١٠٣] تمييزا لها عن النورية الصغرى . وقد قام ولده الملك الصالح اسماعيل بنقل رفاته إليها حيث دفن هناك[١٠٤]. وقد وصفها ابن جبير ــ بعد سنوات قلائل ــ فقال بأنها : « من أحسن مدارس الدنيا ، وأنها قصر من القصور الأنيقة ، ينصبّ فيها الماء في شاذروان وسط نهر عظيم ، ثم يتدفق الماء في ساقية مستطيلة إلى أن يقع في صهريج كبير وسط الدار ، فتحار الأبصار في حسن ذلك المنظر » [١٠٥] .

وقام رجالاته بإنشاء عدد آخر من المدارس كالمدرسة الريحانية المجاورة للمدرسة النورية ، والتي أنشأها جمال الدين ريحان ، والي القلعة وخادم نور الدين،

---

(٩٩) النعيمي : الدارس ١٨٣/١ .

(١٠٠) ابن شداد : دمشق ص ٢٤٥ ، النعيمي : الدارس ٣٣١/١ .

(١٠١) النعيمي : الدارس ٤٤٧/١ .

(١٠٢) ابن شداد : دمشق ص ١٢٣ ، ابن واصل : بني أيوب ٢٨٤/١ وانظر : النعيمي : الدارس ٩٩/١ ــ ١٠١ .

(١٠٣) أبو شامة : الروضتين ٥٤٤/١ ــ ٥٤٥ ، سبط : مرآة ٢٩٤/٨ ، العماد: البرق ١٣٤ ــ ١٣٥ ، ابن شداد : دمشق ص ٢٤٠ ، ابن واصل : بني ايوب ٢٨٢/١، النعيمي : الدارس ٣٥٩/١ ، ٣٦١ .

(١٠٤) ابن واصل : بني أيوب ٢٨٢/١ وهوامشها ، النعيمي : الدارس ٦٠٧/١، سبط مرآة ٢٩٤/٨ .

(١٠٥) رحلة ص ٢٥٦ .

سنة ٥٦٥ وأوقف عليها أوقافاً كثيرة[١٠٦]، والمدرستين اللتين أنشأهما الأمير مجاهد الدين بزان بن مامين قبل سنة ٥٥٥ هـ حيث توفي [١٠٧] . وقامت عصمة خاتون ، زوجة نور الدين ، ببناء مدرسة لأصحاب أبي حنيفة عرفت بالمدرسة الخاتونية ، أو مدرسة خاتون [١٠٨] . وفي الزيارة التي قام بها ابن جبير لدمشق بعد وفاة نور الدين بعشر سنوات يحدثنا أنه شاهد فيها نحو عشرين مدرسة [١٠٩] . وأغلب الظن أن معظم هذا المدارس مما تم إنشاؤه خلال الحركة المدرسية التي شهدها عصر نور الدين [١١٠] .

ومدارس أخرى للمذاهب المختلفة ، بنيت في حمص وحماة وبعلبك ومنبج والرحبة والرها ونصيبين [١١١] . ليس هذا فحسب ، بل إن نور الدين كان يسعى إلى إقامة مدارسه حتى في تلك البلاد التي لاتخضع لحكمه ، وكان ينتهز الفرص لتحقيق خططه في هذا المجال .. فهو عندما دخل الموصل عام ٥٦٦ هـ ، لإقرار الأمور فيها ، أشار على صديقه الشيخ الزاهد عمر الملاّء بابتياع خربة واسعة وسط البلدة وإقامة جامع كبير فيها تقام فيه الجمع والجماعات ، وتدرّس المذاهب المختلفة ؛ وولى الرجل نفسه أمر الاشراف عليه ، فانفق أموالاً كثيرة قيل أنها بلغت ستين ألف دينار ، وقيل ثلاثمائة ألف ، وتمّ انجاز البناء في أقل من ثلاث سنوات ، وقدم

---

(١٠٦) ابن شداد : دمشق ص ٢٠٩ وهوامشها النعيمي: الدارس ١/٥٢٢–٥٢٣ .

(١٠٧) أبو شامة : الروضتين ١/١/٣٠٩ ، النعيمي : الدارس ١/٤٥٢ .

(١٠٨) سبط : مرآة ٨/٣٨٥ ، ابن شداد : دمشق ص ٢٠٥ ، النعيمي : الدارس ١/٥٠٧ .

(١٠٩) رحلة ص ٢٥٦ .

(١١٠) عن مدارس دمشق ـ عموماً ـ في عصر نور الدين انظر : إليسيف : نور الدين ص ٩١٩ ـ ٩٣٠ (الملحق الرابع) .

(١١١) ابن شداد : حلب ص ٩٨ ـ ٩٩ ، ابن خلكان : وفيات ٣/٥٣ ـ ٥٦ . ٥/١٨٥ ، ابن واصل : بني أيوب ١/٢٨٢ ، ابن الأثير : الباهر ص ١٧٠ . ابن طولون : قضاة دمشق ص ٤٧ ـ ٤٨ (الملحق السادس)
Elisseeff : Nur - Ad - din, pp. 933 - 935

نور الدين لكي يفتتحه بنفسه ويصلّي فيه ، وخصص قرية من قرى الموصل لكي تكون وقفاً عليه(١١٢) . وهو عندما بعث قاضي قضاته كمال الدين الشهرزوري رسولاً إلى الخليفة العباسي المستضيء في بغداد عام ٥٦٨ هـ في مهمة سياسية ، طلب منه أن يذكّر الخليفة بذلك الاقطاع الذي كانت الخلافة العباسية قد كافأت به أباه زنكي متمثلاً بناحيتي درب هارون وصريفين من أعمال العراق الجنوبي ، فاستجاب الخليفة لطلبه ، وكان هدفه من وراء ذلك أن يلتمس أرضاً ببغداد على شاطىء دجلة ويبني فيها مدرسة للشافعية ويقف عليها الناحيتين المذكورتين ، لكنه توفي قبل البدء بمشروعه هذا (١١٣) .

★ ★ ★

ولم يكن نور الدين ــ كما رأينا في بدء هذا الفصل ــ متحيزاً أو متعصّباً إلى مذهب من المذاهب لكي يسعى ــ من خلال نشاطه المدرسي هذا ــ إلى تحقيق نصر جزئي لمذهب دون مذهب ، وإلى تعزيز مواقع (فقهٍ) ما بمواجهة سائر المعطيات الفقهية ، كما يحدث في عصور التقليد والتيبّس الفكري .. إنه يطمح إلى ماهو أبعد من هذا بكثير : العمل على مستوى العقيدة الاسلامية في آفاقها الرحيبة الواسعة ، وشموليتها التي تتسع لكل فكر إسلامي مبدع واجتهاد خلاّق .. إن الرجل يطلّ على المسألة الفكرية من فوق ، ويسعى إلى أن يكون الصراع الفكري ، لا قتالاً وانشقاقاً في صميم الذات العقائدية للأمة المسلمة، ولكنه صراع بمواجهة خصم صليبي كان يتغلغل في حنايا الأرض الاسلامية ، ويقف بالمرصاد متحفزاً لتدمير الشخصية الاسلامية ، تماماً كما يسعى استعمار اليوم الجديد وصهيونيته لتحقيقه.. وصراع من جهة أخرى بمواجهة انحرافات القرون الطويلة في مجرى التاريخ الاسلامي نفسه ، وهذا هو الأخطر والأهم .. ومن ثم فان قيادة الفكر الاسلامي

---

(١١٢) سبط : مرآة ٨/٣١٠ ــ ٣١١ ، ابو شامة : الروضتين ١/٤٨٠ ، العماد: البرق ص ٩٨ ، ابن كثير : البداية ١٢/٢٦٣ .

(١١٣) العماد : البرق ص ١٣٩ ، ابن الاثير : الكامل ١١/٣٩٥ .

صوب مواقع التأصيل والديمومة ، يجب أن تتحلى بقدر كبير من تجاوز الصراعات الجانبية والعقد التاريخية صوب ما هو أعمّ وأشمل وأبعد مدى ..

وثمة حادثة ـ من بين عديد من الحوادث تناقلها المؤرخون ـ تحمل دلالتها الواضحة في هذا المجال : في أعقاب وفاة أحد كبار الفقهاء المشرفين على التدريس في حلب ، انقسم هؤلاء إلى قسمين كل يريد مذهباً من المذاهب ويسعى إلى استدعاء الرجل الذي يخلفه في التدريس .. وتطور الجدل إلى فتنة كادت تقع بين الفريقين « فلما سمع نور الدين بذلك استدعى جماعة الفقهاء إلى القلعة بحلب ، وخرج إليهم نائبه ـ مجد الدين بن الداية ـ وقال لهم على لسانه : نحن ما أردنا ببناء المدارس إلاّ نشر العلم ودحض البدع من هذه البلدة وإظهار الدين ، وهذا الذي جرى بينكم لا يحسن ولا يليق » ثم أعلمهم أن نور الدين قرر استرضاء الفريقين باستدعاء الرجلين وتولية كل منهما احدى المدارس الشهيرة في حلب (١١٤) .

لقد حقق نور الدين التجاوز الصعب ، وتمكن من مدّ بصره صوب الأشمل والأبعد ، فبنى المدارس لكل المذاهب(١١٥) ، وحقق الأجواء الصالحة لكل الاتجاهات التي تعمل في اطار الفكر الاسلامي الأصيل ، وتعامل مع كل العلماء أيا كان المذهب الذي ينتمون إليه ، وصادق رجالاً من أهل السنة والجماعة ومن الشيعة على السواء .. بل إنه تعمد ـ كما يبدو ـ أن تشهد دولته مزيداً من التنوع الفكري ، وألا تجمد مؤسساتها على نمط واحد .. فمن خلال التنوع والتغاير تتحقق الحركة ، وتتأصل الشخصية ، ويتدفق الابداع ..



---

(١١٤) الطباخ : تاريخ حلب ٢/ ٦٨ .

(١١٥) فضلا عما سبق يمكن الرجوع الى الجدولين (١ و ٢) اللذين ثبتهما Elisseeff : في كتابه عن نور الدين Vol. 3,pp. 913 - 914 ويتضمنان إحصاءً لمدارس المذاهب السنية الأربع التي شهدتها المنطقة قبل نور الدين وفي عصره .

قائمة بأهم المصادر

ابن الأثير : عز الدين محمد بن عبد الكريم الشيباني (ت ٦٣٠هـ) ٠
التاريخ الباهر في الدولة الاتابكية ، تحقيق عبد القـادر طليمات ، دار الكتب الحديثة ، القاهرة ــ ١٩٦٣ م ٠
الكامل في التاريخ ، دار صادر ، دار بيروت ــ ١٩٦٦ م ٠

ابن أبي اصيبعة : موفق الدين أبو العباس احمد بن القاسم الخزرجي (ت٦٦٨هـ) ٠
عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، تحقيق نزار رضا ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ــ ١٩٦٥ م ٠

التطيلي : بنيامين بن يونه النباري الأندلسي (ر ٥٦١ ــ ٥٦٩ هـ) ٠
رحلـة بنيامين التطيلي ، ترجمة وتعليق عزرا حداد ، المطبعة الشرقية ، بغداد ــ ١٩٤٥ م ٠

ابن جبير : محمد بن احمد الكناني الأندلسي (ت ٦١٤ هـ) ٠
رحلة ابن جبير ، دار صادر ــ دار بيروت ــ ١٩٦٤ م ٠

ابن الجوزي : أبو الفرج عبد الرحمن بن علي (ت ٥٩٧ هـ) .
المنتظم في تاريـخ الملوك والأمم ، دائرة المعارف العثمانية ، حيدر آباد الدكن ــ ١٣٥٨ هـ ٠

ابن خلكان : شمس الدين احمد بن محمد (ت ٦٨١ هـ) ٠
وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، تحقيق إحسان عباس ، دار صادر ــ دار بيروت ــ ١٩٦٨ م ٠

سبط ابن الجوزي : شمس الدين أبو المظفر يوسف بن قزاوغلي (ت ٦٥٤ هـ) .
مرآة الزمان في تاريخ الأعيان ، دائرة المعارف العثمانية ، حيدر آبـاد الدكن ــ ١٩٥١ م ٠

أبو شامة : شهاب الدين عبد الرحمن بن اسماعيل المقدسي (ت ٦٦٥ هـ) .

كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية ، تحقيق محمد حلمي محمد أحمد ، المؤسسة المصرية العامة ، القاهرة ــ ١٩٦٢ م .

ابن شداد : عز الدين محمد بن علي (ت ٦٨٤ هـ) .

الاعلاق الخطيرة في ذكر امراء الشام والجزيرة :
قسم دمشق ، تحقيق سامي الدهان ، المعهد الفرنسي ، دمشق ــ ١٩٥٦م
قسم حلب ، تحقيق سورديل ، المعهد الفرنسي ، دمشق ١٩٥٣ م .

الطباخ : محمد راغب بن محمود بن هاشم الحلبي (ت ؟).

أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء ، المطبعة العلمية ، حلب ــ ١٩٢٥م.

ابن طولون : شمس الدين (ت ٩٥٣ هـ) .

قضاة دمشق (الثغر البسام في ذكر من ولي قضاء الشام) ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، المجمع العلمي العربي ، دمشق ــ ١٩٥٦ م .

ابن العديم : كمال الدين أبو القاسم عمر بن هبة الله (ت ٦٦٠ هـ) .

زبدة الحلب من تاريخ حلب ، تحقيق سامي الدهان ، المعهد الفرنسي ، دمشق ــ ١٩٥٤ م .

العماد الاصفهاني : محمد بن حامد (ت ٥٩٧ هـ) .

سنا البرق الشامي ، وهو مختصر البرق الشامي ، اختصره قوام الدين الفتح بن علي البنداري (ت ٦٤٢ هـ) ، القسم الأول ، تحقيق رمضان ششن ، دار الكتاب الجديد ، بيروت ــ ١٩٧١ م .

ابن قاضي شهبة : بدر الدين (ت ٨٧٤ هـ) .

الكواكب الدرية في السيرة النورية ، تحقيق محمود زايد ، دار الكتاب الجديد ، بيروت ــ ١٩٧١ م .

ابن القلانسي : أبو يعلى حمزة (ت ٥٥٥ هـ) .

ذيل تاريخ دمشق ، تحقيق آمدروز ، مطبعة الآباء اليسوعيين ، بيروت ــ ١٩٠٨ م .

ابن كثير :عماد الدين أبو الفدا اسماعيل بن عمر (ت ٧٧٤ هـ) .

البداية والنهاية في التاريخ ، مطبعة السعادة ، القاهرة ــ ١٩٣٢ م .

ابن منقذ : أبو مظفر أسامة الكناني الشيزري (ت ٥٨٤ هـ) .

الاعتبار ، تحقيق فيليب حتي ، مطبعة جامعة برنستون ، الولايات المتحدة ، ١٩٣٠ م (تصوير مكتبة المثنى ــ بغداد) .

النعيمي : عبد القادر بن محمد الدمشقي (ت ٩٢٧ هـ) .

الدارس في انباء المدارس ، تحقيق جعفر الحسني ، مطبوعات المجمع العلمي العربي ، دمشق ١٩٤٨ ــ ١٩٥١ م .

ابن واصل : جمال الدين محمد بن سالم (ت ٦٩٧ هـ) .

مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ، تحقيق جمال الدين الشيال ، مطبوعات ادارة إحياء التراث القديم ، مطبعة جامعة فؤاد الأول ، القاهرة ــ ١٩٥٣ م .

Elisséeff : Nikita

Nur Ad - din: un Grand Prince Musulman De Syrie Au Temps Des Croisades.
Institut Français De Damas 1967.

الفهرس

كتب للمؤلف

آ ـ أبحاث تاريخيـة

ملامح الانقلاب الاسلامي في خلافة عمر بن عبد العزيز	الدار العلمية ، بيروت ـ ١٩٧٠. الطبعة الثانية ، الدار العلمية ، بيروت ١٩٧١ الطبعة الثالثة ، مؤسسة الرسالـة ، بيروت ـ ١٩٧٥
عماد الدين زنكي	الدار العلمية ، بيروت ـ ١٩٧٢
خطوات في الهجرة والحركة	الدار العلمية ، بيروت ـ ١٩٧٢ الطبعة الثانية ، مكتبة القدس ، بغداد ١٩٧٦
دراسة في السيرة	مؤسســة الرسالة ـ دار النفـائس ، بيروت ـ ١٩٧٥ الطبعة الثانية ، بيروت ـ ١٩٧٧ الطبعة الثالثة ، بيروت ـ ١٩٧٨

ب ـ أبحاث اسلامية

لعبة اليمين واليسار	مؤسسة الرسالة ، بيروت ـ ١٩٧٢
تهافت العلمانية	مؤسسة الرسالة ، بيروت ـ ١٩٧٥ الطبعة الثانية ، بيروت ـ ١٩٧٧
التفسير الاسلامي للتاريخ	دار العلم للملايين ، بيروت ـ ١٩٧٥ الطبعة الثانية ، بيروت ـ ١٩٧٨
مقال في العدل الاجتماعي	مؤسسة الرسالة ، بيروت ـ ١٩٧٧
الحصـار القاسي (وثائق مـن تاريخنـا المعـاصر)	مؤسسة الرسالة ، بيروت ـ ١٩٧٨

ج ـ أعمـال أدبية

المأسورون (مسرحية)	دار الارشاد ، بيروت ــ ١٩٧٠
مشكلة القدر والحرية في المســرح الغربي المعاصر (نقد)	الدار العلمية ، بيروت ــ ١٩٧١
في النقد الاسلامي المعاصر (نقد)	مؤسسة الرسالة ، بيروت ــ ١٩٧٢
الطبيعة في الفن الغربي والاسلامي (نقد)	مؤسسة الرسالة ، بيروت ــ ١٩٧٧
فوضى العالم في المســرح الغربي المعــاصر (نقد)	مؤسسة الرسالة ، بيروت ــ ١٩٧٧

* * *

يتحدث هذا الكتاب عن رجل .. وتجربة :

أما الرجل فهو الملك العادل ، المجاهد المرابط ، الصالح المصلح ، أحد ملوك الإسلام المعدودين ، وأحد فرسانه المتحمسين ... نور الدين بن عماد الدين زنكي ، صاحب السيرة الحميدة والفعال المجيدة !!

وأما التجربة فهي تجربة جد عظيمة ، إنها تجربة الهدم والبناء ، هدم الفساد والظلم والطغيان ، وبناء الأمة بالعلم والعدل والإيمان .. لقد بنى هذا الرجل النفوس بالإيمان والصدق والإخلاص ، وبنى البلاد بالمدارس والمشافي ... لقد أسقط الضرائب والمكوس والمظالم ، ونشر العدل والرحمة والكفاية .. لقد أحدث انقلاباً إسلامياً جذرياً في دولته ومجتمعه وفي كل المجالات .. كل ذلك وهو يمتطي جواده وسيفه على عاتقه ، ينازل الغزاة الصليبيين ، ويدفع عدوان المعتدين .

وكم هو حري بالمسلمين في هذا الزمان الذي تشابهت ظروفه مع ظروف هذا الرجل أن يقرؤوا سيرته من جديد ، وأن يتعرفوا على تجربته بعمق ..

والشكر الجزيل لمؤلف هذا الكتاب الذي رسم الخطوط البارزة في تكوين هذا الرجل ، وأبرز تجربته بهذه الصورة الرائعة الصادقة .

محمد علي دولة

